كتاب

تنوير بصائر المقلدين في مناقب الأئمة المجتهدين

رضوان الله عليهم أجمعين

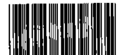
تصنيف

أحقر الورى وأذل الفقراء مرعي بن يوسف الحنبلي المقدسي الكرمي
وفقه الله تعالى لطاعته، وسقاه شراب محبته وجعله من الصالحين
وحزبه المفلحين وأنصاره الصابرين، وكفاه شر الأعداء والحاسدين
وشر خلقه أجمعين بمحمد وآله وصحبه، آمين
والحمد لله رب العالمين

تحقيق

عبد الله الكندري

دار ابن حزم



الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

كتاب

تنوير بصائر المقلدين

في

مناقب الأئمة المجتهدين

رضوان الله عليهم أجمعين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد،

فإن الله عز وجل قد اختار لهذه الأمة المحمدية أئمة أعلام وقادة ذوو عقول وأفهام، حملوا مشاعل الهدى والنور والعلم، ونقلوا أصول هذا الدين ومبادئه، ونشروا علوم الشريعة، فكانوا صوراً مشرقة، بلغوا الأمانة وأدوها خير أداء، وسعوا بكل إخلاص وعطاء لخدمة الإسلام والمسلمين.

وكانت بداية هذا الركب المنير على يد خير البرية محمد ﷺ فكان أصحابه رضي الله عنهم شعار الأمة وقدوة الأئمة ومصابيح الهدى الذي تشرق بهم الظلمات، اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ففازوا بخير الدارين الدنيا والآخرة. «رضي الله عنهم ورضوا عنه». فكانوا بحق تلاميذ مدرسة النبوة وجاء من بعدهم من حمل الراية فنشر علومهم في الأرض، فنبغ في كل مصر منهم جماعات وجماعات ليكتمل المسير مجددين عهد النبوة ينشرون ميراثها ألا وهو العلم.

فكان لكل عصر علماء، ولكل طبقة أعلام ملأوا الدنيا علماً ونوراً تشهد بذلك البراهين وتصدق عليه الأدلة، ولا زالت كتب

التراجم والتواريخ تزخر بمعارفهم وعلومهم وجهدهم وجهادهم، فجزاهم الله خير ما يجزي به عباده الصالحين وأورثهم دار المقامة والنعيم، اللهم آمين آمين.

والمطلع على هذا المصنف يعيش في جو مليء بالعطاء والأنوار، ابتدأ فيه مؤلفه ـ رحمه الله ـ بمجموعة فريدة من علماء الأمة، ذكرهم على سبيل المثال لا الحصر، مبتدءاً من عصر التابعين إلى عصر الأئمة الأربعة، وبعدها بوب لكل إمام من الأئمة الأربعة باباً منفصلاً ذكر فيه مجموعة من مناقبه وفضائله، ثم ختم الكتاب في مسائل متفرقة بين تفضيل المذاهب بعضها على بعض والتقليد وتتبع الرخص واختلاف المذاهب والاجتهاد وفروعه.

وقد حرص المؤلف ـ رحمه الله ـ على وصف هؤلاء الأئمة الأفذاذ باتباع منهج النبوة والسير على سبيل الهداية، فلسان حالهم يقول: «إذا صح الحديث فهو مذهبي» وأما ما روجه بعض أهل التعصب والجهالة من اتهام هؤلاء الأئمة وإثارة الشبه حولهم والوقوف على بعض زلاتهم وجعلها مثار جدل ونزاع، وقد لا يصح نسبة أكثرها إلى هؤلاء الأئمة الأعلام. فقد قال الإمام العلامة الذهبي ـ رحمه الله ـ في هذا الباب مقالة إنصاف جاء فيها: «ثم أن الكبير من أئمة العلم إذا كثر صوابه وعلم تحريه للحق واتسع علمه وظهر ذكاؤه وعرف صلاحه وورعه واتباعه يغفر له زلله ولا نضلله ونطرحه وننسى محاسنه. نعم ولا نقتدي به في بدعته وخطئه ونرجو له التوبة من ذلك» سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٧١.

وصف نسخ المخطوط.

أولاً: نسخة شستربتي:

كان من فضل الله عز وجل ومنه ونعمائه أن يسر لي الاطلاع على مخطوطات شستربتي المحفوظة في مركز المخطوطات والتراث والوثائق ـ الكويت ـ والذي تفضل الإخوة بالمركز مشكورين بتيسير

وسائل البحث العلمي من اطلاع على المخطوط وتصويره وتوفير مصادر الدراسة والتحقيق، وكان من ضمن هذه المجموعة التراثية مخطوط ـ التنوير ـ.

* ونسخة المركز تعتبر أهم النسخ المتوفرة لعدة أسباب:

١ ـ أنها كتبت بخط نسخ جيد وواضح وجميل.

٢ ـ النسخة كتبت في حياة المصنف فتاريخ نسخها يعود إلى «يوم الأربعاء المبارك حادي عشرين محرم الحرام افتتاح عام ثلاثين بعد الألف» أي أنها نسخت بعد تصنيفها بسبع سنوات حيث يقول المصنف رحمه الله في ختام الكتاب «فرغت من جمع هذه الفوائد... في نهار السبت بعد العصر في شهر جمادى الآخرة بالجامع الأزهر سنة ثلاث وعشرين بعد الألف»

٣ ـ وقد نسخت هذه النسخة من نسخة المصنف رحمه الله حيث يقول الناسخ «وقد كتب هذه النسخة المباركة العبد الفاني الفقير علي بن عمر السنواني من نسخة المؤلف عامله الله بلطفه».

* والنسخة تقع في (٩٢) ورقة من القطع الكبير في كل ورقة لوحتان وفي كل لوحة (٢٥) سطراً.

* جاء على غلاف النسخة بعض الجمل اللطيفة وهي: ـ

ـ «الخط الحسن يزيد الحق وضوحاً».

ـ وتمليك نصه «من فضل الله على عبده الفقير محمد بن عبد القادر أفندي البغدادي».

ومقطع كتب فيه: «لما احترقت المقصورة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام قال بعضهم:

تالله ما احترق القبر الشريف لعلة   يخشى عليه ولادهاها النار
لكنما أيدي الروافض لامست   ذاك المقام فطهرته النار

- ومقطع آخر كتب فيه: -

لا تـركـنـن إلـى الـنـسـاء ولا تـثـق بـعـهـودهـن
يـروك وداً ظـاهـراً والـمـكـر بـيـن ظـلـوعـهـن
ألا لـعـنـة الـمـهـيـمـن عـلـى الـنـسـاء جـمـيـعـهـن
الـكـاذبـات الـفـاجـرات الـخـائـنـات بـعـولـهـن

- ومقطع كتب فيه: -

«وفيه أيضاً كتاب الاستبصار في أنساب الأنصار للشيخ العلامة موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الحنبلي رحمه الله تعالى». ولعل هذا يشير إلى أن الكتاب كان عبارة عن جزئين الأول «التنوير» والثاني «الاستبصار» والله أعلم.

* جاء في ختام الورقة الأخيرة (٩٢) «فائدة ملخصة» لعلها من إضافة الناسخ أثبتها في نهاية الكتاب.

* والنسخة الأصلية للمخطوط محفوظة في مكتبة شستربتي - دبلن - إيرالندا - تحت رقم - **٤٣٢٤**- تراجم وقد حفظت بمركز المخطوطات والتراث والوثائق - الكويت - تحت رقم **١٦/ ١٩١**.

ثانياً: نسخة برنستون:

وأحمد الله عز وجل أن أعانني بالحصول على نسخة برنستون وقد تكرم الأستاذ أحمد درماز أخصائي المخطوطات في مكتبة المخطوطات - بجامعة الكويت. بالإشارة إلى مكانها - والدال على الخير كفاعله.

* والمخطوط يقع في (١٢٨) ورقة من القطع المتوسط في كل ورقة لوحتان وفي كل لوحة (٢٥) سطراً.

* وقد كتبت النسخة بخط نسخ جيد وواضح.

* وتاريخ النسخ يعود كما يقول ناسخها «وكان الفراغ من هذه

النسخة نهار الخميس وقت الظهر سلخ تسعة وعشرين من شهر المحرم سنة ألف ومائة واثنين وتسعين من الهجرة على يد أفقر العباد وأحوجهم إلى رحمة ربه يوم التناد فقير رحمة ربه العلي أحمد الحجاوي الحنبلي غفر الله له ولوالديه ولمشايخه ولكل المسلمين أجمعين آمين آمين آمين».

* وكتب على هامش النسخة في الورقة الأخيرة «بلغ مقابلة حسب الطاقة وقد نقل من نسخة كثيرة التحريف، وغفر الله لمن اطلع فيه على خطأ وأصلحه».

* وقد استعنت بالله أولاً ثم بهذه النسخة لما ينقص من نسخة الأصل - شستربتي - وجعلت ما اضفته بين معكوفتين [ ].

* والنسخة الأصلية للمخطوط محفوظة في مكتبة جامعة برنستون - جاريت - تحت رقم ١٨٤٨.

ثالثاً: نسخة المكتبة العامة بالرباط:

* وقد تكرم الأخ المفضال أبو عايض صلاح الشلاحي. بجلب النسخة الثالثة من المغرب عن طريق أحد معارفه جزى الله الجميع الخير.

* وقد كتبت هذه النسخة بخط نسخ جيد وواضح.

* ورغم أن النسخة نقلت عن نسخة المؤلف كما ذكر ناسخها على غلاف الكتاب «بلغ جمعيه إلاكراس واحد مقابلة على خط مؤلفه رحمه الله ونفعنا به فصح ولله الحمد» إلا أن النسخة للأسف خالية من تاريخ النسخ.

* والنسخة تقع في (٢٥٧) ورقة من القطع العادي في كل ورقة (٢١) سطراً.

* وجاء على غلاف النسخة تمليك جاء فيه:

«من مَنَّ الله تعالى على العبد الفقير محمد بن الفقير أحمد الدنوشري».

* وجاء في مقطع آخر:

«وجعل مستقرها بحارة الدناشرة - غفر له - بالجامع الأزهر المعمور بذكر الله تعالى».

* والنسخة الأصلية للمخطوط محفوظة في خزانة المكتبة العامة بالرباط - المغرب - تحت رقم (٢٢٢٠).

* وهناك عدد آخر من النسخ لهذا الكتاب المفيد منها نسختين بدار الكتب المصرية، الأولى بخط الناسخ محمد الشامي القهاوي نسخت في يوم الثلاثاء لعشر خلت من شهر شعبان سنة ١٣٠٤هـ وتقع في ١٦٩ ورقة. ورقمها (٧٧٢٩ح).

والثانية نسخت في سنة ١١٧٠هـ ورقمها ٢١٢٠ .وهناك نسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق كتبت سنة ١٢٨٧هـ ورقمها ٨٤٨٨.

خاتمة: -

ولا يسعني في نهاية هذا العمل إلا أن ادعو الله عز وجل أن يتقبل من جميع من ساهم بالمشاركة في إخراجه إلى النور إبتداءً من الحصول على نسخ المخطوط حتى الفراغ من طباعته.

وأخص بالذكر الأخوة الأفاضل بمركز المخطوطات والوثائق والتراث - الكويت - وما تفضلوا به من تصوير نسخة شستربتي للمخطوط والإعانة بالحصول على مصادر البحث العلمي ثم الأخ الفاضل أبو عايض صلاح الشلاحي الذي كان له الفضل في الحصول على النسخة المغربية والأستاذ أحمد درماز - أخصائي المخطوطات بجامعة الكويت، الذي تفضل بالإرشاد إلى مصادر نسخ المخطوط في العالم وخاصة نسخة برنستون، وأختم وبالمسك تختم القربات بما كان يتكرم به الأخ المفضال جلال الدين غازي من مراجعة للنص ومقابلة

للنسخ فشكر الله للجميع وجزاهم خير الجزاء وجعل ذلك في ميزان حسناتهم يوم القيامة، اللهم آمين.

ـوالذي أرجو من الله عز وجل أن أكون قد قدمت شيئاً إلى مكتبة التراث الإسلامي، فما كان من صواب فمن فضل الله عز وجل وكرمه وما كان من خطأ وزلل فمن نفسي والشيطان، وصلى اللهم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وكتب

أبو يحيى عبد الله الكندري

الكويت ـ الفحاحيل الزاهرة

الإثنين: ٢١/ربيع الآخر/١٤١٨هـ

الموافق: ٢٥/أغسطس/١٩٩٧م

ترجمة المصنف
ـ رحمه الله ـ

مرعيّ بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد بن أبي بكر بن يوسف الكرمي ـ نسبة لطور كرم قرية بقرب نابلس ـ ثم المقدسي، العالم العلامة الحبر الفهامة المدقق المحقق المفسر المحدث الفقيه الأصولي النحوي أحد أكابر علماء الحنابلة بمصر.

ـ ولد في طور كرم بفلسطين وانتقل إلى القدس ثم إلى القاهرة.

ـ كان إماماً محدثاً فقيهاً ذا اطلاع واسع على نقول الفقه ودقائق الحديث، ومعرفة تامة بالعلوم المتداولة وله فيها اليد الطولى، مقدم في العلوم الشرعية غير متأخر في العلوم الأدبية المرعية، فهو من الفضل في منتهاه ومن الأدب في محل سهاه، وله جودة اتقان وتمسك بالهدى وإيقان، مع زهد يحول بين القلوب ولذاتها، وتبتل لا يرغب في العبادة إلا لذاتها، نقيّ مما يصدىء مرآة نهاه، فما صبا لظبي ولا اعتلق بمهاة، يهيم في صلاح وسداد إذا هامت الشعراء في كل واد، وهو أوحد من ألف وصنف، وأعظم من قرط وشنف.

ـ وله أشعار ومنشآت جلا أفقها وجلّى طرفها وطرقها واطلع من تحت غصون الأقلام كالرياض ورقها، وقد تميز المصنف ـ رحمه الله ـ بأنه شاعر رقيق الحاشية لطيف الألفاظ ومن جميل شعره: ـ

ليت في الدهر لو حظيت بيوم فيه أخلو من الهوى والغرام
خالي القلب من تباريح وجد وصدود وحرقة وهيام
كي يراح الفؤاد من طول شوق قد سقاه الهوى بكأس الحمام

وقال أيضاً:

مذ غاب عن عيني وأعرض عامداً من كنت أهواه تغير حالي
وأتى العذول موبخاً ومعاتباً ما من يقاسى مثل من هو خالي

- ومن منشآته - فصل في مخاطبة محدّث: -

سلام يتّصل به سند المحبّة والشوق، ويتسلسل معه حديث الغرام والتوق، وقد صحّت من الضعف آثاره وحسنت من طريق المحبّة أخباره، من عنعنت بالسند العالي أحاديث كماله من غير إبهام ولا انقطاع ولا إنكار لمسانيد فضله وإفضاله.

- أخذ العلم عن الشّيخ محمّد المرداوي وعن القاضي يحيى الحجّاوي ودخل مصر وتوطّنها وأخذ بها عن الشّيخ محمّد حجازي الواعظ، والمحقق أحمد الغنيمي وكثير من المشايخ المصريين، وأجازه شيوخه وتصدر للإقراء والتّدريس بجامع الأزهر، ثم تولى المشيخة بجامع السّلطان حسن، وكان منهمكاً على العلوم انهماكاً كليّاً فقطع زمانه بالإفتاء والتدريس والتحقيق والتصنيف فسارت بتآليفه الركبان ومع كثرة أضداده وأعدائه ما أمكن أن يطعن فيها أحد ولا أن ينظر بعين الإزراء إليها.

- له مصنفات عديدة في شتّى أنواع العلوم والآداب والفنون، وقد قام الأستاذ الفاضل نجم عبد الرحمن خلف بتقصّيها فجمع منها (٧٧) مصنّفاً ذكرها في مقدّمة تحقيقه لكتاب «الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيميّة» للمصنف - رحمه الله - طبعة مؤسسة الرسالة ودار الفرقان - فأجزل الله له المثوبة وخير الجزاء.

وقد بين المصنف - رحمه الله - مذهبه بقوله: -

لئن قلّد النّاس الأئمّة إنّني　　لفي مذهب الحبر ابن حنبل راغب
أقلّد فتواه وأعشق قوله　　وللنّاس فيما يعشقون مذاهب

ـ توفي بالقاهرة في شهر ربيع الأول سنة ثلاثة وثلاثين وألف ـ رحمه الله ـ تعالى.

مصادر ترجمته: ـ

١ ـ خلاصة الأثر للمحبّى: ٤/٣٥٨.

٢ ـ نفحة الريحانة للمحبّى: ٢/ ٢٤٤ (٨٦).

٣ ـ السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة للنّجدي الحنبلي: / ٤٦٣.

٤ ـ هدية العارفين: ٢/ ٤٢٦.

٥ ـ معجم المؤلفين ـ كحّالة: ١٣/ ٢١٨.

٦ ـ الأعلام ـ الزركلي: ٧/ ٢٠٣.

[redacted]

كتاب

تنوير بصائر المقلدين في مناقب الأئمة المجتهدين

رضوان الله عليهم أجمعين

تصنيف أحقر الورى وأذل الفقراء مرعي بن يوسف

الحنبلي المقدسي الكرمي وفقه الله تعالى لطاعته وسقاه

شراب محبته وجعله من الصالحين وحزبه المفلحين

وأنصاره الصابرين وكفاه شر الأعداء والحاسدين

وبشر خلقه أجمعين محمد وآله

وصحبه أجمعين

والحمد لله رب العالمين

وفيه أيضا كتاب الاستبصار في أنساب الأنصار للشيخ العلامة موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الحنبلي رحمه الله تعالى

لما احترقت المقصورة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام قال بعضهم:

تالله ما احترق الحجر الشريف لعلة
يخشى عليه ولا دهاه العار
لكنما أيدي الروافض لامست
ذاك المقام فطهرته النار

لا تركنن إلى النساء ولا تثق بعهودهن
يرضونك ودًا ظاهرًا والمكر في طيهن
لا لعنت المهيمن على النساء جميعهن
الكاذبات الفاجرات الخائنات بعلوهن

ورقة الغلاف من نسخة شستربتي.

الورقة الأولى من نسخة شستربتي.

الورقة الأخيرة من نسخة شستربتي.

ورقة الغلاف من نسخة برنستون.

الورقة الأولى من نسخة برنستون.

الورقة الأخيرة من نسخة برنستون.

ورقة الغلاف من نسخة ـ الرباط.

بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا انت لا معونة الا بك

الحمد لمن بعث النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق الواضح
المبين وخص منهم اولي الشرائع بتبيين احكام شرائع المكلفين وجعل
الايمة العلما الهم وارثين ولاثارهم في بيان الاحكام متبعين ومقتفين
فهم ايمة الهدى ونجوم الاقتدا للمقتدين خصوصا المجتهدين منهم
والراسخين فمنهم ابو حنيفة النعمان اعظم المجتهدين ومالك بن انس
نجم سنن المهتدين ومحمد بن ادريس رئيس الفقها والاصوليين واحمد
بن حنبل راس الزاهدين وقامع المبتدعين وحجة الحق على الخلق اجمعين
احمده سبحانه اذ انقذنا من غياوة الجهالة وفترة الضلالة ببعث سيد المرسلين
واستغفره استغفار عبد خايف وجل لكونه من المقصرين واشكره شكر معترف
من فيض ربه وبه مستيقن واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له
شهادة عبد مخلص ذليل مسكين واشهد ان محمدا عبده ورسوله النبي الامي
الرسول الامين صلى الله عليه وعلى ساير اخوانه من النبيين والمرسلين وعلى
اله وصحبه اجمعين وبعد فيقول احقر الورى واذل الفقرا
مرعي بن يوسف المقدسي الحنبلي ان الله سبحانه وتعالى لما اوجد هذا
العالم ايجادا اجمالا وفضل بني ادم على كثير ممن خلق تفضيلا وخص الانبيا
بمزيد الفضل والكرامات حتى غدوا بذلك انوار الكاينات واسرار الموجودات
وجعل العلما لهم وارثين ولاثارهم مقتفين في بيان شرايع المكلفين
لا سيما ايمة المجتهدين رضوان الله عليهم اجمعين فهم في الفروع مختلفون
وفي الاصول متفقون اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون فاختلاف
اولئك الايمة رحمة لهذه الامة والجميع على هدى والاختلاف رحمة فمن

الشريعة

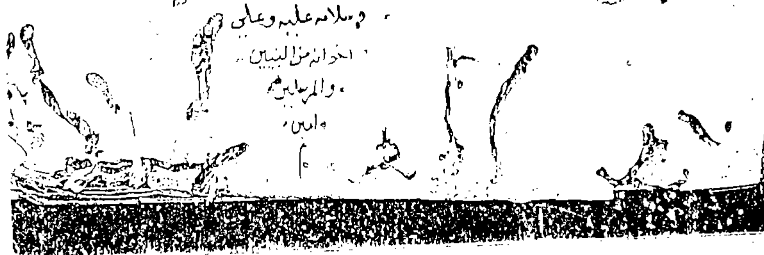
الورقة الأولى من النسخة المغربية ـ الرباط ـ.

يروى عن الائمة الاربعة وابن حاجب [illegible] الاختلاف فيها [illegible]

القاضي عياض القول بتصويب المجتهدين هو الحق والصواب عندنا والله سبحانه وتعالى اعلم وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى سائر اخوانه من النبيين والمرسلين وعلى آل كل وصحبه اجمعين والحمد لله رب العالمين [illegible] مؤلفه العبد الفقير الى الله تعالى مرعي بن يوسف المقدسي الحنبلي فرغت من جمع هذه الفوائد التي ليست بكتب لو وضعها لولا مساعدة التوفيق وهداية الله التي لا تقوم طريق وذلك في نهار السبت بعد العصر في شهر جمادى الاخرة بالجامع الازهر سنة ثلاث وعشرين بعد الالف

[illegible]

اكرني وقصدك ولو لا طمع واضعه في الثواب ما كشف فضايحه ولا عرض نفسه لتكليم الالسنة الجارحة فرحم الله امرا نظر بعين الانصاف اليه ووقف على خطأ فاطلعني عليه هذا ولم يكن في ظني ان اتعرض لذلك لعلمي بالعجز عن الخوض في تلك المسائل فعسى الله تعالى ان ينفع به نفعا جما وان يفتح به اعينا عميا وقلوبا غلفا واذانا صما وان يجازيني بصنيعي الجميل الوفاة على الاسلام وان يدخلني ووالدي واخواني دار السلام بسلام بمحمد عليه الصلاة والسلام وان يشفعني [illegible] الائمة المجتهدين وان يدخلني بمدد علمهم بجاه سيد المرسلين صلوات الله


وسلامه عليه وعلى

اخوانه من النبيين

والمرسلين

وامين

الورقة الأخيرة من نسخة الرباط.



الحمد لمن بعث النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق الواضح المبين، وخص منهم أولي الشرائع بتبيين أحكام شرائع المكلّفين، وجعل الأئمّة الفقهاء لهم وارثين، ولآثارهم في بيان الأحكام متبعين ومقتفين، فهم أئمّة الهدى للمهتدين، ونجوم الاقتداء للمقتدين، خصوصاً المجتهدين منهم والراسخين.

فمنهم أبو حنيفة النُّعمان عظيم المجتهدين، ومالك بن أنس نجم سنن المحدّثين، ومحمّد بن إدريس رئيس الفقهاء والأصوليّين، وأحمد بن حنبل رأس الزاهدين وقامع المبتدعين، وحجة الحق على الخلق أجمعين.

أحمد الله سبحانه إذ أنقذنا من غباوة الجهالة وفترة الضلالة بمبعث سيد المرسلين، وأستغفره استغفار عبد خائف وَجِلٍ لكونه من المقصرين، وأشكره شكر مغترف من فيض ربه وبه مستعين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة عبد مخلص ذليل مسكين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله النّبيّ الأمّيّ الرّسول الأمين صلى الله وَسَلَّمَ عليه، وعلى سائر إخوانه من النبيين والمرسلين، وعلى آل كلٍّ وصحبه أجمعين.

أما بعد،،،

فيقول أحقر الورى وأذل الفقرا، مرعيّ بن يوسف المقدسي الحنبلي: -

إن الله سبحانه وتعالى قد أوجد هذا العالم إيجاداً جميلاً، وفضل بني آدم على كثير ممن خلق تفضيلاً، وخص الأنبياء بمزيد الفضل والكرامات، حتى غدوا بذلك أنوار الكائنات وأسرار الموجودات، وجعل العلماء لهم وارثين ولآثارهم مقتفين، في بيان أحكام شرائع المكلّفين لا سيّما الأئمّة المجتهدين، رضوان الله عليهم أجمعين.

فمنهم في الفروع مختلفون وفي الأصول متّفقون، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون، فاختلاف أولئك الأئمّة رحمة لهذه الأمّة، والجميع على هدى والاختلاف رحمة، فهم من الشّريعة الغرّاء يستمدّون، وللملة الزهراء يعتمدون، وهم من أفضل أتباع المرسلين وخير من آمن وصدق النبيين، لا سيما أئمة المذاهب الأربعة المجتهدين، ففضلهم مشهور قديماً وحديثاً، وعلمهم منشور تفسيراً وحديثاً.

وقد صنفت الأئمة في فضائلهم كتباً جمة، فممّن جمع فيهم الإمام داود إمام أهل الظاهر ثم أبو عبد الله[(١)] محمد بن إبراهيم البوسنجي ذو المفاخر والمظاهر، ثم تلاهما الإمام ابن أبي حاتم والإمام الحافظ الحاكم، ثم الحافظ البيهقي والحافظ البغدادي الخطيب ثم الغزالي وابن الجوزي وغيرهم من أولي النهى والتقريب، وبينوا مناقبهم ترغيباً للمقلدين وتحبيباً للمقتدين، ليكونوا في الاقتداء بهم على بصيرة ويقين.

---

(١) قال الذهبي: الإمام العلامة الحافظ ذو الفنون شيخ الإسلام أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعيد بن عبد الرحمن بن موسى العبدي الفقيه المالكي البوشنجي شيخ أهل الحديث في عصره بنيسابور مولده في سنة أربع ومئتين وارتحل شرقاً وغرباً ولقي الكبار وجمع وصنف وسار ذكره وبعد صيته ت ٢٩١هـ.
سير أعلام النبلاء ١٣/ ٥٨١ (٣٠٣) تهذيب الكمال ٢٤/٣٠٨ (٥٠٢٥).

إلا أنّ منهم ما هو الموجز المخلّ والمطنب المملّ، لم يف بالمقصود ولم يستوعب المطلوب المحمود، ومنهم من يقتصر على مناقب إمام واحد مع ما يأتي به من التطويل الزائد.

فلما رأيت ذلك ووقفت على ما هنالك، دعاني داعي المشيئة والإلهام إلى جمع مؤلف فريد في هذا المقام، ليزداد الواقف عليه فيهم حباً واعتقاداً، ويتجنب المخالف إذا تأمل فيه عجباً وانتقاداً، ويستنير له بذلك فيهم مناهج سبله، فيصبح تالياً «لا نفرق بين أحد من رسله».

فهاك كتاباً لم يسمع الزمان في مناقبهم بمثله، ولم ينسج ناسج على منواله وشكله، لتسهيل عباراته وتبيين إشاراته وتقليل كلامه وتحسين نظامه، معتمداً فيه ما اعتمده الأئمة الحفاظ فأصبح بذلك في غاية التحرير والحفاظ، فاشدد بها يديك وتلق بالقبول ما يعرض عليك، فإنه جدير بأن يتلقى بالقبول وأن يتضوع بعرف نسيمه الصبا والقبول، لما فيه من تحرير النقول وترك التعصب والفضول.

[وسميته: «تنوير بصائر المقلدين في مناقب الأئمة المجتهدين»]

هذا والفقير معترف بقصر الباع، مغترف من بحر غيره للانتفاع، مقر بقصور عبارته وحجاه «وسماعك بالمعيدي خير من أن تراه» لما هو فيه من ضيق الحال وتشتيت البال، وفي الإشارة ما يغني عن المقال، ولست بأهل لما هنالك لكن الله سبحانه هو ولي ذلك، فمن فضله أستمد وعلى نيله اعتمد، فهو حسبي ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير.

مقدمة

إعلم وفقك الله تعالى أن المجتهدين جمع كثير وجم غفير، لا يمكن حصرهم، وما أحد وقف عليه ولا يعلم عدّتهم إلا الله.

أما الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فكلهم مجتهدون علماء ربّانيون، وقد توفي - ﷺ - عن نحو مائة ألف وأربعين ألف من الصحابة، ويكفي في الاقتداء بهم قوله - ﷺ - في حقهم: «أصحابي كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم».

وأما التابعون فمن بعدهم إلى عصر الثلاثمائة فغالب الفقهاء منهم مجتهدون.

ولنذكر بعضاً منهم من أهل المذاهب.

فمنهم: ابن الزبير عروة[1]

روى عن أبيه وأمه أسماء وخالته عائشة وعلي بن أبي طالب وزيد بن ثابت وخلائق، وروى عنه أولاده عثمان وعبد الله وهشام ويحيى ومحمد وحفيده عمر بن عبد الله والزّهري وأبو الزناد وخلائق.

---

(١) قال الذهبي: الإمام عالم المدينة عروة بن الزبير بن العوام أبو عبد الله القرشي الأسدي المدني الفقيه أحد الفقهاء السبعة روى له الجماعة ت ٩٣هـ.
سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٢١ (١٦٨) تهذيب الكمال ٢٠/ ١١ (٣٩٠٥).

قال الزّهري: وجدته بحراً لا ينزف، وقال عمر بن عبد العزيز: ما أحد أعلم منه، وقال أبو الزناد: فقهاء المدينة أربعة فذكر منهم عروة، وقال العجلي: كان ثقة رجلاً صالحاً لم يدخل في شيء من الفتن، وقال ابن سعد: كان ثقة كثير الحديث فقيهاً عالماً ثبتاً مأموناً، توفي سنة اثنتين أو ثلاث أو أربع أو خمس وتسعين، وولد سنة ثلاث وعشرين.

[ومنهم: ابن المنذر محمد بن إبراهيم بن الحارث المدني أبو عبد الله(1)]

روى عن جابر وأبي سعيد وأنس وعلقمة بن وقاص وأبي سلمة في آخرين، روى عنه ابنه موسى ويحيى بن سعيد الأنصاري والأوزاعي وآخرون.

قال ابن سعد: كان فقيهاً محدثاً، ووثقه ابن معين وجماعة، وقال أحمد: في حديثه شيء، توفي سنة تسع عشرة أو عشرين أو إحدى وعشرين ومائة.

[ومنهم: علقمة بن قيس بن عبد الله بن مالك أبو شبل النخعي الكوفي(2)]

أحد الأعلام، ولد في حياة النبي ﷺ، وروى عن الخلفاء الأربعة وغيرهم، وروى عنه ابن أخيه عبد الرحمن بن يزيد وابن أخيه

---

(1) قال الذهبي: أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن الحارث بن خالد التيمي المدني الحافظ من علماء المدينة روى له الجماعة ت ١٢٠هـ.
سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٩٤ (١٤٠) تهذيب الكمال ٢٤/ ٣٠١ (٥٠٢٣) قلت: ولم أعثر على لفظ ابن المنذر في المصادر التي رجعت إليها رغم كثرتها.

(2) قال الذهبي: فقيه الكوفة وعالمها ومقرؤها الإمام الحافظ المجود المجتهد الكبير أبو شبل علقمة بن قيس بن عبد الله بن مالك النخعي الكوفي، قال عنه أحمد بن حنبل: علقمة ثقة من أهل الخير وكذا وثّقه ابن معين روى له الجماعة ت ٦١هـ.
سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٣ (١٤) تهذيب الكمال ٢٠/ ٣٠٠ (٤٠١٧).

إبراهيم، وإبراهيم بن سويد النخعيون وأبو وائل وخلق.

قال مُرّة الهمداني: كان من الربانيين، وقال إبراهيم النخعي: كان يقرأ القرآن في خمس، وقال أبو ظبيان: أدركت ناساً من الصحابة يسألون علقمة ويستفتونه، توفي سنة إحدى أو اثنتين وستين، وعاش تسعين سنة.

[ومنهم: النخعي إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود ابن عمرو بن ربيعة الكوفي، يكنى أبا عمران[(1)]]

كان أحد الفقهاء الأعلام، دخل على عائشة وهو صغير وروى عنها، وقيل إنه لم يسمع منها وروى عن خاله الأسود بن يزيد وعلقمة بن قيس ومسروق وغيرهم، روى عنه حماد بن أبي سليمان والأعمش ومنصور وخلائق.

قال الأعمش: كان إبراهيم صيرفي الحديث، وقال العجلي: كان مفتي الكوفة هو والشعبي، وتوفي سنة ست وتسعين قاله أبو نعيم، وعاش تسعاً وأربعين سنة وقيل أكثر.

[ومنهم: سعيد بن المسيّب القرشي المدني[(2)]]

سيد فقهاء التابعين، روى عن أبيه وعن عمر واختلف في سماعه

---

(١) قال الذهبي: الإمام الحافظ فقيه العراق أبو عمران إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود النخعي اليماني ثم الكوفي أحد الأعلام، كان بصيراً بعلم ابن مسعود واسع الرواية فقيه النفس كبير الشأن كثير المحاسن رحمه الله. روى له الجماعة ت ٩٦هـ.
سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٢٠ (٢١٣)، تهذيب الكمال ٢/ ٢٣٣ (٢٦٥).

(٢) قال الذهبي: سعيد بن المسيب بن حزن أبو محمد القرشي المخزومي الإمام العلم، عالم أهل المدينة وسيد التابعين في زمانه وكان ممن برز في العلم والعمل روى له الجماعة ت ٩٤هـ.
سير أعلام النبلاء ٤/ ٢١٧ (٨٨)، تهذيب الكمال ١١/ ٦٦ (٢٣٥٨).

منه، وعن عثمان وعلي وسعد بن أبي وقاص وأبي موسى في آخرين، روى عنه الزهري وعمرو بن دينار ويحيى بن سعيد الأنصاري وآخرون كثيرون.

قال قتادة: ما رأيت أحداً قط أعلم بالحلال والحرام منه، وقال مكحول: ما لقيت أعلم منه، وقال سليمان بن موسى: إنه أفقه التّابعين، وقال أحمد: إنه أفضل التابعين، وقال ابن المديني: لا أعلم أحداً في التابعين أوسع علماً منه وهو عندي أجلّ التابعين، وقال أبو حاتم: ليس في التابعين أنبل منه، وقال ابن حبان: هو سيد التابعين، ومرادهم بذلك في العلم وإلا ففي صحيح مسلم «خير التابعين رجل يقال له أويس» الحديث، وقال الشافعي وأحمد بن حنبل وغير واحد: مراسيل ابن المسيب صحاح، توفي سنة ثلاث أو أربع وتسعين، وولد سنة خمس عشرة أو سبع عشرة أو إحدى وعشرين.

[ومنهم: قتادة السدوسي البصري(١)]

يكنى أبا الخطاب أحد الأئمة الأعلام، وكان أكمه، روى عن أنس وعبد الله بن سرجس وأبي الطفيل وسعيد بن المسيب وابن سيرين في آخرين، روى عنه أيوب وحميد وشعبة والأوزاعي ومعهم خلائق.

قال ابن المسيب: ما أتاني عراقي أفضل منه، وقال ابن سيرين: قتادة أحفظ الناس، وقال بكر المزني: ما رأيت أحفظ منه، وقال أبو حاتم: سمعت أحمد بن حنبل وذكر قتادة فأطنب في ذكره وجعل يقول: عالم بتفسير القرآن وباختلاف العلماء ووصفه بالحفظ والفقه، وقال: قل ما نجد من تقدمه أما المثل فلعل، وقال الأثرم: كان أحفظ

(١) قال الذهبي: قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز أبو الخطاب السدوسي البصري، حافظ العصر قدوة المفسرين والمحدثين، كان رأساً في العربية والغريب وأيام العرب وأنسابها روى له الجماعة ت ١١٨هـ.
سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٦٩ (١٣٢) تهذيب الكمال ٢٣/ ٤٩٨ (٤٨٤٨).

أهل البصرة، ولد سنة ستين وتوفي سنة سبع عشرة أو ثماني عشرة ومائة.

[ومنهم: ابن سيرين محمد البصري[1]]

مولى أنس بن مالك، روى عن زيد بن ثابت وأبي هريرة وعمران بن حصين ومولاه أنس بن مالك في آخرين من الصحابة والتابعين.

قال هشام بن حسان: أدرك ابن سيرين ثلاثين صحابياً، روى عنه ثابت وقتادة وعبد الله بن عون وجرير بن حازم والأوزاعي وخلائق.

قال هشام: هو أصدق من رأيت من البشر، وقال ابن سعد: كات ثقة مأموناً عالياً رفيعاً فقيهاً إماماً كثير العلم ورعاً، وقال العجلي: ما رأيت رجلاً أفقه في ورعه ولا أورع في فقهه منه، وقال ابن عون: لم أر في الدنيا مثله، وقال بكر المزني: ما رأينا من هو أورع منه، ووثقه ابن معين وغيره، وكان ابن سيرين آية في التعبير، رأى كأن الجوزاء تقدمت الثريا فأخذ في وصيته وقال: يموت الحسن وأموت بعده هو أشرف مني، فكان كذلك، ماتا في سنة عشر ومائة، مات الحسن أول رجب وابن سيرين تاسع شوال.

[ومنهم: أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف الزهري المدني[2]]

أحد الأعلام، اسمه عبد الله وقيل إسماعيل وقيل مالك، روى

---

(١) قال الذهبي: الإمام شيخ الإسلام محمد بن سيرين أبو بكر الأنصاري مولى أنس بن مالك رضي الله عنه روى له الجماعة ت ١١٦هـ.
سير أعلام النبلاء ٤/٦٠٦ (٢٤٦) تهذيب الكمال ٢٥/٣٤٤ (٥٢٨٠).

(٢) قال الذهبي: أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف القرشي الزهري الحافظ أحد الأعلام بالمدينة كان طَلّابة للعلم فقيهاً مجتهداً كبير القدر حجة، روى له الجماعة ت ٩٤هـ.
سير أعلام النبلاء ٤/٢٨٧ (١٠٨) تهذيب الكمال ٣٣/ ٣٧٠ (٧٤٠٩).

عن أبيه وأسامة بن زيد وأبي أيوب وأبي أسيد الساعدي وأبي قتادة وأبي هريرة في خلق كثير من الصحابة والتابعين، روى عنه ابنه عمر وابن أخته سعد والأعرج والشعبي والزهري ويحيى بن أبي كثير ويحيى بن سعيد الأنصاري وخلائق.

قال الزهري: أربعة من قريش وجدتهم بحوراً، فذكر منهم أبا سلمة، وقال يحيى القطان: فقهاء أهل المدينة عشرة فذكر منهم أبا سلمة، وقال ابن سعد: كان ثقة كثير الحديث، وقال أبو زرعة: إمام، توفّي سنة أربع ومائة وقيل دون ذلك.

[ومنهم: الزُّهري محمد بن مسلم القرشي المدني[1]]

أحد الأئمة الأعلام، روى عن ابن عمر وسهل بن سعد وربيعة والسائب بن يزيد في آخرين من الصحابة والتابعين، روى عنه من الأئمة المجتهدين مالك والليث والأوزاعي وابن جريج وابن إسحاق وابن عيينة وخلائق.

قال عمرو بن دينار: ما رأيت أحداً أنصّ للحديث منه وما رأيت أحداً الدينار والدرهم أهون عليه منه كأنها عنده بمنزلة البعر، وقال عمر بن عبد العزيز ومكحول: لم يبق أحد أعلم بسُنّة ماضية منه، وقال أبو أيوب: ما رأيت أعلم منه، وقال الليث: ما رأيت عالماً قط أجمع ولا أكثر علماً منه وما رأيت أكرم منه، وقال مالك: بقي وماله في الناس نظير، توفي سنة ثلاث أو أربع أو خمس وعشرين ومائة وولد سنة خمسين وقيل أكثر.

---

(١) قال الذهبي: محمد بن مسلم بن عبيد الله أبو بكر القرشي الزهري المدني نزيل الشام الإمام العلم حافظ زمانه روى له الجماعة ت ١٢٤هـ.
سير أعلام النبلاء ٥/٣٢٦ (١٦٠)، تهذيب الكمال ٢٦/٤١٩ (٥٦٠٦).

[ومنهم: ابن المنكدر محمد القرشي المدني[1]]

أحد الأعلام، روى عن جابر وعائشة وأنس في آخرين من الصحابة والتابعين، روى عنه الأئمة شعبة ومالك وابن جريج والأوزاعي والسفيانان وخلق.

قال ابن عيينة: كان من معادن الصدق ويجتمع إليه الصالحون، وقال ابن معين وأبو حاتم: ثقة، وقال الحميدي: ابن المنكدر حافظ، توفي سنة ثلاثين ومائة.

[ومنهم: زيد بن أسلم المدني[2]]

الفقيه أحد الأعلام مولى عمر بن الخطاب، يكنى أبا أسامة، روى عن أبيه وابن عمر وجابر وأبي هريرة وخلق، روى عنه بنوه أسامة وعبد الرحمن وعبد الله ومالك بن أنس والسفيانان وخلائق ووثقه أحمد وجماعة.

قال يعقوب بن شيبة: ثقة من أهل الفقه والعلم وكان عالماً بالتفسير، توفي سنة ست وثلاثين ومائة.

[ومنهم: الأعرج عبد الرحمن بن هرمز المدني[3]]

روى عن أبي هريرة وأبي سعيد ومعاوية في آخرين من الصحابة

---

(١) قال الذهبي: محمد بن المنكدر بن عبد الله أبو عبد الله القرشي التيمي المدني الإمام الحافظ القدوة شيخ الإسلام روى له الجماعة ت ١٣٠ هـ.
سير أعلام النبلاء ٥/٣٥٣ (١٦٣)، تهذيب الكمال ٢٦/٥٠٣ (٥٦٣٢).

(٢) قال الذهبي: زيد بن أسلم أبو عبد الله العدوي العمري المدني الفقيه وكان له حلقة للعلم في مسجد رسول الله ﷺ روى له الجماعة ت ١٣٦هـ.
سير أعلام النبلاء ٥/٣١٦ (١٥٣) تهذيب الكمال ١٠/١٢ (٢٠٨٨).

(٣) قال الذهبي: الإمام الحافظ الحجة المقرىء أبو داود عبد الرحمن بن هرمز المدني الأعرج، جود القرآن واقرأه وكان يكتب المصاحف روى له الجماعة ت ١١٧هـ
سير أعلام النبلاء ٥/٦٩ (٢٥) تهذيب الكمال ١٧/٤٦٧ (٣٩٨٣).

والتابعين، روى عنه الزهري وربيعة وأبو الزناد وابن إسحاق وخلق، وكان أحد الثقات من أصحاب أبي هريرة، توفي بالإسكندرية سنة سبع عشرة ومائة.

[ومنهم: نافع مولى ابن عمر(١)]

من المغرب وقيل من نيسابور وقيل من سبي كابل، روى عن ابن عمر وأبي لبابة وأبي هريرة وعائشة في آخرين من الصحابة والتابعين، روى عنه الأئمة مالك والليث والأوزاعي وابن جريج وخلائق.

قال مالك: كنت إذا سمعت منه لا أبالي أن لا أسمعه من غيره، وقال عبيد الله بن عمر: لقد من الله علينا بنافع، وبعثه عمر بن عبد العزيز إلى مصر يعلمهم السنن، وأعطى فيه عبد الله بن جعفر لعبد الله بن عمر اثني عشر ألفاً فأبى وأعتقه، توفي سنة سبع عشرة أو تسع عشرة أو عشرين ومائة.

[ومنهم: عطاء بن أبي رباح(٢)]

أحد الأئمة الأعلام، كان يُعلِّم الأكابر العلم، وأتاه سليمان بن عبد الملك فجلس بين يديه فعلمه مناسك الحج، ثم التفت سليمان إلى أولاده فقال: تعلموا العلم وانظرُوا إلى ذلي بين يدي هذا العبد الأسود حتى يعلمني أمر ديني.

---

(١) قال الذهبي: نافع الإمام المفتي الثبت عالم المدينة أبو عبد الله القرشي ثم العدوي العمري مولى ابن عمر وراويته روى له الجماعة ت ١٢٠هـ.
سير أعلام النبلاء ٥/٩٥ (٣٤) تهذيب الكمال ٢٩/٢٩٨ (٦٣٧٣).

(٢) قال الذهبي: عطاء بن أبي رباح الإمام شيخ الإسلام مفتي الحرم أبو محمد القرشي مولاهم المكي، كان من أوعية العلم وكان ثقة فقيهاً عالماً كثير الحديث روى له الجماعة ت ١١٤هـ.
سير أعلام النبلاء ٥/٨٨ (٢٩) تهذيب الكمال ٢٠/٦٩ (٣٩٣٣).

قال الإمام أحمد: خزائن العلم لا يقسمها الله تعالى إلا لمن أحب، ولو كان يخص بالعلم أحداً لكان أهل النسب أولى، فكان عطاء عبداً حبشياً وكان يزيد بن أبي حبيب نوبياً وكان الحسن البصري مولى وكان ابن سيرين مولى للأنصار. انتهى.

ومن الموالى أيضاً على ما قاله الزهري، مكحول وطاووس والنخعي وميمون بن مهران والضحاك بن مزاحم.

حج عطاء سبعين حجة وعاش مائة سنة وتوفي بمكة سنة خمس عشرة ومائة.

[منهم: الأعمش سليمان بن مهران الكوفي[1]]

أحد الأعلام، رأى أنساً وروى عن عبد الله بن أبي أوفى وأبي وائل وإبراهيم النخعي وخلق، روى عنه شعبة وسفيان ووكيع وأبو معاوية الضرير وأبو نعيم وخلائق.

قال ابن عيينة: سبق الأعمش أصحابه بأربع: كان أقرأهم للقرآن، وأحفظهم للحديث، وأعلمهم بالفرائض وذكر خصلة أخرى، وقال عيسى بن يونس: لم نر نحن ولا القرن الذين كانوا قبلنا مثل الأعمش، وقال وكيع: أقام قريباً من سبعين سنة لم تفته التكبيرة الأولى، وقال يحيى القطان: كان من النساك وكان علامة الإسلام، وقال أبو بكر بن عياش: كنا نسميه سيد المحدثين، وقال العجلي: كان ثقة ثبتاً محدث أهل الكوفة.

مات سنة ثماني وأربعين ومائة وهو ابن ثمان وثمانين سنة.

---

(١) قال الذهبي: الأعمش سليمان بن مهران الإمام شيخ الإسلام شيخ المقرئين والمحدثين أبو محمد الأسدي الكاهلي مولاهم الكوفي الحافظ روى له الجماعة ت ١٤٧هـ
سير أعلام النبلاء ٦/٢٢٦ (١١٠) تهذيب الكمال ١٢/٧٦ (٢٥٧٠).

[ومنهم: معمر بن راشد الأزدي[1]]

سكن اليمن، أحد الأئمة الأعلام، روى عن همام بن منبه وعمرو بن دينار ومحمد بن المنكدر والزهري وطبقتهم، روى عنه الأئمة شعبة وابن المبارك وابن علية والسفيانان وعبد الرزاق وخلق.

قال أحمد: لا يضم أحد إلى معمر إلا وجدته يتقدمه، وكان من أطلب أهل زمانه للعلم، وقال ابن جريج: لم يبق أحد من أهل زمانه أعلم منه، وقال أبو حاتم: صالح الحديث، وقال النسائي: ثقة مأمون، مات سنة ثلاث وخمسين ومائة.

[ومنهم: ابن أبي ذئب محمد بن عبد الرحمن القرشي العامري المدني[2]]

يكنّى أبا الحارث أحد الأئمة الأعلام، روى عن خاله الحارث القرشي ونافع وعكرمة وابن المبارك في آخرين كثيرين، روى عنه الثوري ومعمر وابن المبارك والقعنبي وعلي بن الجعد وخلق.

قال أحمد: كان شبه سعيد بن المسيب، قيل له: خلف مثله ببلاده؟ قال: لا، ولا بغيرها، كان ثقة صدوقاً أفضل من مالك إلا أن مالكاً أشد تنقية للرجال منه، وسئل أيضاً: من أعلم مالك أو ابن أبي ذئب؟ فقال: ابن أبي ذئب أكبر من مالك وأصلح وأورع وأقوم بالحق من مالك عند السلاطين، وقد دخل على أبي جعفر وقال له: الظلم

---

(١) قال الذهبي: معمر بن راشد الإمام الحافظ شيخ الإسلام أبو عروة بن أبي عمرو الأزدي مولاهم البصري نزيل اليمن وكان من أوعية العلم مع الصدق والتحرى والورع والجلالة وحسن التصنيف روى له الجماعة ت ١٥٤هـ.
سير أعلام النبلاء ٧/٥ (١) تهذيب الكمال ٢٨/٣٠٣ (٦١٠٤).

(٢) قال الذهبي: محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة بن الحارث بن أبي ذئب واسم أبي ذئب هشام بن شعبة الإمام شيخ الإسلام أبو الحارث القرشي العامري المدني الفقيه وكان من أوعية العلم ثقة فاضلاً قوالاً بالحق مهيباً روى له الجماعة ت ١٥٨هـ.
سير أعلام النبلاء ٧/١٣٩ (٥٠)، تهذيب الكمال ٢٥/٥٩٨ (٥٣٩٤).

فاش ببابك، وقال يحيى بن معين وأحمد بن صالح: شيوخ ابن أبي ذئب كلهم ثقات، وقال النسائي وغيره: ثقة.

ولما حج أبو جعفر دعا ابن أبي ذئب بدار الندوة فقال له: ما تقول في؟ مرتين أو ثلاثاً، فقال: ورب هذه الثنية إنك لجائر.

ولما حج المهدي ودخل المسجد فقام له الناس إلا ابن أبي ذئب فقال له المسيب بن زهير: قم هذا أمير المؤمنين، فقال ابن أبي ذئب: إنما يقوم الناس لرب العالمين، فقال المهدي: دعه فلقد قامت كل شعرة في رأسي.

وكان مولده سنة ثمانين وتوفي سنة ثمان وخمسين أو تسع وخمسين ومائة.

[ومنهم: سفيان بن عيينة بن أبي عمران المكي[1]]

مولى محمد بن مزاحم، أحد أئمة الإسلام، حفظ القرآن وهو ابن أربع سنين وكتب الحديث وهو ابن سبع سنين، روى عن عمرو بن دينار والزهري وعبد الله بن دينار وابن المنكدر في خلائق من التابعين فمن بعدهم، روى عنه الشافعي وأحمد ويحيى بن معين وعلي بن المديني والحميدي وأمم سواهم.

قال الشافعي: مالك وابن عيينة القرينان لولاهما لذهب علم الحجاز، وقال أيضاً: ما رأيت من فيه من آلة العلم ما في سفيان، وقال ابن المديني: ما رأيت في أصحاب الزهري أتقن منه، وقال ابن وهب: ما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله منه.

---

(١) قال الذهبي: سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الإمام الكبير حافظ العصر شيخ الإسلام أبو محمد الهلالي الكوفي ثم المكي انتهى إليه علو الإسناد ورحل إليه من البلاد والحق الأحفاد بالأجداد روى له الجماعة ت ١٩٨هـ.

سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٥٤ (١٢٠) تهذيب الكمال ١١/ ١٧٧ (٢٤١٣).

مات سنة ثماني وتسعين ومائة بمكة.

[ومنهم: الليث بن سعد بن عبد الرحمن المصري(1)]

عالم أهل مصر، يكنى أبا الحارث، روى عن نافع وعطاء بن أبي رباح وخلائق، روى عنه ابنه شعيب وابن المبارك وابن وهب والقعنبي وقتيبة وأمم لا يحصون، ولد بقلقشندة من قرى مصر.

قال أحمد: ثقة ثبت أصح الناس حديثاً عن المقبري، ما في المصريين أثبت منه، وقال يحيى بن بكير: ما رأيت أكمل منه، كان فقيهاً عربي اللسان، يحسن القرآن والنحو ويحفظ الشعر والحديث، حسن المذاكرة، لم أر مثله، وقال أيضاً: هو أفقه من مالك لكن الحظوة لمالك، وقال ابن وهب: لولا مالك والليث لهلكت، وقال ابنه شعيب: حججت مع أبي فقدم المدينة فبعث إليه مالك بطبق رطب فجعل على الطبق ألف دينار ورده إليه، وكان أبي يستغل في السنة ما بين عشرين ألف دينار إلى خمسة وعشرين ألفاً تأتي عليه السنة وعليه دين، وقال محمد بن رمح: كان دخله ثمانين ألف دينار ما وجبت عليه زكاة حتى قيل إنه أنشد عند موته: -

بذرت المال في أرض العطايا ... فأصبحت المكارم من حصادي
وما وجبت علي زكاة مال ... وهل تجب الزكاة على الجواد

وسأله أبو جعفر أن يلي له مصر فلم يرض.

ولد سنة أربع وتسعين وتوفي سنة خمس وسبعين ومائة.

---

(1) قال الذهبي: الليث بن سعد بن عبد الرحمن الإمام الحافظ شيخ الإسلام وعالم الديار المصرية أبو الحارث الفهمي مولاهم وكان الليث رحمه الله فقيه مصر ومحدثها ومحتشمها ورئيسها ومن يفتخر بوجوده الأقليم روى له الجماعة ت ١٧٥هـ.

سير أعلام النبلاء ٨/١٣٦ (١٢) تهذيب الكمال ٢٤/ ٢٥٥ (٥٠١٦).

[ومنهم: يحيى القطان البصري[1]]

أحد الحفاظ الأعلام، روى عن هشام بن عروة ويحيى بن سعيد الأنصاري وخلائق، روى عنه ابنه محمد والأئمة شعبة والسفيانان وابن مهدي وأحمد وإسحاق وابن المديني وابن معين وخلائق.

قال أحمد: ما رأت عيناي مثله في كل أحواله، هو أثبت من وكيع وعبد الرحمن ويزيد بن هارون، وقال: ما كان أضبطه وأشد تفقده، وقال: ما رأيت أحداً أقل خطأ منه، وقال ابن المديني: ما رأيت أحداً أعلم بالرجال منه ولم أر أحداً أثبت منه، وقال ابن مهدي: لا ترى بعينيك مثله أبداً، وقال إسحاق بن إبراهيم: كنت أراه يصلي العصر ثم يستند إلى أصل منارة المسجد فيقف بين يديه أحمد وابن المديني وابن معين وغيرهم يسألونه عن الحديث وهم قيام على أرجلهم إلى قرب المغرب، لا يقول لواحد منهم إجلس ولا يجلسون هيبة له وإعظاماً، وقال ابن معين: أقام عشرين سنة يختم القرآن في كل ليلة، وقال العجلي: كان لا يحدث إلا عن ثقة، وقال بندار: يحيى إمام أهل زمانه اختلفت إليه عشرين سنة فما أظن أنه عصى الله قط، وقال النسائي: أمّنا الله على حديث رسوله شعبة ومالك ويحيى القطان.

ولد سنة عشرين ومائة وتوفي سنة ثماني وتسعين ومائة.

[ومنهم: عبد الله بن المبارك[2]]

أحد الأئمة الأعلام، روى عن حميد الطويل وسليمان التيمي

---

(١) قال الذهبي: يحيى بن سعيد بن فروخ الإمام الكبير أمير المؤمنين في الحديث أبو سعيد التميمي مولاهم البصري الأحول القطان الحافظ روى له الجماعة ت ١٩٨هـ.

سير أعلام النبلاء ٩/ ١٧٥ (٥٣)، تهذيب الكمال ٣١/ ٣٢٩ (٦٨٣٤).

(٢) قال الذهبي: عبد الله بن المبارك بن واضح الإمام شيخ الإسلام عالم زمانه=

ويحيى بن سعيد الأنصاري وخلق، ثم عن شعبة ومالك والثوري، ثم عن ابن عيينة وأبي إسحاق الفزاري وغيرهما، روى عنه معمر والسفيانان وعبد الرحمن بن مهدي ويحيى بن معين وخلائق.

قال ابن المبارك: حملت عن أربعة الآف شيخ فرويت عن ألف، وقيل له: إلى متى تكتب العلم؟ قال: لعل الكلمة التي أنتفع بها ما كتبتها بعد.

وقال أحمد: لم يكن في زمنه أطلب للعلم منه، رحل إلى اليمن ومصر والشام والبصرة والكوفة، كتب عن الصغار والكبار وجمع أمراً عظيماً فكان صاحب حديث حافظاً، وقال ابن معين: ثقة مستثبت كان عالماً صحيح الجديث وكانت كتبه التي حدث بها عشرين ألفاً أو أحد وعشرين ألفاً، وكان ابن مهدي يفضله على الثوري وقال: ما رأيت أنصح للأمة منه، وقال ابن عيينة: ما رأيت للصحابة عليه فضلاً إلا لصحبتهم النبي ﷺ وغزوهم معه، وقال: كان فقيهاً عالماً عابداً زاهداً شجاعاً شاعراً، وقال الفضيل: ما خلف بعده مثله، وقال الحسن بن عيسى: اجتمع جماعة من أصحابه فعدوا خصاله فقالوا: جمع العلم والفقه والأدب والنحو واللغة والشعر والفصاحة والزهد والورع والإنصاف وقيام الليل والعبادة والحج والغزو والشجاعة والشدة في بدنه وترك الكلام فيما لا يعنيه وقلة الخلاف على أصحابه، وكان كثيراً ما يتمثل: -

وإذا صاحبت فاصحب صاحبا ذا حياء وعفاف وكرم
قوله للشيء لا إن قلت لا وإذا قلت نعم قال نعم

= وأمير الأتقياء في وقته أبو عبد الرحمن الحنظلي مولاهم التركي ثم المروزي الحافظ الغازي أخذ عن بقايا التابعين وأكثر من الترحال والتطواف وإلى أن مات في طلب العلم وفي الغزو وفي التجارة والإنفاق على الإخوان روى له الجماعة ت ١٨١٠هـ.

سير أعلام النبلاء ٣٧٨/٨ (١١٢) تهذيب الكمال ١٦/ ٥ (٣٥٢٠).

وله شعر رائق في الزهد والمواعظ.

قال ابن سعد: كان ثقة مأموناً إماماً حجة.

ولد سنة ثماني عشرة ومائة ومات منصرفاً من الغزو سنة إحدى وثمانين ومائة.

[ومنهم: يحيى بن معين الغطفاني البغدادي[1]]

الحافظ العلم، مزكي الرواة وإمام أهل الحديث في زمنه، روى عن ابن عيينة وابن المبارك ويحيى القطان ووكيع وابن مهدي وخلائق، روى عنه أحمد بن حنبل والبخاري ومسلم وعياش الدوري وجعفر بن محمد وأبو يعلى الموصلي وخلق كثيرون وأجمعوا على إمامته وتوثيقه وحفظه وجلالته وتقدمه.

قال محمد بن نصر: سمعت ابن معين يقول: كتبت بيدي ألف ألف حديث، وقال ابن المديني: ما أعلم أحداً كتب ما كتب، وقال: إنتهى العلم إلى ابن المبارك وبعده إلى ابن معين، وقال أيضاً: دار حديث الثقاة إلى جماعة إلى أن قال: وصار حديث هؤلاء كلهم إلى يحيى بن معين، قال أبو زرعة: ولم ينتفع به لأنه كان يتكلم في الناس، وقال أبو عبيد: أعلمهم بصحيح الحديث وسقيمه يحيى بن معين، وقال أحمد: أعلمنا بالرجال يحيى بن معين، وقال أيضاً: السماع مع يحيى بن معين شفاء لما في الصدور، وقال أيضاً: يحيى بن معين رجل خلقه الله لهذا الشأن يظهر كذب الكذابين، وقال أيضاً: كل حديث لا يعرفه يحيى فليس بحديث، وقال يحيى بن سعيد: ما قدم علينا مثل أحمد ويحيى.

---

(١) قال الذهبي: هو الإمام الحافظ الجهبذ شيخ المحدثين أبو زكريا يحيى بن معين بن عون الغطفاني ثم المري مولاهم البغدادي روى له البخاري ومسلم وأبو داود ت ٢٣٣هـ.

سير أعلام النبلاء ١١/٧١ (٢٨) تهذيب الكمال ٣١/٥٤٣ (٦٩٢٦).

ولد سنة ثماني وخمسين ومائة وتوفي سنة ثلاث وثلاثين ومائتين بالمدينة المنورة، دخلها ليلة الجمعة فمات في تلك الليلة وأخرجت له الأعواد التي غسل عليها النبي ﷺ فغسل عليها، وقال عياش: حمل على أعواد النبي ﷺ ونودي بين يديه: هذا الذي كان ينفي الكذب عن رسول الله ﷺ، قال هارون بن بشير الرازي: رأيت يحيى بن معين مستقبل القبلة رافعاً يديه يقول: اللهم إن كنت تكلمت في رجل ليس هو عندي كذاباً فلا تغفر لي.

وخلف له والده معين ألف ألف درهم وخمسين ألف درهم فأنفقها كلها في الحديث حتى لم يبق له نعل يلبسها.

[ومنهم: يزيد بن هارون الواسطي(١)]

أحد الأئمة الأعلام، روى عن سليمان التيمي وحميد ويحيى بن سعيد الأنصاري وهشام بن حسان في خلائق من التابعين وأتباعهم، روى عنه الأئمة أحمد وإسحاق وابن المديني والذهلي وابن أبي شيبة وآخرون.

قال أحمد: كان حافظاً متقناً، وقال ابن المديني: ما رأيت أحفظ منه، وقال أبو بكر بن أبي شيبة: ما رأيت أتقن حفظاً منه، وقال أبو حاتم: ثقة إمام صدوق لا يسأل عن مثله، وقال ابن سعد: ثقة كثير الحديث، وقال العجلي: ثقة ثبت وكان متعبداً وكان يصلي الضحى ستة عشرة ركعة، وقال أحمد بن سنان: ما رأيت عالماً قط أحسن صلاة منه، وقال عاصم بن علي: كان إذا صلى العتمة لا يزال قائماً حتى يصلي الغداة بذلك الوضوء نيفاً وأربعين سنة، وقال يعقوب بن

---

(١) قال الذهبي: يزيد بن هارون بن زاذي الإمام القدوة شيخ الإسلام أبو خالد السلمي مولاهم الواسطي الحافظ وكان رأساً في العلم والعمل ثقة حجة كبير الشأن روى له الجماعة ت ٢٠٦هـ.

سير أعلام النبلاء ٣٥٨/٩ (١١٨) تهذيب الكمال ٢٦١/٣٢ (٧٠٦١).

شيبة: كان من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وقال محمد بن قدامة الجوهري عنه: أحفظ خمسة وعشرين ألف إسناد وأنا سيد من روى عن حماد بن سلمة ولا فخر، وقال علي بن شعيب السمسار: سمعته يقول: أحفظ أربعة وعشرين ألف حديثاً بالإسناد ولا فخر وأحفظ للشاميين عشرين ألف حديث لا أسأل عنها وحدث ببغداد فحزر مجلسه تسعين ألفاً، مات سنة ست ومائتين.

[ومنهم: عبد الرزاق بن همام الحميري الصنعاني[1]]

يكنّى أبا بكر، أحد الأئمة الأعلام، روى عن أبيه وابن جريج ومعمر وسفيان ومالك والأوزاعي وخلائق، روى عنه الأئمة أحمد وإسحاق وابن معين وابن المديني وخلائق.

قيل لأحمد: رأيت أحسن حديثاً منه؟ قال: لا، قال ابن عدي: رحل إليه ثقاة المسلمين وأثبتهم إلا أنهم نسبوه إلى التشيع، وسئل عنه أحمد فقال: أما أنا فلم أسمع منه في هذا شيئاً، وقد صح أنه قال: والله ما انشرح صدري قط أن أفضل علياً على أبي بكر وعمر.

توفي سنة إحدى عشرة ومائتين وكان مولده عام ست وعشرين ومائة، قاله أحمد.

[ومنهم: البخاري محمد بن إسماعيل[2]]

الحافظ العلم أمير المؤمنين في الحديث، مؤلف الصحيح

---

(١) قال الذهبي: عبد الرزاق بن همام بن نافع الحافظ الكبير عالم اليمن أبو بكر الحميري مولاهم الصنعاني الثقة روى له الجماعة ت ٢١١هـ.
سير أعلام النبلاء ٩/ ٥٦٣ (٢٢٠) تهذيب الكمال ١٨/ ٥٢ (٣٤١٥).

(٢) قال المزي: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي مولاهم أبو عبد الله البخاري الحافظ صاحب الصحيح ت ٢٥٦هـ.
سير أعلام النبلاء ١٢/ ٣٩١ (١٧١) تهذيب الكمال ٢٤/ ٤٣٠ (٥٠٥٩).

والتاريخ وغير ذلك، كتب بخراسان والجبال والعراق والحجاز والشام ومصر، فروى عن مكي بن إبراهيم وأبي عاصم الضحاك ومحمد بن عبد الله الأنصاري وأبي نعيم الفضل وخلائق من هذه الطبقة ومن بعدهم حتى كتب عن أقرانه وعن أصغر منه حتى زاد عدد شيوخه على الألف، روى عنه مسلم والترمذي وأبو زرعة وابن خزيمة وابن صاعد وأبو حاتم ومحمد بن يوسف ومنصور بن محمد وآخرون كثيرون.

أُلهم حفظ الحديث في الكتاب وهو ابن عشر سنين وحفظ كتب ابن المبارك ووكيع وهو ابن ستة عشر سنة، وخرج مع أمه إلى مكة وتخلف بها يطلب العلم، وصنّف وهو ابن ثماني عشرة سنة التاريخ عند قبر رسول الله ﷺ قال ابن عقدة: لو كتب الرجل ثلاثين ألفاً ما استغنى عن تاريخ البخاري، وشرع في جمع الصحيح أيام إسحاق بن راهويه، وقال: أخرجته من زهاء ستمائة ألف حديث وما أدخلت فيه إلا ما صح وتركت من الصحاح لحال الطول وما وضعت في الصحيح حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين.

قال أحمد: ما أخرجت خراسان مثله، وقال ابن المديني: ما رأى مثل نفسه، وقال يعقوب الدورقي ونعيم بن حماد: وهو فقيه هذه الأمة، ولما دخل البصرة قال بندار: دخل اليوم سيد الفقهاء، وقال أبو مصعب: لو أدركت مالكاً ونظرت إليه وإلى محمد بن إسماعيل لقلت: كلاهما واحد في الفقه والحديث، وقال أبو حاتم: هو أعلم من دخل العراق وقصته مع أهل بغداد مشهورة حيث قلبوا عليه مائة حديث حين قدم عليهم فرد كل إسناد إلى متنه، ذكرها ابن عدي عن عدة من المشايخ، واجتمع في مجلسه أكثر من عشرين ألفاًوجرت له محنة مع خالد بن أحمد والي بخارى فنفاه من البلد فجاء إلى خرتنك قرية من قرى سمرقند فنزل على أقارب له بها، قال عبد القدوس بن عبد الجبار: سمعته ليلة وقد فرغ من صلاة الليل يدعو ويقول: اللهم إنه قد ضاقت علي الأرض بما رحبت فاقبضني إليك، فما تم الشهر حتى قبضه الله فتوفي ليلة عيد الفطر سنة ست وخمسين ومائتين، وولد

في ثالث عشر شوال سنة أربع وتسعين ومائة، ومناقبه مشهورة.

[ومنهم: مسلم بن الحجاج[1]]

أبو الحسين القشيري النيسابوري، أحد الحفاظ الأعلام ومصنف الصحيح والمسند الكبير على أسماء الرجال والجامع الكبير على الأبواب وكتاب العلل وكتاب أوهام المحدثين وكتاب التمييز وكتاب الطبقات وكتاب الوحدان وكتاب المخضرمين.

روى عن عبد الله بن مسلمة القعنبي وعلي بن الجعد ويحيى بن يحيى التميمي وسعيد بن منصور وخلائق، روى عنه أبو عيسى الترمذي وأبو العباس السراج وأبو بكر ابن خزيمة وإبراهيم بن محمد بن سفيان وأبو عوانة الأسفرايني وخلق.

قال أحمد بن سلمة النيسابوري: رأيت أبا زرعة وأبا حاتم يقدمان مسلماً في معرفة الصحيح على مشايخ عصرهما.

وكان مولده سنة أربع ومائتين وتوفي لخمس بقين من شهر رجب سنة إحدى وستين ومائتين بنيسابور فقيل أنه بلغ ستين سنة وبه جزم الذهبي، وقيل خمساً وخمسين سنة وبه جزم ابن الصلاح وكلاهما مخالف لما تقدم من تاريخ مولده. والله تعالى أعلم.

وبالجملة: ـ

فالمجتهدون كثير فمن أصحاب المذاهب المشهورين غير من ذكرنا سابقاً: ـ

عطاء ومجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وعكرمة والحسن

---

(١) قال الذهبي: هو الإمام الكبير الحافظ المجود الحجة الصادق أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري صاحب الصحيح ت ٢٦١هـ.

سير أعلام النبلاء ١٢/ ٥٥٧ (٢١٧) تهذيب الكمال ٢٧/ ٤٩٩ (٥٩٢٣).

البصري وسفيان الثوري وداود الظاهري وقتيبة بن سعيد والأوزاعي والشعبي وإسحاق بن راهويه وأبو ثور وابن المديني وشعبة وطاووس ووكيع وابن جريج وابن جرير وابن أبي ليلى وعمر بن عبد العزيز ومكحول الدمشقي.

وقد أضربنا عن ذكر مناقبهم خوف الإطالة واكتفاء بشهرتهم.

قال الحافظ السّيوطي: -

إعلم أن من المجتهدين أبا حنيفة والسفيانين الثوري وابن عيينة ومالكاً والشافعي وأحمد بن حنبل والليث بن سعد وإسحاق والأوزاعي وأبا ثور الذي كان يفتي الجنيد بمذهبه وداود الظاهري، وهؤلاء المجتهدون على هدى من ربهم في العقائد وغيرها وكان لكل منهم أتباع إلى خروج هولاكو ملك التتار فقتل الخليفة ببغداد وجعل كتب الأئمة في الدجلة حتى صارت كالجسر تمر الخيل عليها، فعدمت الكتب التي تتعلق بالأئمة، فاستقر الحال على هذه الأربعة مذاهب الآن. انتهى. وذلك في أيام الملك الظاهر.

* إذا تقرر هذا فهذا أوان الشروع في الكلام على مناقب أئمة هذه المذاهب الأربعة، وهو المقصود من هذا الكتاب.

وعلى الله الهداية لطريق الصواب

الباب الأول
في ذكر مناقب الإمام أبي حنيفة
رضي اللّٰه تعالى عنه

وهو الإمام العلم الحجة البارع الورع الذي أجمع السلف والخلف على كثرة علمه وورعه وعبادته ودقة مداركه واستنباطات أدلته وكثرة احتياطه في الدين وخوفه من الله تعالى.

الإمام أبو حنيفة

النعمان بن ثابت بن زوطى بن ماه، وكان زوطى من أهل كابل مملوكاً لبني تيم الله فأسلم فأعتق فولاؤه لبني تيم الله بن ثعلبة، وولد ثابت على الإسلام.

وقيل: هو النعمان بن ثابت النعمان بن المرزبان من أبناء فارس الأحرار.

وذهب ثابت وهو صغير إلى علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فدعا له بالبركة في ذريته فكان ذا دين وعقل ومروءة وانتقل من فتنة الأنبار إلى نسا.

وولد له أبو حنيفة في الكوفة سنة ثمانين من الهجرة في خلافة عبد الملك بن مروان فعاش سبعين سنة وتوفي ببغداد سنة مائة وخمسين.

وكان ربعة من الرجال ليس بالطويل ولا بالقصير وكان من أحسن الناس صورة وأبلغهم منطقاً وأكملهم إيراداً وأحلاهم نغمة وأبينهم على ما يريد.

وفي رواية: كان أبو حنيفة طوالاً تعلوه سمرة، حسن الوجه، حسن اللحية، حسن الثياب، طيب الريح، حسن المجلس، حسن الهيئة، هيوباً لا يتكلم إلا جواباً، ولا يخوض فيما لا يعنيه، يلبس الكساء بثلاثين ديناراً.

وفي رواية أبي مطيع: رأيت على أبي حنيفة يوم جمعة رداء وقميصاً قومتهما بأربعمائة درهم.

وفي رواية أبي يوسف: رأيت على أبي حنيفة ثعالب وفنكا وهو يصلي، ورأيت عليه السنجاب، وفي رواية يحيى بن النضر: كان أبو حنيفة لباساً له جبة فنك وجبة سنجاب.

وكانت ولادته في عصر الصحابة، وهو من التابعين على الصحيح.

قال الحافظ ابن حجر: أدرك الإمام أبو حنيفة جماعة من الصحابة لأنه ولد بالكوفة سنة ثمانين من الهجرة، وبها يومئذ من الصحابة عبد الله بن أبي أوفى.

قال الحافظ الذهبي: أنه رأى أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ وهو صغير.

وذكر جماعة: أنه روى عن جماعة من الصحابة، أنس بن مالك وعمرو بن حريث وعبد الله بن أنيس وعبد الله بن الحارث وجابر بن عبد الله وعبد الله بن أبي أوفى وواثلة بن الأسقع ومعقل بن يسار وأبي الطفيل عامر وعائشة بنت عجرد.

* والصواب: أنه لم تثبت روايته عن واحد منهم بطريق صحيح، لكن صح رؤياه لأنس بن مالك حال صغره، وأدرك بالسن جماعة من الصحابة في بلدان شتى حال صغره ولم يرو عن واحد منهم.

قال بعضهم: والظاهر أنه لم يلق أحداً يرشده إلى ذلك حال صغره بل كان مشغولاً بالكسب إلى أن أرشده الإمام عامر الشعبي إلى الاشتغال بالعلم لما رأى من نجابته، فتفقه على التابعين وروى عنهم، وناظرهم وكان من أعيانهم، فانتهت إليه الرئاسة.

فهو عالم الإسلام وأحد الأئمة الأعلام وعظيم أئمة المذاهب

المتبوعة، وارتحل إليه الناس من الأمصار وقصدوه من سائر الأقطار.

فروى عنه جمع كثير وجم غفير من أهل مكة والمدينة ومصر والشام وبغداد واليمن والبصرة والكوفة والموصل والجزيرة ونصيبين والأهواز وكرمان وأصبهان وحلوان وهمدان وطبرستان وجرجان وخراسان وسجستان وبلخ وبخارى وسمرقند ونيسابور والري ونهاوند وهراة وخوارزم وغير ذلك من بلاد الإسلام.

وكان ذلك مصداق الحديث الذي رواه الشيخان وغيرهما من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لو كان الإيمان عند الثريا» ولفظ أبي نعيم «لو كان العلم معلقاً بالثريا» زاد الطبراني في حديث قيس «لا تناله العرب لناله رجال» ولفظ مسلم «لتناوله رجل من أبناء فارس».

فهذا أصل صحيح يعتمد عليه في البشارة والفضيلة، نظير الحديثين اللذين في الإمامين مالك والشافعي، وما ورد في فضل أبي حنيفة من الأحاديث فكذب موضوع.

فمن ذلك حديث أبي هريرة: «يكون في أمتي رجل يقال له أبو حنيفة النعمان هو سراج أمتي إلى يوم القيامة» وفي لفظ: «يكون في أمتي رجل اسمه النعمان وكنيته أبو حنيفة هو سراج أمتي» وحديث ابن عمر يرفعه: «يظهر من بعدي رجل يعرف بأبي حنيفة يحيي الله تعالى سنتي على يديه» وحديث أنه ﷺ: «بصق في فم أنس وأوصاه أن يبصق في فم أبي حنيفة».

إلى غير ذلك مما ورد فذلك مما لا أصل له، والإمام أبو حنيفة غني عن هذه الموضوعات التي لا تروج على من له أدنى إلمام بنقد الحديث.

تنبيه

توهم بعضهم أفضلية أبي حنيفة على الأئمة الثلاثة بقوله ﷺ: «خير الناس القرن الذي أنا فيه ثم الثاني ثم الثالث» وفي طريق آخر «ثم يجيء قوم لا خير فيهم».

قال ابن حزم: ومعنى هذا الحديث إنما هو أن كل قرن من القرون المذكورة أكثر فضلاً بالجملة من القرن الذي بعده، لا يجوز غير هذا البتة، لأنه كان في عصر التابعين من هو أفسق الفاسقين كقتلة عثمان والحسين وابن الزبير وكالحجاج، ومن خالف هذا لزمه إن يقول أن هؤلاء الفساق أفضل من كل فاضل في القرن الثالث ومن بعده كسفيان والفضيل وشعبة، ومالك والأوزاعي والليث ووكيع وابن المبارك والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق وداود وغيرهم وهذا لا يقوله أحد.

قال: وما يبعد أن يكون في زماننا من هو أفضل من أفضل رجل في التابعين الذين لا نص فيهم إذ لم يأتى بالمنع من ذلك نص ولا برهان.

قال: وأما المأثور في أويس القرني فلا يصح.

فصل
فيمن روى (عنه) أبو حنيفة

قد مر قريباً أن أبا حنيفة ولد في عصر الصحابة وكان في زمنه جماعة منهم، وقد جزم خلائق من أئمة المحدثين أن أبا حنيفة لم يسمع من أحد من الصحابة شيئاً لأن الثقاة من أصحابه كأبي يوسف ومحمد وعبد الرزاق بن همام وابن المبارك وأبو نعيم وغيرهم لم ينقلوا عنه شيئاً من ذلك مع أنه مما يتنافس فيه ويفتخر به.

روى عن الأئمة التابعين وغيرهم من العلماء الراسخين، فروى عن نافع مولى ابن عمر وعطاء بن أبي رباح ومجاهد وعكرمة مولى ابن عباس والأسود وعلقمة ومكحول وحماد بن أبي سليمان والحسن البصري وابن أبي ليلى محمد الكوفي وطاووس بن كيسان اليماني ومالك بن أنس والليث بن سعد والكلبي محمد بن السائب ومحمد بن عمرو بن شعيب عن جده وإبراهيم النخعي وجعفر الصادق وثابت البناني وسفيان الثوري وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب أحد الفقهاء السبعة وحجاج بن أرطاة أحد الفقهاء وسعيد المقبري وسعيد بن مسروق وسليمان بن مهران الأعمش وشعبة بن الحجاج وعامر الشعبي وعامر بن عبد الله بن قيس وعبد الأعلى التيمي الكوفي وعبد الله بن المبارك وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج وعطاء بن السائب الثقفي وعطاء بن يسار الهذلي المدني مولى ميمونة وعطاء الخراساني وعمار أبو عمارة الكوفي ومحارب بن دثار الكوفي ومسلم بن كيسان

ومنصور بن المعتمر وهشام بن عروة بن الزبير بن العوام ويحيى بن عبد الله الكندي ويحيى بن معمر وعمرو بن عبيد الله بن إسحاق السبيعي وعبيدة بن معتب الضبي وعبد الملك بن إياس الشيباني الكوفي وسالم بن عجلان الأموي وزيد بن علي بن الحسن بن أبي طالب والحسن بن زيد بن الحسن بن علي والحسن بن الصباح الكوفي وجابر بن يزيد الجعفي وخلائق لا يحصون.

قال أبو المؤيد الخوارزمي: أمر الإمام أبو حفص الكبير بعد مشايخ الإمام أبي حنيفة فبلغوا أربعة الآف.

فصل
فيمن روى عن أبي حنيفة

قد مر قريباً أن الإمام أبا حنيفة قصده الناس من سائر الأقطار وشد إليه الرحال أهل القرى والأمصار للرواية عنه.

قال الحافظ أبو محمد الحارثي: والذين رووا عنه أكثر من الذين رووا عن مالك والشافعي وأحمد وسفيان الثوري والأوزاعي وابن جريج وابن أبي ليلى ويحيى بن سعيد وهشام بن عروة وغيرهم من أئمة الإسلام، وكثرت الرواية عنه حتى روى عنه شيوخه، فروى عنه الليث بن سعد ومالك بن أنس وعبد الملك بن جريج وعلقمة بن مرثد الكوفي ونافع القاري المدني وعبد الله بن المبارك وعبد الرزاق بن همام الحميري وسفيان بن عيينة وحماد بن أبي سليمان وحماد بن سلمة بن دينار وحماد بن زيد بن درهم وابن أبي ليلى ومحمد بن عمر الواقدي ومحمد بن زياد الثعلبي ومحمد بن إسحاق بن يسار إمام أهل المغازي وأيوب بن سويد الرملي وخلاد بن يحيى المقري والربيع بن يونس حاجب المنصور وربيعة بن أبي عبد الرحمن المدني وسفيان بن سعيد بن مسروق وشعبة بن الحجاج وشيبة بن عبد الرحمن القرشي الكوفي وطلحة بن إياس البغدادي وعبد الرحمن بن مهدي وعبد الملك بن عبد العزيز الماجشون وعلي بن عياش الحمصي

وعلي بن مسهر القرشي الموصلي وعمارة بن محمد الكوفي والفضيل بن عياض والفضل بن دكين ومجاهد بن عمرو القاضي بما وراء النهر والمعافى بن عمران الأزدي ومعتمر بن سليمان ووكيع بن الجراح وأبو يوسف يعقوب ومحمد بن الحسن وخلائق كثير لا يمكن حصرهم ولا ضبطهم وإنما ذكرنا غالباً من روى عنه من شيوخه رضي الله عنهم، وقد عد صاحب «عقود الجمان» نحو الثمانمائة ممن روى عن الإمام أبي حنيفة.

فصل

في ثناء الائمة عليه

قد أكثر الأئمة الأعلام من مدح هذا الإمام، فروى الخطيب عن الإمام الشافعي قال: قيل للإمام مالك بن أنس هل رأيت أبا حنيفة؟ قال: نعم رأيت رجلاً لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته، وفي رواية: قلت: فأبو حنيفة، قال: سبحان الله لم أر مثله، تالله لو قال أبو حنيفة إن الاسطوانة من ذهب لأقام الدليل القياسي على صحة قوله.

وروى القاضي الصيمري عن ابن المبارك قال: كنت عند مالك بن أنس فدخل عليه رجل فرفعه فلما خرج قال: أتدرون من هذا؟ قالوا: لا، قال: هذا أبو حنيفة العراقي لو قال هذه الاسطوانة من ذهب لخرجت كما قال، لقد وفق له الفقه حتى ما عليه فيه كبير مؤنة.

وروى الخطيب عن الشافعي: الناس عيال على أبي حنيفة في الفقه، وروى أيضاً عنه: من أراد أن يتبحر في الفقه فهو عيال على الإمام أبي حنيفة، وكان أبو حنيفة ممن وفق له الفقه، وروى أيضاً عنه قال: ما رأيت أحداً أفقه من أبي حنيفة، قال الخطيب: أراد بقوله ما رأيت، ما علمت فإنه لم يدركه.

وعن الشافعي: من لم ينظر في كتب الإمام أبي حنيفة لم يتبحر في العلم ولا يتفقه.

وقال القاضي أبو القاسم بن كاس: حدثنا أبو بكر المروزي سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يقول: لم يصح عندنا أن أبا حنيفة قال القرآن مخلوق، فقلت: الحمد لله يا أبا عبد الله هو من العلم بمنزلة، فقال: سبحان الله هو من العلم والورع والزهد وإيثار الدار الآخرة بمحل لا يدركه فيه أحد ولقد ضرب بالسياط على أن يلي القضاء لأبي جعفر المنصور فلم يفعل فرحمة الله عليه ورضوانه.

وروى الخطيب عن سفيان بن عيينة قال: ما مقلت عيني مثل أبي حنيفة، وروى القاضي أبو عبد الله الصيمري عنه قال: من أراد المغازي فالمدينة ومن أراد المناسك فمكة ومن أراد الفقه فالكوفة ويلزم أصحاب أبي حنيفة، وروي أيضاً عنه قال: العلماء أربعة: ابن عباس في زمانه والشعبي في زمانه وأبو حنيفة في زمانه والثوري في زمانه.

وروى الخطيب عن عبد الله بن المبارك قال: كان أبو حنيفة أفقه الناس ما رأيت أفقه منه، وروى أيضاً عنه: إن كان أحد له أن يقول برأيه فأبو حنيفة [له] أن يقول برأيه، وإن كان الأثر قد عرف واحتيج إلى الرأي فرأي مالك وسفيان وأبو حنيفة أحسنهم وأدقهم فطنة وأغوصهم على الفقه وهو أفقه الثلاثة، ولولا أن الله أغاثني بأبي حنيفة وسفيان لكنت كسائر الناس.

وروى الخطيب عن محمد بن بشر قال: كنت أختلف إلى أبي حنيفة وسفيان الثوري، فآتي أبا حنيفة فيقول: من أين جئت؟ فأقول: من عند سفيان، فيقول: جئت من عند رجل لو أن علقمة والأسود حضرا لاحتاجا إلى مثله، فآتي سفيان فيقول: من أين جئت؟ فأقول: من عند أبي حنيفة، فيقول: لقد جئت من عند أفقه أهل الأرض.

وسئل سفيان عن مسألة في الطلاق فقال: لا يعلم الحيلة في

هذه إلا أبو حنيفة، وقال: إن الذي يخالف أبا حنيفة يحتاج إلى أن يكون أعلى منه قدراً وأوفر علماً وبعيداً ما يوجد ذلك.

وقال بشر: حججت مع أبي حنيفة وسفيان فكانا إذا نزلا منزلاً أو بلدة اجتمع الناس عليهما وقالوا فقهاء العراق، فكان سفيان يقدم أبا حنيفة ويمشي خلفه وإذا سئل عن مسألة وأبو حنيفة حاضر لم يجب حتى يكون أبو حنيفة هو الذي يجيب، وقال أبو يوسف: سفيان الثوري أكثر متابعة مني لأبي حنيفة، وسئل يزيد بن هارون: أيما أفقه أبو حنيفة أو سفيان؟ فقال: سفيان أحفظ للحديث وأبو حنيفة أفقه.

وروى القاضي الصيمري عن ابن جريج قال: بلغني عن النعمان فقيه الكوفة أنه شديد الورع صائن لدينه ولعلمه لا يؤثر أهل الدنيا على أهل الآخرة وأحسبه سيكون له في العلم شأن عجيب، وكان محباً لأبي حنيفة كثير الذكر له، وعن عمر بن هارون قال: ذكروا أبا حنيفة عند ابن جريج فقال: اسكتوا إنه لفقيه، إنه لفقيه، إنه لفقيه.

وروى الصيمري عن يحيى بن معين أنه قال: القراءة عندي قراءة حمزة والفقه فقه أبي حنيفة على هذا أدركت الناس، والفقهاء أربعة أبو حنيفة وسفيان ومالك والأوزاعي، وسئل: هل حدث سفيان عن أبي حنيفة؟ قال: نعم كان أبو حنيفة ثقة صدوقاً في الحديث والفقه مأموناً على دين الله تعالى.

وقال أحمد بن إبراهيم الدورقي: سئل يحيى بن معين وأنا أسمع عن أبي حنيفة فقال: ثقة ما سمعت أحداً ضعفه، هذا شعبة بن الحجاج يكتب له أن يحدث ويأمره، وشعبة شعبة.

وروى الخطيب عن يحيى بن معين قال: سمعت يحيى بن سعيد القطان يقول: لا نكذب الله تعالى ما سمعنا أحسن من رأي أبي حنيفة، وكم من شيء حسن قد قاله أبو حنيفة.

وروى الخطيب عن وكيع بن الجراح قال: ما لقيت أحداً أفقه من أبي حنيفة ولا أحسن صلاة منه.

وروى الصيمري: قال رجل ليزيد بن هارون: يا أبا خالد رأي مالك أحب إليك أم رأي أبي حنيفة فقال: أكتب حديث مالك فإنه كان ينتقي الرجال، والفقه صناعة أبي حنيفة وصناعة أصحابه والفرائض كأنهم خلقوا لها، وروى أيضاً عن ابن عطية قال: كنت عند يزيد بن هارون فذكر أبو حنيفة فنال منه إنسان فأطرق طويلاً فقالوا: رحمك الله حدثنا فقال: كان أبو حنيفة تقياً نقياً زاهداً عالماً صدوق اللسان أحفظ أهل زمانه سمعت كل من أدركته من أهل زمانه يقول: إنه ما رأى أفقه منه.

وروى أبو محمد الحارثي عن أبي يحيى الحماني قال: ما ضممت أبا حنيفة إلى أحد من أهل زمانه ممن لقيتهم وممن لم ألقهم في كل باب من أبواب الخير إلا رأيت لأبي حنيفة الفضل عليهم وما لقيت أحداً قط أفضل منه ولا أورع منه ولا أفقه منه.

وروى القاضي ابن كاس: قيل لمسعر لم تركت رأي أصحابك وأخذت برأي أبي حنيفة فقال: أنا فعلت ذلك لصحة رأيه فأتوا بالأصح منه لأرغب عنه إليه، طلبنا مع أبي حنيفة الحديث فغلبنا فأخذنا في الزهد فبرع علينا وطلبنا معه الفقه فجاء منه ما ترون.

وقال عبد الله بن المبارك: رأيت مسعراً في حلقة أبي حنيفة جالساً بين يديه يسأله ويستفيد منه، وقال: ما رأيت أسود رأس أفقه من أبي حنيفة رحم الله أبا حنيفة إنه كان لفقيهاً عالماً.

وروى الخطيب عن ابن أبي جعفر الرازي قال: ما رأيت أحداً أفقه من أبي حنيفة وما رأيت أحداً أورع منه، وروى أيضاً عن الفضيل بن عياض قال: كان أبو حنيفة رجلاً فقيهاً معروفاً بالفقه مشهوراً بالورع واسع المال معروفاً بالأفضال على كل من يطيف به صبوراً على تعليم العلم بالليل والنهار كثير الصمت قليل الكلام يدل على الحق هارباً من السلطان، وروى أيضاً عن بشر بن الحارث قال: إذا أردت الآثار أو قال الحديث فسفيان وإذا أردت تلك الدقائق فأبو

حنيفة، وروى أيضاً عن ابن المبارك قال: رأيت الحسن بن عمارة أخذ بركاب أبي حنيفة وهو يقول: والله ما أدركنا أحداً تكلم في الفقه أبلغ ولا أصبر ولا أحضر جواباً منك وإنك لسيد من تكلم في الفقه في وقتك غير مدافع وما يتكلمون فيك إلا حسداً.

وروى الصيمري عن محمد بن الحسن قال: كان أبو حنيفة واحد زمانه ولو انشقت عنه الأرض لا انشقت عن جبل من الجبال في العلم والكرم والمواساة والورع والإيثار لله مع الفقه والعلم.

وروى أبو محمد الحارثي عن الإمام زفر قال: جالست أبا حنيفة أكثر من عشرين سنة فلم أر أحداً أنصح للناس منه ولا أشفق عليهم منه، أما عامة النهار فهو مشتغل في العلم وفي المسائل وتعليمها وفيما يسأل من النوازل وجواباتها، وإذا قام من المجلس عاد مريضاً أو شيع جنازة أو واسى فقيراً أو وصل أخاً سعى في حاجة، فإذا كان الليل خلا للعبادة والصلاة وقراءة القرآن فكان هذا سبيله حتى توفي رحمه الله.

وروى الصيمري عن حازم المجتهد قال: كلمت أبا حنيفة في باب الزهد والعبادة واليقين والتوكل والاجتهاد ففسر لي كل باب منها على حدة وميز من كل فن منها تمييزاً ظاهراً ووجدته عالماً بهذه الأبواب عاملاً بها وكان إماماً للفقهاء إماماً للزهاد إماماً للعباد إماماً لأصحاب اليقين والتوكل والاجتهاد عارفاً بهذه الأمور كلها.

وروى الخوارزمي عن المعافى بن عمران الموصلي قال: كان في أبي حنيفة عشر خصال ما كانت واحدة منها في أحد إلا صار رئيساً في قومه وساد قبيلته: الورع والصدق والفقه ومداراة الناس والمروءة الصادقة والإقبال على ما ينفع وطول الصمت والإصابة بالقول ومعونة اللهفان عدواً كان أو ولياً.

وبالجملة: ـ

فالآثار والنقل عن الأئمة في مدحه والثناء عليه مما يطول

ويخشى منه الملل فلا نطيل بذلك، ففيما ذكرناه كفاية لمن أنصف وعرف مقدار الأئمة، وإنما أتيت بهذه الشرذمة القليلة لأن كثيراً من الناس من وقع فيه وتكلم في جنابه بما لا يليق حتى أنه رؤي في المنام فقيل له: بما غفر الله لك، قال: بقول الناس في ما ليس في، وسيأتي الكلام على ذلك.

فصل
في عبادته وكثرة صلاته

قال الحافظ الذهبي: قد تواتر أثر قيامه الليل وتهجده وتعبده فكان رضي الله عنه لا ينام الليل وسموه الوتد لكثرة صلاته.

روى الخطيب عن حفص بن عبد الرحمن قال: كان أبو حنيفة يحيى الليل بقراءة القرآن في ركعة ثلاثين سنة، وروى أيضاً عن أسد بن عمرو قال: صلى أبو حنيفة فيما حفظ عليه الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة فكان عامة الليل يقرأ جميع القرآن في ركعة واحدة وكان يسمع بكاؤه بالليل حتى يرحمه جيرانه وحفظ عليه أنه ختم القرآن في الموضع الذي توفي فيه سبعة آلاف مرة، وروى أيضاً عن منصور بن عامر قال: وقع رجل من أهل الكوفة في أبي حنيفة فقال له عبد الله بن المبارك: ويحك أتقع في رجل صلى خمساً وأربعين سنة خمس صلوات على وضوء واحد وكان يجمع القرآن في ركعتين في ليلة وتعلمت الفقه الذي عندي من أبي حنيفة.

وروى أبو نعيم وغيره أن الإمام أبا حنيفة صلى الصبح بوضوء العشاء أكثر من خمسين سنة.

وقال ابن عيينة: رحم الله تعالى أبا حنيفة كان من المصلين فما قدم مكة رجل في وقتنا أكثر صلاة من أبي حنيفة.

وقال أبو مطيع: كنت بمكة فما دخلت الطواف في ساعة من ساعات الليل إلا رأيت أبا حنيفة وسفيان في الطواف.

وروى الخطيب عن حماد بن الإمام أبي حنيفة قال: لما مات أبي سألنا الحسن بن عمارة أن يغسله ففعل فلما غسله قال: رحمك الله وغفر لك لم تفطر منذ ثلاثين سنة ولم تتوسد يمينك بالليل منذ أربعين سنة، وروى الخطيب عن يحيى بن فضيل قال: كنت مع جماعة فأقبل أبو حنيفة فقال بعضهم: ما ترونه لا ينام الليل قال: فسمع أبو حنيفة فقال: أراني عند الناس بخلاف ما أنا عند الله لا توسدت فراشاً حتى ألقى الله تعالى، قال يحيى: فكان أبو حنيفة يقوم الليل حتى توفي أو قال مات، وفي رواية عن أبي يوسف قال: بينا أنا أمشي مع أبي حنيفة إذ سمع رجلاً يقول لرجل: هذا أبو حنيفة لا ينام الليل، فقال أبو حنيفة: سبحان الله ألا ترى الله تعالى قد نشر لنا هذا الذكر أو ليس بقبيح أن يعلم الله منا ضد ذلك والله لا يتحدث الناس عني بما لا أفعل، فكان يحيى الليل صلاة ودعاء وتضرعاً.

وروى الصيمري عن شريك قال: رأيت حماد بن أبي سليمان وعلقمة بن مرثد ومحارب بن دثار وعون بن عبد الله وعبد الله بن عمير وأبا همام الوليد بن قيس وموسى بن طلحة وأبا حنيفة فما رأيت في القوم أحداً أحسن ليلاً من أبي حنيفة، ولقد كنت معه سنة فما رأيته وضع جنبه على فراش.

وروى الخطيب عن أبي الجويرية قال: لقد صحبت حماد بن أبي سليمان وعلقمة بن مرثد ومحارب بن دثار وعون بن عبد الله وصحبت أبا حنيفة فلم يكن في القوم أحسن ليلاً من أبي حنيفة، لقد صحبته ستة أشهر فما رأيته وضع جنبه فيها.

وروى الصيمري عن ابن أبي رواد قال: ما رأيت أصبر على الطواف والصلاة والفقهاء بمكة من أبي حنيفة إنما كل الليل والنهار في طلب الآخرة لنفسه والنجاة للمعاد، صبوراً على تعليم من يحبه ويطلب العلم، ولقد شاهدته عشر ليال فما نام بالليل ولا هدأ ساعة من نهار من طواف وصلاة أو تعليم علم، وروى أيضاً عن أبي يوسف قال:

كان أبو حنيفة يختم القرآن كل يوم وليلة ختمة حتى إذا كان شهر رمضان ختم فيه مع ليلة الفطر ويوم الفطر اثنتين وستين ختمة، وكان سخياً بالمال صبوراً على تعليم العلم شديد الاحتمال لما يقال فيه بعيد الغضب، وكان أصحابنا يقولون إنه كان يصلي الغداة على طهر أول الليل شهدته أنا عشرين سنة، وكان من صحبه قبلنا يقولون إنه صلى الغداة بوضوء أول الليل أربعين سنة.

وروى الخطيب عن علي بن زيد الصدائي قال: رأيت أبا حنيفة يختم القرآن في شهر رمضان ستين ختمة، ختمة بالليل وختمة بالنهار، وكان له ورد بالليل يختم فيه القرآن فَرُبّمَا خَتَمَهُ في ركعة واحدة وربما ختمه في جميع صلاته بالليل، وعامة النهار هو في فتيا ومسائلة مع أصحابه ولم تر عيناي مثله في اجتهاده ودينه وورعه.

وذكر الإمام الكَرْدَري في المناقب: أن الإمام أبا حنيفة حج خمساً وخمسين حجة.

وبالجملة: ـ

فالآثار في هذا كثيرة: ـ

قال أبو المؤيد عن أصحابه: لقد حزرنا ختمه في الموضع الذي فارق فيه الدنيا سوى سائر المواضع فكان سبعة الآف ختمة وكان له في كل شهر رمضان ستون ختمة.

وأنشد أبو المؤيد لنفسه: ـ

نهار أبي حنيفة للإفادة ... وليل أبي حنيفة للعبادة

إلى أن قال: ـ

وسورة زلزلت قد زلزلته ... بسورتها وقد سلبت فؤاده

وودع نومه خمسين عاماً ... بطاعته وخداه الوسادة

فصل

في خوفه ومراقبته لله تعالى

روى الخطيب عن وكيع بن الجراح قال: كان والله أبو حنيفة عظيم الأمانة، وكان الله تعالى في قلبه جليلاً كبيراً، وكان يؤثر رضى ربه تبارك وتعالى على كل شيء ولو أخذته السيوف في الله تعالى لاحتمل رحمه الله ورضي عنه رضا الأبرار فلقد كان منهم، وروى أيضاً عن يحيى بن معين قال: سمعت يحيى بن سعيد القطان يقول: جالسنا والله أبا حنيفة وسمعنا منه وكنت إذا نظرت إليه عرفت في وجهه أنه يتقي الله عز وجل.

وروى الصيمري عن عبد الرزاق بن همام قال: كنت إذا رأيت أبا حنيفة رأيت آثار البكاء في عينيه وخديه رحمة الله عليه.

وروى أبو محمد الحارثي عن يحيى بن نصر بن حاجب القرشي قال: كان أبي صديقاً لأبي حنيفة فكنت ربما بت عنده بالليل فأراه يصلي الليل كله وكنت أسمع وقوع دموعه على الحصير كأنه المطر.

وروى الصيمري عن أبي الأحوص: لو قيل لأبي حنيفة إنك تموت إلى ثلاثة أيام ما كان فيه فضل شيء يقدر أن يزيده على عمله الذي كان يعمل.

وروى الخطيب عن القاسم بن معن قال: قام أبو حنيفة ليلة بهذه الآية ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ يرددها ويبكي ويتضرع.

وروى الحارثي عن الليث بن خالد عن رجل من أصحاب أبي حنيفة قال: كان أبو حنيفة أكثر صلاة بالليل فرأيته قام ليلة فلما بلغ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾﴾ بقي في قراءته كلما فرغ منها ابتدأ فما زال دأبه ذلك حتى أصبح الصبح.

وروى الصيمري عن بكر العابد قال: رأيت أبا حنيفة يصلي

ويبكي ويدعو أو يقول: رب ارحمني يوم تبعث عبادك وقني عذابك واغفر لي ذنوبي يوم يقوم الأشهاد.

وروى الحارثي عن أبي الحسن بن محمد قال: من جالس أبا حنيفة حقر الرجال بعده ومن نظر إلى أبي حنيفة حقر الرجال بعده ومن نظر إلى أبي حنيفة رحمه من اصفرار وجهه ونحافة جسمه مما يجتهد في العبادة.

فصل
في ورعه

روى القاضي ابن كاس عن مكي بن إبراهيم قال: جالست الكوفيين فلم أر فيهم أورع من أبي حنيفة.

وروى الخطيب عن ابن المبارك قال: ما رأيت أحداً أورع من أبي حنيفة.

وروى الصيمري عن النضر بن محمد قال: ما رأيت أشد ورعاً من أبي حنيفة، وروى أيضاً عن يزيد بن هارون قال: كتبت عن ألف شيخ وحملت عنهم العلم ما رأيت فيهم أشد ورعاً من أبي حنيفة ولا أحفظ للسان منه، وروى أيضاً عن الحسن بن صالح قال: كان أبو حنيفة شديد الورع هائباً للحرام تاركاً لكثير من الحلال مخافة الشبهة، ما رأيت فقيهاً أشد صيانة منه لنفسه ولعلمه وكان جهاده كله لقبره.

وروى الصيمري عن علي بن حفص قال: كان حفص بن عبد الرحمن شريك أبي حنيفة فبعث إليه أبو حنيفة بمتاع وأعلمه أن في ثوب كذا وكذا عيباً فإذا بعته فبيِّن فباع حفص المتاع ونسي أن يبين ولم يعلم ممن باعه فلما علم أبو حنيفة تصدق بثمن المتاع كله وكان ثلاثين ألف درهم وفاصل من شريكه.

وروى أبو المؤيد عن عبد الله بن المبارك قال: وقعت إلى الكوفة أغنام من الغارة واختلطت بغنم أهل الكوفة فسأل أبو حنيفة:

كم تعيش الغنم؟ قالوا: سبع سنين، فترك أكل لحم الغنم سبع سنين.

وفي بعض المناقب: أنه رأى في تلك الأيام بعض الجند أكل لحماً ورمى فضلته في نهر الكوفة فسأل عن عمر السمك فقيل له كذا وكذا فامتنع من أكل السمك تلك المدة.

ومن دقيق ورعه رضي الله عنه: أن أبا جعفر المنصور لما منعه أن يفتي سألته ابنته في الليل عن الدم الخارج من لحم الأسنان هل ينقض الوضوء؟ فقال لها: سلي عمك حماداً عن ذلك بكرة النهار فإن إمامي منعني الفتيا ولم أكن ممن يخون إمامه بالغيب.

وقال الإمام القشيري في رسالته المشهورة: كان أبو حنيفة لا يجلس في ظل شجرة غريمه ويقول: كل قرض جر منفعة فهو ربا.

وروى أبو المؤيد الخوارزمي عن يزيد بن هارون قال: ما رأيت رجلاً أورع من أبي حنيفة رأيته يوماً جالساً في الشمس عند باب إنسان فقلت له: يا أبا حنيفة لو تحولت إلى الظل فقال: لي على صاحب هذه الدار دراهم ولا أحب أن أجلس في ظل فناء داره، قال يزيد بن هارون: أي ورع أكثر من هذا.

وقال أبو يوسف: قال أبو حنيفة: لولا الفرق من الله أن يضيع العلم ما أفتيت أحداً يكون لهم الهناء وعلي الوزر.

وقال مكحول: قال أبو حنيفة: لولا الحرج ما أفتيت الناس، أخوف ما أخاف أن يدخلني النار ما أنا عليه مقيم من الفتوى.

وقال أبو نعيم: سمعت أبا حنيفة يقول: من أبغضني جعله الله مفتياً.

فصل
في عقله وفراسته

روى الخطيب عن محمد بن عبد الله الأنصاري قال: كان أبو

حنيفة يتبين عقله في منطقه وفعله ومشيه ومدخله ومخرجه، وروى أيضاً عن علي بن عاصم قال: لو وزن عقل أبي حنيفة بعقل نصف أهل الأرض لرجح بهم، وروى أيضاً عن يزيد بن هارون قال: أدركت الناس ما رأيت أحداً أعقل ولا أفضل ولا أورع من أبي حنيفة.

وروى الصيمري عن أبي يوسف قال: ما صحبت أحداً من الناس فيقدر أن يقول أنه رأى أكمل عقلاً ولا أتم مروءة من أبي حنيفة، وروى أيضاً عن ابن معين قال: كان أبو حنيفة أعقل من أن يكذب ما سمعت أحداً يصفه ويذكره بمثل ما كان ابن المبارك يصفه ويذكره به من الخير.

وروى الخطيب عن ابن المبارك قال: ما رأيت رجلاً أعقل من أبي حنيفة، وذكر عند هارون الرشيد يوماً فترحم عليه وقال: كان ينظر بعين عقله ما لا يراه غيره بعين رأسه، وروى أيضاً عن يحيى الحمّاني قال: سمعت ابن المبارك يقول: قلت لسفيان الثوري: يا أبا عبد الله، ما أبعد أبا حنيفة من الغيبة ما سمعته يغتاب عدواً له قط قال: هو والله أعقل من أن يسلط على حسناته ما يذهب بها.

وروى الحارثي عن الشافعي قال: ما قامت النساء عن رجل أعقل من أبي حنيفة.

وروى الخطيب عن إبراهيم بن عمر بن حماد قال: كان أبو حنيفة حسن الفراسة، قال لداود الطائي: أنت تتخلى للعبادة، وقال لأبي يوسف: أنت تميل إلى الدنيا، وقال لزفر كلاماً فكان كما قال، وروى أيضاً عن أبي المحاسن الحسن بن علي قال: قيل لأبي حنيفة: كيف رأيت غلمان أهل المدينة؟ قال: إن أفلح منهم أحد فالأشقر الأزرق، يريد به مالك بن أنس، ولقد صدق في فراسته فإن مالكاً بلغ من العلم مرتبة لم يبلغها أحد من أهل المدينة في عصره.

وبالجملة: -

فالكلام على فراسته وفطنته وذكائه وأجوبته المسكتة المبهمة مما يطول ذكرها، ولو ذكرناها لحصل الملل وإنما قصدنا التنبيه على علو مقام هذا الإمام ومدح الأئمة له بهذه الصفات الجميلة حتى لا يغتر أحد بما وقع في حقه من المتعصبين المتحاملين.

فصل

في إكرامه وسخائه

روى الخطيب: أنه ما رأى الناس أكرم مجالسة من أبي حنيفة ولا إكراماً لأصحابه، وربما مر بأبي حنيفة الرجل فيجلس إليه لغير قصد ولا مجالسة فإذا قام سأل عنه فإن كانت به فاقة وصله وإن مرض عاده حتى يجره إلى مواصلته وكان أكرم الناس مجالسة، وروى أيضاً عن الحسن بن زياد قال: رأى أبو حنيفة على بعض جلسائه ثياباً رثة فأمره فجلس حتى تفرق الناس وبقي وحده فقال له: إرفع المصلى وخذ ما تحته فغير به حالك فرفع الرجل المصلى فكان تحته ألف درهم. وروى أيضاً عن أبي يوسف قال: كان أبو حنيفة كثير الصلة والبر لكل من لجأ إليه كثير الإفضال على إخوانه.

وروى الصيمري عن سفيان بن عيينة قال: كان أبو حنيفة كثير الصدقة وكان كل مال يستفيده لا يدع منه شيئاً إلا أخرجه ولقد وجه إلي هدايا استوحشت من كثرتها فشكوت ذلك إلى بعض أصحابه فقال: لو رأيت هدايا بعث بها إلى سعيد بن أبي عروبة، وما كان يدع أحداً من المحدثين إلا بره براً واسعاً، وروى أيضاً عن مسعر قال: كان أبو حنيفة إذا اشترى لعياله أشياء أنفق على شيوخ العلماء مثل ما أنفق على عياله وإذا اكتسى ثوباً فعل ذلك وإذا جاءت الفاكهة والرطب وكل شيء يريد أن يشتريه لنفسه وعياله لا يفعل ذلك حتى يشتري لشيوخ العلماء مثله ويشتري بعد ذلك لعياله، وروى أيضاً عن أبي يوسف قال: كان أبو حنيفة شديد البر لكل من عرف وكان يهب

للرجل خمسين ديناراً أو أكثر فإذا شكره بحضرة قومه غمه ذلك وقال: أشكر الله تعالى فإنما هو رزق ساقه الله تعالى إليك.

وروى الحارثي عن أبي يوسف قال: ما رأيت أجود من أبي حنيفة فكنت أقول: ما رأيت أجود منك فيقول: كيف لو رأيت حماداً، قال: وكان أبو حنيفة يعولني وعيالي عشر سنين وما رأيت أحداً أجمع للخصال المحمودة منه.

وروى الصيمري عن الفضيل بن عياض قال: كان أبو حنيفة معروفاً بكثرة الإفضال وقلة الكلام وإكرام العلم وأهله، وروى أيضاً عن عبد الله بن بكر السهمي قال: خاصمني الجمال في طريق مكة في شيء فجرني إلى أبي حنيفة فسألنا فاختلفنا عليه في السؤال فقال: الاختلاف في كم؟ فقال الجمال: أربعون درهماً فقال أبو حنيفة: ذهبت المروءة من الناس، فاستحييت منه ووزن أبو حنيفة للجمال أربعين درهماً، وروى أيضاً عن يحيى بن خالد قال: حبس إبراهيم بن عيينة بسبب دين لزمه وهو أكثر من أربعة الآف درهم فقام بعض إخوانه يجمع له من الناس وصار إلى أبي حنيفة فقال أبو حنيفة: كم دينه؟ فقال: أكثر من أربعة الآف درهم قال: فهل أخذت من أحد شيئاً قال: نعم، قال: رد ما أخذت وأنا أقضي جميع ما عليه من الدين.

وروى الحارثي عن شقيق بن إبراهيم قال: كنت مع أبي حنيفة في طريق نعود مريضاً فرآه رجل من بعيد فاختبأ منه وأخذ في طريق آخر فصاح به أبو حنيفة: أي فلان عليك بالطريق الذي أنت فيه لا تأخذ في طريق آخر، فلما علم الرجل أن أبا حنيفة بصر به خجل ووقف فقال له أبو حنيفة: لم عدلت عن طريقك الذي كنت عليه قال: لك علي عشرة الآف درهم وقد طال علي الوقت وامتد ولم أقدر أن أؤدي فلما رأيتك استحييت منك فقال أبو حنيفة: سبحان الله بلغ بك الأمر كل هذا حتى إذا رأيتني تواريت عني، قد وهبته منك كله وأشهدت على نفسي فلا تتوارى بعد هذا واجعلني في حل مما دخل

في قلبك مني حين لقيتني، قال شقيق: فعلمت أنه زاهد حقيقي.

وروى أيضاً عن فورك السعدي الكوفي قال: أهديت إلى أبي حنيفة هدايا فكافأني بأضعاف ذلك فقلت له: لو علمت أنك تفعل مثل هذا لم أفعل ما فعلت، قال: لا تفعل مثل هذا فإن الفضل للسابق والبادىء ألم تسمع إلى ما حدثني به الهيثم عن أبي صالح بلغ به النبي ﷺ أنه قال: «من صنع إليكم معروفاً فكافؤه فإن لم تجدوا ما تكافؤه فأثنوا عليه» فقلت: هذا الحديث أحب إلي من جميع ما أملك.

فصل
في مكارم أخلاقه

روى ابن أبي شيبة عن يزيد بن هارون قال: ما رأيت أحلم من أبي حنيفة، وروى أيضاً عن يزيد بن الكميت قال: شهدت أبا حنيفة وشتمه رجل واستطال عليه وقال له: يا زنديق، فقال: أبو حنيفة: غفر الله لك هو يعلم خلاف ما تقول، وروى أيضاً عن يزيد بن هارون قال: كان أبو حنيفة له فضل ودين وورع وحفظ لسان وإقبال على ما يعنيه.

وروى الصيمري عن يزيد بن الكميت: أن رجلاً قال لأبي حنيفة حال المناظرة: يا مبتدع يا زنديق، فقال له أبو حنيفة: غفر الله تعالى لك، الله يعلم مني خلاف ما قلت وهو يعلم أني ما عدلت به أحداً منذ عرفته ولا أرجو إلا عفوه ولا أخاف إلا عقابه ثم بكى عند ذكر العقاب وسقط سريعاً ثم أفاق فقال له الرجل: اجعلني في حل، فقال: كل من قال في شيئاً من أهل الجهل فهو في حل، وكل من قال في من أهل العلم فهو في حرج فإن غيبة العلماء تبقى شيناً بعدهم.

وروى الحارثي عن أبي يحيى الحماني قال: سمعت أبا حنيفة يقول: ما جاريت أحداً بسوء قط ولا لعنت أحداً ولا ظلمت مسلماً ولا معاهداً ولا غششت أحداً ولا خدعته.

وروى القاضي أبو القاسم بن كاس عن يحيى بن عبد الحميد والحُمّاني عن أبيه قال: كنت عند أبي حنيفة فجاءه رجل فقال: سمعت سفيان ينال منك ويتكلم فيك، فقال: غفر الله لنا ولسفيان لو أن سفيان فقد في زمن النخعي لوَجِلَ على المسلمين فقده.

وروى الحارثي قال: قال أبو حنيفة ما صليت منذ مات حماد بن أبي سليمان صلاة إلا استغفرت له مع والدي وإني لأستغفر لمن تعلمت منه أو تعلم مني، وقال: ما مددت رجلي نحو دار أستاذي حماد بن أبي سليمان إجلالاً له وكان بين داره وداري سبع سكك.

وروى الحارثي عن أبي معاذ قال: كان أبو حنيفة يعرف اختلافي إلى سفيان الثوري وكان بينهما ما يكون من الأقران ولا يمنعه ذلك من تقريبي وقضاء حوائجي وكان حليماً ورعاً وقوراً قد جمع الله تعالى فيه خصالاً شريفة، وروى أيضاً عن عصام بن يوسف أن رجلاً قام في ناحية المسجد فجعل يسب أبا حنيفة ويشتمه فما قطع أبو حنيفة حديثه ولا التفت إليه ولا أجابه ونهى أصحابه عن مخاطبته، فلما فرغ أبو حنيفة من درسه وقام تبعه ذلك الرجل، فلما وصل أبو حنيفة إلى باب داره قام على بابه واستقبل الرجل بوجهه وقال: هذه داري فإن كنت تستتم باقي كلامك حتى لا يبقى معك شيء مما عندك لا تخاف الفوت فافعل فاستحى الرجل.

وفي بعض المناقب كان له جار يهودي وكانت قصبة خلائه تنضح على بيت أبي حنيفة فمكث عشر سنين وهو يكنس كل يوم ما نزل في داره منها ويرميه على المزبلة ولم يعلم اليهودي قط، فبلغ ذلك اليهودي فبكى ثم جاء وأسلم.

وروى الخطيب عن عبد الله بن رجاء قال: كان لأبي حنيفة جار بالكوفة أسكاف يعمل نهاره أجمع وكان يشرب في الحانة ثم يرجع بالليل يتغنى:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

كأني لم أكن فيهم وسيطا ... ولم يك نسبتي في آل عمرو
أحرر في المجامع كل يوم ... فيالله مظلمتي وصبري

وكان أبو حنيفة يصلي الليل كله فيسمع صوته ففقده ليلة أو ليلتين فسأل عنه فقيل: أخذه العسس، فلما صلى أبو حنيفة صلاة الصبح أمر بشد بغلته وركب حتى أتى دار الوالي فأخبر به فأمر بدخوله راكباً إلى مكان جلوسه، فلما دخل عليه تلقاه وأكرمه وقال: أنا كنت أحق بالمجيء إليك هلا أرسلت إلي فآتيك فقال: إن جاراً لي أخذه العسس منذ ليال يأمر الأمير بإطلاقه قال: نعم وكل من مسك تلك الليلة إلى هذا الحين فأمر الأمير بإطلاقهم فركب أبو حنيفة راجعاً والأسكاف يمشي وراءه فقال: يا فتى أضعناك؟ قال: لا بل حفظت ورعيت فجزاك الله خيراً عن حرمة الجوار ورعاية الحق، وتاب الرجل ولم يعد إلى ما كان عليه ولازم مجلس أبي حنيفة فصار من الفقهاء.

فصل
في كلام الناس في أبي حنيفة

قد أكثر الناس من الوقوع فيه ونسبوه للرأي والقياس ورموه بعظائم الأمور حتى قال الحافظ عبد العزيز بن أبي داود: من أحب أبا حنيفة فهو سني ومن أبغضه فهو مبتدع، وفي رواية: بيننا وبين الناس أبو حنيفة فمن أحبه وتولاه علمنا أنه من أهل السنة ومن أبغضه علمنا أنه من أهل البدعة.

قال الإمام الحافظ الناقد ابن عبد البر: أفرط أصحاب الحديث في ذم أبي حنيفة وتجاوزوا الحد في ذلك، والسبب الموجب لذلك عندهم إدخاله الرأي والقياس على الآثار واعتبارها وأكثر أهل العلم يقولون: إذا صح الأثر بطل القياس والنظر، قال: وكان أبو حنيفة يُحسد ويُنسب إليه ما ليس فيه ويختلق عليه ما لا يليق به.

ونقل أبو بكر الآجرى عن بعضهم أنه سئل عن مذهب الإمام

أبي حنيفة فقال: لا رأي ولا حديث، وسئل عن مالك فقال: رأي ضعيف وحديث صحيح، وسئل عن الإمام الشافعي فقال: رأي صحيح وحديث صحيح.

إذا علمت هذا فاعلم أن جميع ما تكلموه في الإمام أبي حنيفة فهو إما محض تعصب كما مر أو مجاب عنه كما ستراه إن شاء الله تعالى.

قال العلامة الفقيه حافظ المغرب ابن عبد البر رحمه الله تعالى: كان أبو حنيفة في الفقه إماماً حسن الرأي والقياس لطيف الاستخراج جيد الذهن حاضر الفهم ذكياً ورعاً عاقلاً إلا أنه كان مذهبه في أخبار الآحاد العدول أن لا يقبل منها ما خالف الأصول المجمع عليها، فأنكر عليه أهل الحديث ذلك ورموه وأفرطوا فيه وحسده من أهل وقته من بغى عليه واستحل الغيبة فيه، وعظمه آخرون ورفعوا ذكره واتخذوه إماماً وأفرطوا أيضاً في مدحه، وألف الناس في فضائله وفي مثالبه والطعن عليه.

وروى الحارثي قال: كان عبد الله بن المبارك جالساً يحدث الناس فقال حدثنا النعمان بن ثابت فقال بعضهم: من يعني أبو عبد الرحمن، فقال: أعني أبا حنيفة مخ العلم، فأمسك بعضهم عن الكتابة فسكت ابن المبارك هنيهة ثم قال: أيها الناس ما أسوأ أدبكم وما أجهلكم بالأئمة وما أقل معرفتكم بالعلم وأهله، ليس أحد أحق أن يبتدأ به من أبي حنيفة لأنه كان إماماً تقياً نقياً ورعاً عالماً فقيهاً كشف العلم كشفاً لم يكشفه أحد ببصر وفهم وفطنة وتقى ثم حلف أن لا يحدثهم شهراً.

وروى الصيمري عن تميم بن عطية قال: كنت [عند] يزيد بن هارون فذكر أبو حنيفة فنال منه إنسان فأطرق طويلاً فقالوا: رحمك الله حدثنا فقال: كان أبو حنيفة تقياً نقياً زاهداً عالماً صدوق اللسان أحفظ أهل زمانه سمعت كل من أدركته من أهل زمانه يقول أنه ما رأى أفقه منه.

وروى الخطيب عن ابن المبارك قال: قدمت الشام على الأوزاعي فرأيته ببيروت فقال: يا خراساني من هذا المبتدع الذي خرج بالكوفة يكنى أبي حنيفة فرجعت إلى بيتي فأقبلت على كتب أبا حنيفة فأخذت منها مسائل من جياد المسائل وبقيت في ذلك ثلاثة أيام فجئته في اليوم الثالث وهو مؤذن مسجدهم وإمامهم والكتاب في يدي فقال: أي شيء هذا الكتاب فنظر في مسألة منها وقفت عليها قال النعمان بن ثابت فما زال قائماً بعد أن أذن حتى قرأ صدر الكتاب حتى أتى عليها فقال: يا خراساني من النعمان بن ثابت هذا؟ قلت: شيخ لقيته بالعراق فقال: هذا نبيل من المشايخ اذهب فاستكثر منه قلت: هذا أبو حنيفة الذي نهيت عنه.

وروى هذه القصة ابن أبي حاتم الجرجاني عن ابن المبارك وزاد في آخره: ثم التقى أبو حنيفة والأوزاعي بمكة وكان بينهما اجتماع فرأيته يجاري أبا حنيفة في المسائل التي كانت في الرقعة فرأيت أبا حنيفة يكشف له تلك المسائل بأكثر مما كتبت عنه فلما افترقا لقيت الأوزاعي بعد ذلك فقال: غبطت الرجل بكثرة علمه ووفور عقله وأستغفر الله لقد كنت في غلط ظاهر، إلزم الرجل فإنه بخلاف ما بلغني عنه.

وقال أبو مطيع: كنت يوماً عند الإمام أبي حنيفة في جامع الكوفة فدخل عليه سفيان الثوري ومقاتل بن حيان وحماد بن سلمة وجعفر الصادق وغيرهم من الفقهاء فكلموا الإمام أبا حنيفة وقالوا: قد بلغنا أنك تكثر من القياس في الدين وإنا نخاف عليك منه فإنه أول من قاس إبليس فناظرهم الإمام من بكرة نهار الجمعة إلى الزوال وعرض عليهم مذهبه وقال: إني أقدم العمل بالكتاب ثم بالسنة ثم بأقضية الصحابة مقدماً ما اتفقوا عليه على ما اختلفوا فيه وحينئذٍ أقيس فقاموا كلهم وقبلوا يده وركبته وقالوا له: أنت سيد العلماء فاعف عنا فيما مضى منا من وقيعتنا فيك بغير علم، فقال: غفر الله لنا ولكم أجمعين.

قال أبو مطيع: ومما كان وقع فيه سفيان أنه قال: قد حل أبو حنيفة عرى الإسلام عروة عروة، فالغافل الناقص من حفظ النقائص وغفل عن مثل هذا فلم يشعر برجوع من رجع بعد ما وقع.

وإنما قلنا هذا لما عرفت ولما ورد من تعظيم الأئمة المجتهدين لأبي حنيفة كمالك والشافعي وأحمد وسفيان وغيرهم، مع أن كلام الأئمة إذا تكلموا بما ظاهره الوقوع يمكن تأويله أو حمله على غير المتبادر إجلالاً لمقامهم فيحتمل قول سفيان من أن أبا حنيفة قد حل عرى الإسلام أي مشكله مسألة بعد مسألة حتى لم يبق في الإسلام شيئاً مشكلاً لغزارة علمه وقوة فهمه ويحتمل الافتراء على الأئمة فينقلون عنهم ما لم يقع منهم، مثل ما يحكى من وقيعة الإمام مالك في أبي حنيفة من طريق الوليد بن مسلم من قوله: قال لي مالك بن أنس رحمه الله: أيذكر أبو حنيفة في بلادكم؟ قلت: نعم، فقال: ما ينبغي لبلادكم أن تسكن، فقال الحافظ المزني: إن الوليد هذا ضعيف. انتهى.

وبتقدير ثبوت ذلك عن الإمام مالك فهو مؤول أي إن كان الإمام أبو حنيفة في بلادكم يذكر أي على وجه الانقياد له والاتباع لأقواله فلا ينبغي لعالم أن يسكنها لاكتفاء بلادكم بعلم أبي حنيفة واستغناء الناس بسؤاله في جميع أمور دينهم عن سؤال غيرهم فإذا سكن أحد من العلماء في بلاده صار علمه معطلاً عن التعليم فينبغي له الخروج إلى بلاد أخرى لينفع أهلها، وأيضاً فغاية كلامهم في أبي حنيفة نسبتهم إياه للرأي والقياس ولا خصوصية له في ذلك.

فقد نقل ابن عبد البر عن سلمة بن شبيب قال: سمعت الإمام أحمد بن حنبل يقول: رأي الأوزاعي ورأي مالك ورأي أبي حنيفة ورأي سفيان كله رأي وإنما الحجة في الآثار. انتهى.

فحيث تساووا في الرأي فهلّا تكلموا في البقية كما تكلموا في أبي حنيفة، فما بال كثير من المتحاملين أفرطوا في أبي حنيفة وصنفوا

في ذلك كتباً والإنصاف يقضي أن يتكلم في غيره ممن قال بالرأي كما تكلم فيه.

قال نصر بن يحيى البلخي: قلت لأحمد بن حنبل: ما الذي نقمتم على هذا الرجل؟ - يعني أبا حنيفة - قال: الرأي، قلت: فهذا مالك ألم يتكلم بالرأي، قال: بلى ولكن رأي أبي حنيفة خلد في الكتب، قلت: فقد خلد رأي مالك في الكتب، قال: أبو حنيفة أكثر رأياً منه، قلت: فهلا تكلمتم في هذا بحصته وهذا بحصته، فسكت. انتهى.

وروى الخطيب عن الإمام وكيع بن الجراح قال: دخلت على أبي حنيفة فرأيته مطرقاً مفكراً فقال لي: من أين أقبلت؟ قلت: من عند شريك فرفع رأسه وأنشأ يقول:

إن يحسدوني فإني غير لائمهم قبلي من الناس أهل الفضل قد حسدوا
فدام لي ولهم ما بي وما بهم ومات أكثرنا غيظاً بما يجد

قال وكيع: وأظنه كان بلغه عنه شيء. انتهى.

وبالجملة: -

فقد قال ابن عبد البر: الذين رووا عن أبي حنيفة ووثقوه وأثنوا عليه أكثر من الذين تكلموا فيه، والذين تكلموا فيه من أهل الحديث أكثر ما عابوا عليه الإغراق في الرأي والقياس، وقد جاء عن الصحابة - رضي الله عنهم - من اجتهاد الرأي والقول بالقياس على الأصول عند عدمها [ما] يطول ذكره.

ثم قال: وَمِمَّنْ حفظ عنه أنه قال وأفتى بجهد رأيه وقاس على الأصول مما لم يجد فيه نصاً من التابعين.

[فمن أهل المدينة]

سعيد بن المسيب وأبو سلمة بن عبد الرحمن وخارجة بن زيد

وأبو بكر بن عبد الرحمن وعروة بن الزبير وأبان بن عثمان وابن شهاب وأبو الزناد وربيعة بن أبي عبد الرحمن ومالك بن أنس وأصحابه وعبد العزيز بن أبي سلمة وابن أبي ذئب وأصحاب مالك المدنيون وابن دينار والمغيرة المخزومي وابن أبي حازم وعثمان بن كنانة ومحمد بن صدقة الفدكي ومطرف وابن الماجشون وأمامة بن زيد.

[ومن أهل مكة واليمن]

عطاء ومجاهد وطاووس وعكرمة وعمرو بن دينار وابن جريج ويحيى ابن أبي كثير ومعمر بن راشد وسعيد بن سالم وابن عيينة ومسلم بن خالد والشافعي.

[ومن أهل الكوفة]

علقمة والأسود وعبيدة وشريح القاضي ومسروق والشعبي وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير والحكم بن عيينة وحماد بن أبي سليمان وأبو حنيفة وأصحابه والثوري والحسن بن صالح وابن المبارك وسائر فقهاء الكوفيين.

[ومن أهل البصرة]

الحسن وابن سيرين وجابر بن زيد وعثمان البَتّي وعبيد الله بن الحسن وسوار القاضي.

[ومن أهل الشام]

مكحول وسليمان بن موسى والأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز ويزيد بن جابر.

[ومن أهل مصر]

يزيد بن أبي حبيب وعمرو بن الحارث والليث بن سعد

وعبد الله بن وهب ثم سائر أصحاب مالك وأشهب وابن عبد الحكم وأصحاب الشافعي والمزني والبويطي وحرملة.

[ومن أهل بغداد وغيرهم من الفقهاء]

أبو ثور وإسحاق بن راهويه وأبو عبيد القاسم بن سلام وأبو جعفر محمد بن جرير الطبري. انتهى كلام ابن عبد البر.

إذا تأملت هذا وفقك الله تعالىٰ: -

تحققت أن الإمام أبا حنيفة لم ينفرد بالقول بالقياس على الأصول، بل على ذلك عمل فقهاء الأمصار كما مر فسقط قول من عاب الإمام أبا حنيفة بذلك جموداً منه وتعصباً، على أن جميع المجتهدين قاسوا ولم يزل مقلدوهم يقيسون إلى وقتنا هذا في كل مسألة لا يجدون فيها نصاً من كتاب ولا سنة من غير نكير بينهم بل جعلوا القياس أحد الأدلة الأربعة فقالوا: الكتاب والسنة والاجماع والقياس.

وقد كان الإمام الشافعي - رضي الله عنه - يقول: إذا لم نجد للمسألة دليلاً قسناها على الأصول، على أن جماعة من العلماء المحققين قالوا: إن القياس الصحيح على الأصول الصحيحة أقوى من خبر الآحاد الصحيح فكيف بخبر الآحاد الضعيف، وقد كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إذا أفتى الناس يقول: هذا رأي عمر فإن كان صواباً فمن الله وإن كان خطأ فمن عمر

فصل
في تبري أبي حنيفة من القياس والرأي

روى أبو جعفر الشبراماري بسنده المتصل إلى الإمام أبي حنيفة أنه قال: كذب والله وافترى علينا من يقول عنا أننا نقدم القياس على النص، وهل يحتاج بعد النص إلى قياس.

ونقل الثقاة أن أبا جعفر المنصور كتب إلى الإمام أبي حنيفة: بلغني أنك تقدم القياس على الحديث، فقال: ليس الأمر كما بلغك يا أمير المؤمنين إنما أعمل أولاً بكتاب الله ثم بسنة رسول الله ثم بأقضية الصحابة ثم أقيس بعد ذلك إذا اختلفوا وليس بين يدي الله تعالى وبين خلقه قرابة.

وكان ـ رضي الله عنه ـ يقول: نحن لا نقيس إلا بعد الضرورة الشديدة وذلك أننا ننظر أولاً في دليل تلك المسألة من الكتاب والسنة وأقضية الصحابة فإن لم نجد دليلاً قسنا حينئذٍ مسكوتاً عنه على منطوق بجامع اتحاد العلة بينهما، وفي رواية أخرى: إنا نعمل أولاً بكتاب الله ثم بسنة رسول الله ثم بأحاديث أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ـ رضي الله عنهم ـ، وفي رواية أخرى أنه قال: ما جاء عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين بأبي هو وأمي وليس لنا مخالفته وما جاء عن أصحابه تخيرنا وما جاء عن غيرهم فهم رجال ونحن رجال.

وقال نعيم بن حماد: سمعت عبد الله بن المبارك يقول: قال أبو حنيفة ـ رضي الله عنه ـ: إذا جاء الحديث عن النبي ﷺ فعلى الرأس والعين وإن كان عن أصحاب النبي ﷺ أخذنا من قولهم ولم نخرج عن قولهم وإن كان عن التابعين فنحن رجال وهم رجال.

وروى الخطيب عن الحسن بن زياد قال: قال الإمام أبو حنيفة: رأينا هذا أحسن ما قدرنا عليه فمن جاء بأحسن من قولنا فهو أولى بالصواب منا. وأنشد غسان بن محمد التّميمي: ـ

وضع القياس أبو حنيفة كله ... فأتى بأوضح حجة وقياس
وبنى على الآثار رأس بنائه ... فأتت غوامضه على الأساس
والناس يتبعون فيها قوله ... لما استبان ضياؤه للناس

وكان ـ رحمه الله ـ يحث على اتباع الآثار والتمسك بالكتاب والسنة.

روى الشيخ محي الدين في الفتوحات المكية بسنده إلى الإمام أبي حنيفة أنه كان يقول: إياكم والقول في دين الله بالرأي وعليكم باتباع السنة فمن خرج عنها ضل، وكان يقول: إياكم وآراء الرجال، وكان يقول: عليكم بآثار من سلف وإياكم ورأي الرجال وإن زخرفوه بالقول فإن الأمر ينجلي حين ينجلي وأنتم على صراط مستقيم وإياكم والبدع والتبدع وعليكم بالأمر الأول العتيق.

ودخل عليه مرة رجل من أهل الكوفة والحديث يقرأ عنده فقال الرجل: دعونا من هذه الأحاديث، فزجره الإمام أشد الزجر وقال: لولا السنة ما فهم أحد منا القرآن، ثم قال للرجل: ما تقول في لحم القرد؟ وأين دليلُه من القرآن؟ فأفحم الرجل، فقال للإمام: فما تقول أنت فيه؟ فقال: ليس هو من بهيمة الأنعام.

ودخل شخص الكوفة بكتاب دانيال فكاد أبو حنيفة أن يقتله وقال: أكتاب ثَمَّ غير القرآن والحديث.

وقيل له مرة: ما تقول فيما أحدثه الناس من الكلام في العرض والجوهر والجسم فقال: هذه مقالات الفلاسفة فعليكم بالآثار وطريق السلف وإياكم وكل محدث فإنه بدعة.

وكان يقول: قاتل الله عمرو بن عبيد فإنه فتح للناس باب الخوض في الكلام فيما لا يعنيهم.

وكان يقول: عجبت لقوم يقولون بالظن ويعملون بالظن والله تعالى لم يرض لنبيه ذلك فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

وكان يقول لأصحابه: إن لم تريدوا بهذا العلم الخير لم توفقوا، ومن تعلم العلم للدنيا حرم بركته، ولم ينتفع به كثير أحد، ومن تعلمه للدين بورك له فيه ورسخ في قلبه، وانتفع المقتبسون منه لعلمه.

وقال لإبراهيم بن أدهم: إنك رزقت من العبادة شيئاً صالحاً

فليكن العلم من بالك، فإنه رأس العبادة وبه قوام الأمور.

وكان يقول: إن لم تكن العلماء أولياء الله في الدنيا والآخرة فليس لله ولي.

فصل
في كون أبي حنيفة من كبار المحدثين

إعلم وفقك الله تعالى أن الإمام أبا حنيفة من كبار حفاظ الحديث لا كما زعم بعض من يحسده وليس كما زعم، فقد تقدم أنه أخذ عن أربعة آلاف شيخ من أئمة التابعين وغيرهم ولولا كثرة اعتنائه بالحديث ما تهيأ له استنباط مسائل الفقه فإنه أول من استنبطه من الأدلة، وقد شهد له الأئمة كابن معين وابن المديني والأعمش ويزيد بن هارون بالحفظ ومعرفة الحديث والوثوق به كما مر في ثناء الأئمة عليه.

قيل ليحيى بن معين: يا أبا زكريا أبو حنيفة كان يصدق في الحديث؟ قال: نعم صدوقاً قد حدث عنه قوم صالحون.

وقال علي بن المديني: أبو حنيفة روى عنه الثوري وابن المبارك وحماد بن زيد وهشيم ووكيع بن الجراح وعباد بن العوام وجعفر بن عون وهو ثقة لا بأس به.

وقد مر في ذكر الآخذين عنه أن من جملتهم الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة فقد ذكر أبو المؤيد الخوارزمي أنه روى عن الإمام أبي حنيفة وروى الإمام أبو حنيفة عنه.

وروى أبو عبد الله الصيمري عن عبد الله بن عمر قال: كنا جلوساً عند الأعمش فسئل عن مسائل فقال لأبي حنيفة: ما تقول فيها؟ قال: كذا وكذا فقال: من أين لك هذا؟ قال: أنت حدثتنا عن أبي صالح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ بكذا وحدثتنا عن فلان الصحابي بكذا، وسرد عدة أحاديث على هذا النمط، فقال الأعمش:

حسبك ما حدثتك به في مائة يوم تحدثني به في ساعة واحدة، ما علمت أنك تعلم بهذه الأحاديث، يا معشر الفقهاء أنتم الأطباء ونحن الصيادلة وأنت أيها الرجل أخذت بكلا الطرفين.

وقال أبو رجاء الهروي: سمعت أبا حنيفة يقول: مثل الذي يطلب الحديث ولا يتفقه مثل الصيدلاني يجمع الأدوية ولا يدري لأي دواء هو حتى يجيء الطبيب، هكذا طالب الحديث لا يعرف وجه حديثه حتى يجيء الفقيه.

وروى الخطيب عن إسرائيل بن يونس قال: نعم الرجل النعمان ما كان أحفظه لكل حديث فيه فقه وأشد فحصه عنه وأعلمه بما فيه من الفقه، وروى أيضاً عن أبي يوسف قال: ما رأيت أحداً أعلم بتفسير الحديث ومواضع النكت التي فيه من الفقه من أبي حنيفة.

وقال أبو يوسف: كان أبو حنيفة أبصر بالحديث مني، وأنكر ابن المبارك على من قال إنه ليس يعرف الحديث، وكان رحمه الله تعالى بصيراً بعلل الأحاديث والتعديل والتجريح، مقبول القول في ذلك.

روى الترمذي في كتاب العلل من جامعه عن الحماني قال: سمعت أبا حنيفة يقول: ما رأيت أكذب من جابر الجعفي ولا أفضل من عطاء بن أبي رباح.

وروى البيهقي في المدخل عن عبد الحميد قال: سمعت أبا سعد الصنعاني يقول للإمام أبي حنيفة: ما تقول في الأخذ عن الثوري؟ قال: أكتب عنه فإنه ثقة ما خلا أحاديث أبي إسحاق عن الحارث وأحاديث جابر الجعفي.

وروى الخطيب عن سفيان بن عيينة قال: أول من أقعدني للحديث أبو حنيفة، قدمت الكوفة فقال أبو حنيفة: إن هذا أعلم الناس بحديث عمرو بن دينار فاجتمعوا علي فحدثتهم فناهيك بمن يستؤمر في الثوري ويجلس ابن عيينة.

وقد كان ـ رضي الله عنه ـ لا يروي حديثاً إلا عن خيار التابعين العدول الثقات الذين هم من خير القرون بشهادة رسول الله ﷺ كالأسود وعلقمة وعطاء وعكرمة ومجاهد ومكحول والحسن البصري وأضرابهم فكل الرواة الذين بينه وبين رسول الله ﷺ عدول ثقات أعلام ليس فيهم كذاب ولا متهم بكذب فلذلك كان رضي الله عنه من أجلّ الأئمة وأقدمهم تدويناً للفقه وأقربهم سنداً لرسول الله ﷺ ومشاهداً لفعل أكابر أئمة التابعين وعدم ظهور حديثه في الخارج كغيره من الأئمة لا يدل على عدم اعتنائه بالحديث ومعرفته به كما زعمه من يحسده وإنما قلت الرواية عنه وإن كان متسع الحفظ لأمرين:

أحدهما: ـ

اشتغاله عن الرواية باستنباط المسائل من الأدلة كما كان أجلّاء الصحابة كأبي بكر وعمر وغيرهما يشتغلون بالعمل عن الرواية حتى قلت روايتهم مع كثرة اطلاعهم وكثرة رواية من دونهم بالنسبة إليهم، وهذا الإمام مالك والإمام الشافعي لم يرويا إلا القليل بالنسبة إلى ما سمعناه، كل ذلك لاشتغالهما باستخراج المسائل من الأدلة.

وقد قال الحافظ ابن عبد البر: الذي عليه جماعة فقهاء المسلمين وعلمائهم ذم الإكثار من الحديث دون تفقه ولا تدبر.

وقال ابن شبرمة: أقلل الرواية تفقه.

وقال فارس بن الحسن:

يا طالب العلم الذي ذهبت بمدته الرواية
كن في الرواية ذا عناء بالرواية والدراية
واروِ القليل وراعه فالعلم ليس له نهاية

وقال ابن المبارك: ليكن الذي تعتمد عليه الأثر، وخذ من الرأي ما يفسر لك الحديث.

الثاني: -

أنه إنما قلت الرواية عن أبي حنيفة لأنه كان لا يرى الرواية إلا لمن يحفظ.

روى الطحاوي عن أبي يوسف قال: قال أبو حنيفة: لا ينبغي للرجل أن يحدث من الحديث إلا بما يحفظه من يوم سمعه إلى يوم يحدث به.

ومع هذا كله فقد أخرج له الحفاظ عدة أحاديث يعرفها من له خبرة بفن الحديث.

وقد وقفت بحمد الله على جملة منها بأسانيدها المتصلة إليه، وها أنا أذكر بعضها محذوفة الأسانيد خشية التطويل.

* روى الإمام أبو حنيفة عن يحيى بن سعيد عن محمد بن إبراهيم عن علقمة بن وقاص الليثي عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىءٍ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

* وروى أبو حنيفة عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس».

* وروى أبو حنيفة قال: أخبرنا عطاء بن السائب عن أبي مسلم الأغر عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار».

* وروى أبو حنيفة عن عبد الله بن علي بن أبي الجعد عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزيد في العمر إلا البِرُّ ولا يرد القدر إلا الدعاء، وأن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه».

* وروى أبو حنيفة عن الحسن بن عبد الله عن الشعبي عن النعمان بن بشير عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن في الإنسان مضغة إذا صلحت صلح بها سائر الجسد وإذا سقمت سقم بها سائر الجسد ألا وهي القلب».

* وروى أبو حنيفة عن أبي غسان الهيثم عن الحسن عن أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال: «الإمارة أمانة وهي يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه وَأَنَّىٰ له بذلك يا أبا ذر».

* وروى أبو حنيفة عن محمد بن عبد الرحمن عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قال سبحان الله عدد ما خلق، سبحان الله عدد ما في السماء والأرض، سبحان الله عدد ما أحصى كتابه، سبحان الله عدد كل شيء، سبحان الله ملء كل شيء، والحمد الله مثل ذلك، حين يصبح، لم يسبقه أحد بفضل عمل إلا من قال مثل قوله أو أكثر، فإن قال ذلك مساءً كان كذلك».

* وروى أبو حنيفة عن زياد بن عُلَاقة عن أسامة بن شريك قال: «شهدت رسول الله ﷺ، والأعراب يسألونه ما خير ما أعطي العبد قال: خلق حسن».

* وروى أبو حنيفة عن زياد أيضاً عن جرير البجلي قال: «بايعت رسول الله ﷺ، على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم».

* وروى أبو حنيفة عن عبد الله بن أبي حبيبة قال: سمعت أبا الدرداء يقول: «بينا أنا رديف رسول الله ﷺ فقال: يا أبا الدرداء من شهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وجبت له الجنة، قلت: وإن زنى وإن سرق، فسكت عني ساعة ثم سار ساعة، فقال: من شهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وجبت له الجنة، قال، قلت: وإن زنى وإن سرق، قال: فسكت عني ساعة ثم سار ساعة فقال: من شهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وجبت له الجنة، قال قلت: وإن زنى

وإن سرق، قال: وإن زنى وإن سرق وإن رغم أنف أبي الدرداء، قال: وكأني أنظر إلى أصبع أبي الدرداء يومىء بها إلى أرنبته».

* وروى أبو حنيفة عن حماد عن ربعي بن حراش عن حذيفة أن رسول الله ﷺ قال: «يخرج الله قوماً من الموحدين من النار بعدما امتحشوا فصاروا فحماً فيدخلهم الله تعالى الجنة فيستغيثون إلى الله تعالى مما يسميهم أهل الجنة الجَهَنَّمِيُّون فيُذهب الله تعالى عنهم ذلك».

* وروى أبو حنيفة عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «القدرية مجوس هذه الأمة».

* وروى أبو حنيفة عن يعلى بن عطاء عن عمارة بن جوين عن صخر العامري أن النبي ﷺ قال: «اللهم بارك لأمتي في بكورها».

* وروى أبو حنيفة عن الهيثم عن الحسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات يوم الجمعة وُقِيَ عذاب القبر».

* وروى أبو حنيفة عن يزيد بن عبد الرحمن عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «تكون النطفة أربعين ليلة ثم تكون مضغة أربعين ليلة، ثم ينشئه الله تعالى خلقاً فيقول الملك: أي رب أذكر أم أنثى أسعيد أم شقي ما أجله ما رزقه وما أثره فيكتب [الملك] ما يريده الله تعالى به، فالسعيد من وعظ بغيره والشقي من شقي في بطن أمه».

* وروى أبو حنيفة عن عبد العزيز بن رفيع عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من نفس إلا وقد كتب الله مخرجها ومدخلها وما هي لاقيه، فقال رجل من الأنصار: ففيم العمل يا رسول الله؟ قال: اعملوا كُلٌّ ميسر لما خلق له، أما أهل الشقاء فييسروا لعمل أهل الشقاء وأما أهل السعادة فييسروا لعمل أهل السعادة فقال الأنصاري: الآن حق العمل».

* وروى أبو حنيفة عن عبد الملك عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ، في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾. «قال: عن قول لا إله إلا الله».

* وروى أبو حنيفة عن يحيى بن عبد الحميد عن ابن عباس قال: إن رسول الله ﷺ: «سئل عن أولاد المشركين فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين».

* وروى أبو حنيفة عن علقمة بن مرثد عن أبي بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مرض العبد وهو على طائفة من الخير قال الله تعالى لملائكته: أكتبوا لعبدي مثل أجر ما كان يعمل وهو صحيح من أجر البلاء».

* وروى أبو حنيفة عن علقمة بن مرثد عن رجل عن سعد بن عبادة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وضع المؤمن في قبره أتاه الملك فأجلسه فقال: من ربك؟ قال: الله تعالى، قال: ومن نبيك؟ قال: محمد ﷺ قال: وما دينك؟ قال: الإسلام، قال: فيفسح له في قبره ويرى مقعده من الجنة، فإذا كان كافراً ـ نسأل الله العافية ـ أجلسه الملك فقال: من ربك؟ قال: هاه، كالمضل شيئاً، فيقول: من نبيك؟ فيقول: هاه، كالمضل شيئاً فقال: ما دينك؟ فيقول: هاه كالمضل شيئاً، فيضيق عليه قبره ويرى مقعده من النار فيضربه ضربة يسمعه كل شيء إلا الثقلين الجن والأنس، ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾.

* وروى أبو حنيفة قال: أخبرنا زياد بن علاقة عن يزيد بن الحارث عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «فناء أمتي بالطعن والطاعون، قيل يا رسول الله: الطعن قد عرفناه، فما الطاعون؟ قال: وخز أعدائكم من الجن وفي كل شهادة».

* وروى أبو حنيفة عن منصور عن إبراهيم عن مسروق عن

عائشة قالت: «لقد كان رسول الله ﷺ، إذا أتى المريض يدعو له أذهب البأس رب الناس إشف أنت الشافي، إشفي أنت الكافي، لا شفاء إلا شفاءك، شفاء لا يغادر سقماً».

* وروى أبو حنيفة عن عبد الملك بن عمير عن عمرو الحرسي عن سعيد بن زيد ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «من المن الكمأة، وماؤها شفاء للعين».

* وروى أبو حنيفة عن إبراهيم بن محمد عن أبيه عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: «ما أخرج رسول الله ﷺ، ركبتيه بين يدي جليس له قط ولا ناول أحداً يده قط فتركها حتى يكون هو الذي يدعها، وما جلس إلى رسول الله ﷺ، أحد قط فقام رسول الله ﷺ حتى يقوم. وما وجدت شيئاً قط أطيب من ريح رسول الله ﷺ».

* وروى أبو حنيفة عن سماك بن حرب عن جابر بن سمرة ـ رضي الله عنهما ـ قال: «كنا إذا أتينا رسول الله ﷺ، قعدنا حيث انتهى بنا المجلس».

* وروى أبو حنيفة عن عطاء بن أبي رباح عن حمران مولى عثمان «إن عثمان توضأ ثلاثاً ثلاثاً وقال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ».

* وروى أبو حنيفة عن حماد عن الشعبي عن المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ قال: «وضأت رسول الله ﷺ، وعليه جبة شامية ضيقة الكمين فأخرج يديه من جنبها فتوضأ ومسح على خفيه».

* وروى أبو حنيفة عن حماد عن إبراهيم عن أبي عبد الله الجدلي عن خزيمة بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «في المسح على الخفين للمقيم يوم وليلة وللمسافر ثلاثة أيام ولياليهن».

* وروى أبو حنيفة عن حماد عن إبراهيم عن عبيد الله بن نضلة

عن أبي ذر - رضي الله عنه - أنه صَلّى صلاةً فخففها وأكثر الركوع والسجود فلما انصرف قال له رجل: أنت صاحب رسول الله ﷺ وتصلي هذه الصلاة؟ فقال أبو ذر: ألم أتم الركوع والسجود؟ قال: بلى، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سجد سجدة رفعه الله بها درجة في الجنة» فأحببت أن ترفع لي درجات أو تكتب لي درجات.

* وروى أبو حنيفة عن إسماعيل عن رافع بن خديج - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «يا معشر التجار ثلاث مرات إنكم مبتعثون يوم القيامة فُجّاراً إلا من بر وصدق».

فهذه نبذة يسيرة من بعض الأحاديث التي رواها هذا الإمام أخرجها عنه الحفاظ الثقاة وروى أيضاً عنه عدة أحاديث رواها عن الصحابة بغير واسطة وقد وقفت عليها فلم أرها ثبتت بطريق صحيح، والصحيح أنه لم يرو عن الصحابة كما أشرنا لذلك أول مناقبه، ولا شك أنه رحمه الله من أكابر حفاظ المجتهدين، وإنما قلت رواية الحديث عنه لاشتغاله بما هو أهم منه وهو الفقه الذي هو ثمرة الحديث.

فصل
في اشتغاله بالفقه وتدوينه له

روى الخطيب عن أبي يوسف والحارثي عن الهيثم بن عدي واللفظ له كلاهما عن الإمام أبي حنيفة قال: لما أردت تعلم العلم جعلت العلوم كلها نصب عيني فرأيت فناً، فناً، وتفكرت في عاقبته وموقع نفعه فقلت: آخذ في الكلام ثم نظرت فإذا عاقبته ونفعه قليل وإذا كمل الإنسان فيه واحتيج إليه لا يقدر يتكلم جهاراً ورمي بكل سوء ويقال صاحب هوى، ثم رأيت علم الأدب والنحو فإذا عاقبته أن أجلس إلى صبي أعلمه النحو والأدب، ثم رأيت علم الشعر فوجدت عاقبة أمره المدح والهجى وقول الهجو والكذب، ثم فكرت في علم

القرآآت فرأيت عاقبة أمره إذا بلغت الغاية منه واحتيج إلي فيه أن يجتمع إلي أحداث يقرؤن علي، ففكرت في علم الحديث فقلت إذا سمعت الكثير أحتاج إلى عمر طويل حتى يحتاج الناس إلي وإذا احتيج إلي لا يجتمع إلي إلا الأحداث ولعلهم يرمونني بالكذب وسوء الحفظ فيلزمني ذلك إلى يوم القيامة، ثم فكرت في الفقه فرأيته كلما قلبته أو أدرته لم يزدد إلا جلالة ولم أجد فيه عيباً، وأولاً يكون الجلوس مع العلماء والفقهاء والمشايخ والبصراء والتخلق بأخلاقهم، ورأيت أمراً لا يستقيم أداء الفرائض وإقامة الدين والتعبد إلا بمعرفته وطلب الدنيا والآخرة إلا به فاشتغلت به.

وقال رحمه الله من رواية القاضي بن كاس والخطيب: كنت أنظر في الكلام حتى بلغت فيه مبلغاً يشار إلى فيه بالأصابع وكنت أنازع الخوارج والحشوية وكنت أعد الكلام أفضل العلوم فراجعت نفسي وقلت: إن أصحاب رسول الله ﷺ، والتابعين لم يكن فيهم شيء مما نذكره نحن وكانوا عليه أقدر وبه أعرف ولم يخوضوا فيه بل سكتوا عن ذلك ونهوا عنه أشد النهي ورأيت خوضهم في الشرائع وأبواب الفقه فبينما أنا في هذا الأمر وكنا نجلس بالقرب من حلقة حماد بن أبي سليمان فجاءتني امرأة يوماً فقالت لي: رجل له امرأة يطلقها للسنة كيف يصنع؟ فلم أدر ما أقول وسقط في يدي فأمرتها أن تسأل حماداً ثم ترجع فتخبرني فسألت حماداً فقال: يطلقها وهي طاهر من الحيض والجماع طلقة ثم يتركها حتى تحيض حيضتين فإذا اغتسلت فقد حلت للأزواج فرجعت فأخبرتني فقلت: لا حاجة لي في الكلام وأخذت نعلي فجلست إلى حماد فكنت أسمع مسائله فأحفظ قوله ثم يعيدها من الغد فأحفظها ويخطىء أصحابه فصحبته عشر سنين ثم سافر للبصرة فأمرني أن أجلس مكانه ثم قدم فآليت على نفسي أن لا أفارقه حتى يموت فلم أفارقه حتى مات. انتهى ملخصاً.

وفي بعض المناقب كان أبو حنيفة آخذاً من العلوم بأوفر نصيب

وأما الكلام فقد كان يشار إليه فيه بالأصابع، وناهيك به أنه سلم إليه علم النظر والقياس وأصالة الرأي حتى قالوا فيه أبو حنيفة إمام أهل الرأي وأما علم الأدب والنحو فبلغ فيه الغاية ولا التفات إلى ما قاله بعض أعدائه، فقد ذكر الملك المعظم عيسى بن أيوب في الرد عليه من المسائل الفقهية التي بنى أبو حنيفة أقواله فيها على علم العربية ما إن وقفت عليه لرأيت العجب العجاب من تمكنه في هذا العلم وحسن استنباطه وأما الشعر فقد رووا عنه من نظمه أشياء عظيمة النفع.

قال محمد بن الحسن إن أبا حنيفة قال لعيسى بن موسى أمير الكوفة: ـ

كسرة خبز وقعب ماء   وفرد ثوب مع السلامة
خير من العيش في نعيم   يكون من بعده ندامة

ومن كلامه أيضاً: ـ

ومن المروءة للفتى ما عاش دار فاخرة   فاشكره إذا أوتيتها واعمل لدار الآخرة

وأما القراءات: ـ

فقد أفردوا بالتأليف قراءات انفرد بها ورووها عنه بالأسانيد وهي مذكورة مشهورة في كتب التفاسير وغيرها وقد ورد من عدة طرق أن الإمام أبا حنيفة أخذ القراءة عن الإمام عاصم أحد القراء السبعة وقد نسبوا للإمام قراءة لا أصل لها كالقراءة التي جمعها محمد بن جعفر الخزاعي ونقلها عنه أبو القاسم الهذلي ولا يغتر بذكر جماعة من المفسرين لتلك القراءات الشاذة عن الإمام أبي حنيفة كالزمخشري فإنهم قلدوا الخزاعي ولم يقفوا على حقيقة الحال.

قال الإمام أبو العلاء الواسطي: إن الخزاعي وضع كتاباً في الحروف نسبه للإمام أبي حنيفة فأخذت خط الدارقطني وجماعة أن الكتاب موضوع لا أصل له.

قال ابن الجزري: إن الإمام أبا حنيفة لبرىء منها.

وأما تدوينه الفقه: ـ

فهو أول من دونه ورتبه أبواباً ثم تابعه مالك بن أنس في ترتيب الموطأ ولم يسبق أبا حنيفة إلى ذلك أحد لأن الصحابة والتابعين إنما كانوا يعتمدون على قوة حفظهم فلما رأى أبو حنيفة العلم منتشراً خاف عليه فجعله أبواباً مبوبة فبدأ بالطهارة ثم بالصلاة ثم سائر العبادات ثم المعاملات ثم ختم بالمواريث لأنها آخر أحوال الناس وهو أول من وضع كتاب الفرائض وأول من وضع كتاب الشروط.

وروى القاضي بن كاس عن علي بن مسهر قال: سمعت الأعمش يقول: اكتبوا المناسك من أبي حنيفة فإني لا أعلم أحداً أعلم بفرضها ونفلها منه، وقد اتفق له من الأصحاب ما لم يتفق لأحد من بعده من الأئمة.

قال صاحب الفتاوى السراجية: اتفق لأبي حنيفة من الأصحاب ما لم يتفق لغيره وقد وضع مذهبه بشورى ولم [يستبد] بوضع المسائل بنفسه وإنما كان يلقيها على أصحابه مسألة مسألة فيعرف ما كان عندهم ويقول ما عنده ويناظرهم حتى يستقر أحد القولين فيثبته أبو يوسف حتى أثبت الأصول كلها، وقد أدرك بفهمه ما عجزت عنه أصحاب القرائح.

وروى الخطيب عن ابن كرامة قال: كنا عند وكيع بن الجراح يوماً فقال رجل: أخطأ أبو حنيفة فقال وكيع: كيف يقدر أبو حنيفة أن يخطىء ومعه مثل أبي يوسف وزفر ومحمد في قياسهم واجتهادهم ومثل يحيى بن زكريا بن أبي زائدة وحفص بن غياث وحبان ومندل ابني علي في حفظهم الحديث ومعرفتهم ومثل القاسم بن معن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود في معرفته باللغة والعربية وداود الطائي والفضيل بن عياض في زهدهما وورعهما، من كان أصحابه

وجلساؤه هؤلاء لم يكن ليخطىء لأنه إن أخطأ ردوه إلى الحق، ثم قال وكيع: والذي يقول مثل هذا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً.

قال الفرزدق: -

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

وروى الحارثي عن عبد الله بن نمير قال: كان أبو حنيفة إذا جلس جلس حوله أصحابه القاسم بن معن وعافية بن يزيد وداود الطائي وزفر بن الهذيل وأشكالهم فيتطارحون مسألة فيما بينهم فيرفعون أصواتهم ويكثر كلامهم فيها، فإذا أخذ أبو حنيفة في الكلام سكتوا أجمع فلم يتكلموا حتى يفرغ من كلامه فإذا فرغ اشتغلوا بتحفظ ما تكلم به في المسألة فإذا أحكموها أخذوا في مسألة أخرى.

وذكر بعضهم أنه كان يجمع العلماء في كل مسألة لم يجدها صريحة في الكتاب والسنة ويعمل بما يتفقون عليه فيها، وكذلك كان يفعل إذا استنبط حكماً فلا يكتبه حتى يجمع عليه علماء عصره فإن رضوه قال لأبي يوسف: أكتبه.

ونقل الشيخ كمال الدين بن الهمام عن أصحاب أبي حنيفة كأبي يوسف ومحمد وزفر والحسن أنهم كانوا يقولون: ما قلنا في مسألة قولاً إلا وهو روايتنا عن أبي حنيفة، وأقسموا على ذلك أيماناً مغلظة فلم يتحقق في الفقه جواب ولا مذهب إلا له كيف ما كان وما نسب إلى غيره فهو من مذهب أبي حنيفة ونسبته للغير مجاز، وكان إذا أفتى يقول: هذا رأي أبي حنيفة وهو أحسن ما قدرنا عليه فمن أتى بأحسن منه فهو أولى بالصواب.

فالعاقل المنور البصيرة الطيب السريرة: -

من ترك الاعتراض على الأئمة وعلماء الأمة، لا سيما بعد وقوفه على مثل هذا الذي قررنا من مناقب هذا الإمام العظيم، تغمده الله برحمته ورضوانه العميم.

فصل
في محنته

إعلم أن المؤمنين أشد بلاء، وقلما تجد مؤمناً يخرج من هذه الدنيا بلا محنة ومصيبة، فهذا أبو حنيفة قد اتفق له محنة عظيمة مع يزيد بن عمرو بن هبيرة متولي العراق لمروان بن محمد آخر ملوك بني أمية ومع أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي.

روى الخطيب قال: كلم ابن هبيرة أبا حنيفة في أن يلي قضاء الكوفة فأبى فضربه مائة سوط وعشرة أسواط في كل يوم عشرة أسواط وهو على الامتناع فلما رأى ذلك خلى سبيله.

وروى يحيى بن عبد الحميد الحماني قال: كان أبو حنيفة كل يوم يضرب ليدخل في القضاء فيأبى، ولقد بكى في بعض الأيام فلما أطلق قال: كان غم والدتي أشد علي من الضرب.

وروى ابن كاس عن إسماعيل بن سالم البغدادي قال: ضرب أبو حنيفة على الدخول في القضاء فلم يقبل.

وكان أحمد بن حنبل بعد أن ضرب يتذكر حال أبي حنيفة ويترحم عليه.

وذكر أبو أحمد العسكري أن ابن هبيرة أمر بضربه على رأسه فأصبح وقد انتفخ رأسه من الضرب ثم أمر باطلاقه وذكر أنه رأى رسول الله ﷺ في النوم وهو يقول: أما تخاف الله تضرب رجلاً من أمتي بلا جرم وهدده فأرسل إليه فأخرجه واستحله.

وروى القاضي ابن كاس عن محمد بن عمر الأسلمي والموفق بن أحمد عن الشيخ أبي حفص الكبير وغيره قال: كان ابن هبيرة والياً على العراق في زمان بني أمية فظهرت الفتنة بالعراق فجمع ابن هبيرة فقهاء العراق ببابه فيهم ابن أبي ليلى وابن شبرمة وداود بن أبي هند وعدة، فولى كل واحد منهم شيئاً من عمله وأرسل إلى أبي

حنيفة ليكون على خاتمه ولا ينفذ كتاب إلا من تحت يد أبي حنيفة ولا يخرج من بيت المال شيء إلا من تحت يدي أبي حنيفة فامتنع أبو حنيفة، فحلف ابن هبيرة إن لم يفعل لنضربنه، فقال جماعة من الفقهاء: إنا ننشدك الله أن لا تهتك نفسك فإنّا إخوانك وكلنا كاره لهذا الأمر لم نختاره ولم نجد بداً من ذلك فأبى وقال: لو أرادني أن أعد له أبواب المسجد لم أفعل فكيف وهو يريد أن يكتب بضرب عنق رجل مسلم وأختم أنا على ذلك الكتاب، فوالله لا أدخل في ذلك أبداً فحبسه صاحب الشرط جمعتين لم يضربه ثم ضربه أربعة عشر سوطاً.

وفي رواية: أنه ضرب أياماً متوالية فجاء الضارب إلى ابن هبيرة فقال له: إن الرجل مثبت فقال: قل له يخرجنا من يميننا فسأله، فقال: لو سألني أن أعد له أبواب المسجد ما فعلت، دعوني استشير إخواني في ذلك، فاغتنم ابن هبيرة فأمر بتخليته، فركب دوابه وهرب إلى مكة، وكان هذا في سنة مائة وثلاثين، فأقام بمكة إلى أن صارت الخلافة للعباسية، فقدم أبو حنيفة الكوفة في زمن أبي جعفر فأكرمه وأجله وأمر له بعشرة الآف درهم وجارية فأبى أبو حنيفة أن يقبل ذلك.

وروى الخطيب عن بشر بن الوليد الكندي عن خارجة بن بدير والربيع بن يونس وأبو الفرج ابن الجوزي عن بعض العلماء، والموفق بن أحمد عن ابن المبارك، وفي سياق كلٍ ما ليس عند الآخر: أن ابن أبي ليلى لما مات وأخبر بذلك المنصور قال: لقد خلت الكوفة من حاكم عدل، ثم أمر بحمل أبي حنيفة وسفيان ومسعر وشريك وكانوا جلوساً بعد صلاة الصبح فبعث أمير الكوفة إلى كل واحد رجلاً فأخذوهم وبعث به إلى أبي جعفر، فقال أبو حنيفة: أنا أخمن فيكم تخميناً أما أنا فأحتال فأتخلص وأما مسعر فيتجانن وأما سفيان فيهرب وأما شريك فيقع، فساروا فلما كانوا بقرب بغداد أظهر سفيان أنه يريد قضاء الحاجة فذهب ليقضيها وجلس الموكل به ينتظره فبصر سفيان سفينة فقال للملاح: إن مكنتني من سفينتك وإلا أذبح

وتأول قول رسول الله ﷺ: «من جعل قاضياً فقد ذبح بغير سكين» ودفع للملاح دراهم فاستبطأه الموكل به فلم يجده فهرب، فلما أدخلوا على أبي جعفر تقدم إليه مسعر وقال لأبي جعفر: هات يدك كيف أنت وأولادك ودوابك؟ فقال: أخرجوه فإنه مجنون، وعرض على أبي حنيفة تولية القضاء فأبى عليه فحلف ليفعلن، فحلف أبو حنيفة أن لا يفعل، فحلف المنصور ليفعلن، فحلف أبو حنيفة أن لا يفعل، فحلف المنصور ليفعلن، فحلف أبو حنيفة أن لا يفعل، فقال الربيع الحاجب لأبي حنيفة: ألا ترى أمير المؤمنين يحلف؟ فقال أبو حنيفة: أمير المؤمنين أقدر على كفارة يمينه مني على كفارة يميني، فأمر بحبسه، ثم دعا به فقال: أترغب عما نحن فيه؟ فقال: أصلح الله أمير المؤمنين، يا أمير المؤمنين اتق الله ولا تشرك في أمانتك من لم يخف الله، والله ما أنا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب فلا أصلح لذلك، فقال: كذبت أنت تصلح لذلك، فقال: يا أمير المؤمنين قد حكمت على نفسك، إن كنت صادقاً فقد أخبرت أمير المؤمنين أني لا أصلح وإن كنت كاذباً فكيف يحل لك أن تولي قاضياً كذاباً ومع ذلك فإني رجل مولى ولا تكاد العرب ترضى بأن يكون عليهم مولى فأمر به إلى الحبس وعرض ذلك على شريك فقبله فهجره الثوري، وقال: أمكنك الهرب فلم تهرب.

وروى الخطيب عن أبي العلاء الواسطي قال: والعوام يدعون أنه تولى عد اللبن أياماً ليكفر بذلك عن يمينه، ولم يصح هذا من جهة النقل.

فصل
في وفاته

قال أبو المؤيد الخوارزمي: الروايات الظاهرة المشهورة عن الأئمة الثقاة والحفاظ أنه ضرب على القضاء وما قبل حتى توفي، ثم اختلفوا بعد ذلك فمنهم من قال: مات من الضرب وبعضهم قال: سقي السم.

وروى الخطيب وأبو محمد الحارثي وغيرهما من جماعة دخل كلام بعضهم في بعض: أن أبا جعفر المنصور طلب أبا حنيفة من الكوفة إلى بغداد وطلب منه أن يلي القضاء ويكون قضاة الإسلام من تحت يديه فاعتل بعلل ولم يقبل، فحلف عليه أبو جعفر بيمين مغلظة إن لم يفعل ليحبسنه وليشددن عليه فأبى عليه أبو حنيفة فحبسه، وكان يرسل إليه في الحبس: إن أجبت إلى ما طلبته منك أخرجتك، فأبى عليه في عدم قبول القضاء أشد الامتناع، فأمر أن يخرج كل يوم فيضرب عشرة أسواط وينادى عليه في الأسواق، فأخرج وضرب ضرباً موجعاً يؤثر في بشرته أثراً ظاهراً، ونودي عليه في الأسواق والدم يسيل على عقبيه وأعيد إلى الحبس وضيق عليه تضييقاً شديداً في الطعام والشراب والحبس وفعل به جميع ذلك في عشرة أيام كل يوم عشرة أسواط، فلما تتابع عليه الضرب بكى وأكثر الدعاء فمكث بعد ذلك خمسة أيام وتوفي رحمه الله تعالى، وذكروا أنه مات مسموماً.

روى أبو محمد الحارثي: أنه رفع إلى أبي حنيفة قدح فيه سم ليشرب فقال: لا أشرب فأكره على شربه مرات فأبى وقال: [إني] لا أعلم ما فيه فلا أعين على نفسي، فطرح ثم صب في فيه ثم خلي عنه.

وروى الحارثي عن نعيم بن يحيى قال: مات أبو حنيفة رحمه الله غريباً مسموماً.

وروى الصيمري عن أبي نعيم قال: سقي أبو حنيفة شربة فمات منها.

وفي بعض الروايات: أنه لما حضر بين يدي المنصور دعا له بسويق وأمره بشربه فامتنع فقال له: لتشربنه، فأكرهه حتى شربه ثم قام مبادراً فقال له المنصور: إلى أين؟ قال: إلى حيث بعثت بي، فمضى به إلى السجن فمات فيه.

وروى الموفق أحمد وصحح إسناده عن أبي حسان الزيادي قال:

لما أحس الإمام أبو حنيفة بالموت سجد سجدة فخرجت نفسه وهو ساجد.

قال بعضهم: وفي الحقيقة أن أبا جعفر إنما أرسل إلى الإمام أبي حنيفة من الكوفة إلى بغداد ليقتله لا ليبقيه، وسبب ذلك أن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب لما خرج على أبي جعفر المنصور بالبصرة خاف منه خوفاً شديداً ولم يقر له قرار، فدس بعض أعداء الإمام أبي حنيفة إلى أبي جعفر المنصور أن الإمام أبو حنيفة مقبول القول وجيهاً عند الناس ذا مال واسع من التجارة فخشي أبو جعفر من ميله إلى إبراهيم فطلبه من الكوفة إلى بغداد ولم يجسر على قتله بلا سبب فطلب منه أن يكون قاضياً لعلمه أن الإمام أبا حنيفة لا يفعل ذلك فأبى عليه فتوصل بذلك إلى قتله ومكث ـ رحمه الله ـ في مدة العقوبة خمسة عشر يوماً.

ولما توفي أخرج من مكان حبسه فحمل مع خمسة أنفس إلى أن أتوا به إلى المكان الذي غسلوه فيه فغسله الحسن بن عمارة قاضي بغداد وصب عليه أبو رجاء بن واقد الهروي ولما غسله وفرغ منه قال الحسن بن عمارة: رحمك الله لم تفطر منذ ثلاثين سنة ولم تتوسد يمينك بالليل منذ أربعين سنة، كنت أفقهنا وأعبدنا وأزهدنا وأجمعنا لخصال الخير، وقبرت إذ قبرت إلى خير وسنة، وأتعبت من بعدك، وفضحت القراء، رواه الخطيب.

وروى الموفق بن أحمد عن ابن أبي رجاء قال: كنت أصب على الإمام أبي حنيفة حال غسل موته فرأيت جسمه جسماً نحيفاً قد أذابته العبادة فما فرغ من غسله إلا وقد اجتمع من أهل بغداد خلق لا يحصيهم إلا خالقهم كأنه نودي لهم بموته.

وروى الحارثي عن نعيم بن يحيى قال: حزر من صلى على الإمام أبي حنيفة فبلغ خمسين ألفاً أو أكثر، وصلي عليه ست مرات آخرها صلاة ابنه حماد ولم يكن له من الولد غيره، ولم يقدر على

دفنه إلا بعد العصر من كثرة الزحام وكثر البكاء والأسف عليه، وأوصى أن يدفن في مقابر الخيزران لأنها كانت طيبة غير مغصوبة.

ولما بلغ المنصور ذلك قال: من يعذرني منك حياً وميتاً. رواه الخطيب.

ولما بلغ ابن جريج فقيه مكة موته استرجع وقال: أي علم ذهب. رواه الخطيب.

وروي عن نصر بن علي قال: كنت عند شعبة فأخبر بموت أبي حنيفة فاسترجع وقال: طفىء من الكوفة نور العلم أما إنهم لا يرون مثله أبداً.

وقال أبو نعيم الفضل في تاريخه: سمعت علي بن صالح يقول لما مات أبو حنيفة: ذهب مفتي العراق وفقيهها.

ومكث الناس يصلون على قبره عشرين يوماً. رواه الخطيب.

وقال الحليمي وغيره: إن الجن بكت أبا حنيفة ليلة مات فكانوا يسمعون الصوت ولا يرون الشخص وهو يقول:

ذهب الفقه فلا فقه لكم فاتقوا الله وكونوا خلفا
مات نعمان فمن هذا الذي يحيي الليل إذا ما هدفا

وروى الصيمري عن خلف بن سالم قال: سمعت صدقة المقابري ـ وكان مجاب الدعوة ـ يقول: لما دفن أبو حنيفة في مقابر الخيزران سمعت صوتاً في الليل ثلاث ليال وذكر البيتين.

وروى الحارثي أن عبد الله بن المبارك قدم بغداد فقال: دلوني على قبر أبي حنيفة فدلوه عليه فقام على قبره فقال: رحمك الله يا أبا حنيفة مات إبراهيم النخعي وترك خلفاً ومات حماد بن أبي سليمان وترك خلفاً وأنت يا أبا حنيفة مت ولم تترك على وجه الأرض خلفاً ثم بكى بكاءً شديداً.

وروى الصيمري عن ابن سوار عن أبيه قال: رأيت الحسن بن عمارة قاضي بغداد في مقابر الخيزران عند قبر أبي حنيفة يبكي ويقول: رحمك الله كنت لنا خلفاً ممن مضى وما تركت بعدك خلفاً، إن خلفوك في العلم الذي علمتهم لم يمكنهم أن يخلفوك في الورع إلا بتوفيق، فقلت: قبر من هذا؟ قالوا: قبر أبي حنيفة.

ولم يزل العلماء وذوو الحاجات يزورون قبر الإمام أبي حنيفة ويتوسلون إلى الله تعالى في قضاء حوائجهم ويرون نجح ذلك[١]، منهم الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ لما كان ببغداد، وذكر غير واحد أن الشافعي ـ رضي الله عنه ـ صلى الصبح بمقام أبي حنيفة فلم يقنت في صلاة الصبح فقيل له في ذلك فقال: تأدباً مع صاحب هذا القبر، وزاد بعضهم أنه لم يجهر بالبسملة.

وقد رثاه الشعراء بقصائد عديدة فرثاه من الأئمة عبد الله بن المبارك وغيره، ورثاه أبو المؤيد الخوارزمي بعدة قصائد منها قوله: ـ

عز الشريعة إذ مضى كشافها ... وظهيرها النعمان نحو جنانه
عمر التقى والشرع أكثر عصره ... بالأصغرين لسانه وجنانه
فجنانه نحو الشريعة ماهر ... ولسانه رطب بحسن بيانه
فالفقه يشكو يتمه وضياعه ... ومتى سلو الفقه عن نعمانه
لا نفع للإنسان طرفة عينه ... في طرفه أن يخل عن إنسانه
عجباً لقبر فيه بحر زاخر ... عجب لبحر لف في أكفانه
إن راح فقه خالص فهو الذي ... سبكته شعلة فكره في خانه
أو فاح ورد تهجد قد زانه ... طل الثقات فذاك من بستانه
أو طار منشور العلوم إلى الورى ... فهو الذي كتبوه من ديوانه
أوراق تفاح القياس بنشره ... وبطعمه فاعرفه من أسنانه

---

(١) تنبه لهذه المسألة في التوحيد.

أو عجبت صلة سماحة حاتم　　فتوسموها من طراز بنانه
أو سر ذا فقر جمان فائق　　عند السؤال فذا جمان عمانه
وإذا رأيتم روض فقه ناضر　　بالبحث يسعى فهو من سعدانه
نصبت موائد طعمهن فوائد　　في كل مصر وهي فضل خوانه
قد جاء أهل زمانه بزبورهم　　فمحاه بالآيات من فرقانه
قد شد إيوان القياس بكده　　وقد استراح الخلق في إيوانه
قد سمه المنصور سماً قاتلا　　ليعيش مأموناً على سلطانه
مضيا إلى لحديهما هذا إلى　　سخط الإله وذا إلى رضوانه
حسانه أنا مرتجى في مدحه　　حسنى شفاعته إلى حسانه

والأشعار في هذا كثيرة أضربنا عنها خوف الإطالة.

ورؤي له منامات حسنة لا تليق بهذه المقدمة.

وقد رؤي بعد موته فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، فقيل له: بالعلم؟ فقال: هيهات إن للعلم شروطاً وآداباً قل من يفعلها، فقيل: بما غفر الله لك؟ قال: بقول الناس في ما ليس في.

رضي الله تعالى عنه ورحمه ورحمنا به. آمين.

وفي هذا القدر كفاية. والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

الباب الثاني

في مناقب الإمام أبي عبد اللَّه

مالك بن أنس

رضي اللَّه عنه

وهو الإمام العلم الحجة الحافظ الضابط المتقن، إمام دار الهجرة وعالم الإسلام وأحد العلماء الأعلام.

مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن عثمان بن ختيل بن عمرو بن ذي أصبح الأصبحي الحميري، حليف عثمان أخي طلحة بن عبيد الله التيمي، فهو مولى حلف لا مولى عتاقة على الصحيح الذي عليه الجمهور خلافاً لابن إسحاق، وقد رد عليه غير واحد.

ولد سنة تسعين أو أربع أو ست أو سبع وتسعين من الهجرة، وكانت ولادته بذي المروة موضع من مساجد تبوك عن ثمانية برد من المدينة. ولا خلاف أنه مات سنة تسع وسبعين، وعاش خمساً وثمانين سنة أو قريباً من تسعين سنة.

ومكث يفتي الناس ويعلمهم نحواً من سبعين سنة.

ومات بالمدينة ودفن بالبقيع وقبره معروف.

حملت به أمه ثلاث سنين.

وكان طويلاً، عظيم الهامة، أصلع أبيض الرأس واللحية، أبيض شديد البياض إلى الشقرة.

وكان لباسه الثياب العدنية الجياد.

قال بشر [بن] الحارث: دخلت على مالك فرأيت عليه طيلسان يساوي خمسمائة دينار.

وكان يكره حلق الشارب ويعيبه ويراه من المثل.

وهو إمام دار الهجرة، وعالم المدينة، وأحد أئمة المذاهب المتبوعة، وهو من تابعي التابعين وقيل إنه من التابعين لأنه أدرك عائشة بنت سعد بن أبي وقاص وقد قيل فيها إنها صحابية والصحيح خلافه.

وجده أبو عامر الصحابي حضر مع رسول الله ﷺ مغازيه كلها إلا بدراً، وجده مالك من كبار التابعين، وهو أحد الأربعة الذين حملوا عثمان إلى قبره ليلاً وغسلوه ودفنوه، وأبوه أنس كان فقيهاً.

وأما هو ـ رضي الله عنه ـ فقد شاع فضله واشتهر علمه وارتفع قدره وعظمت منزلته وعرفت مكانته وظهرت سيادته فأقر العلماء بفضله وأذعنوا لعلمه فساد جميع أقرانه وفاق أهل زمانه فسمي عالم المدينة وإمام دار الهجرة وانتشر خبره في الأمصار واشتهر في سائر الأقطار وضربت إليه أكباد الإبل وارتحل إليه الناس من كل مصر وأتوه من كل قطر وشهد له التابعون بالفقه والحديث واحتاج إليه معلموه وسألوه عن أمر دينهم واشتهرت عنه رواية العلم في سائر الأقطار والأمصار.

فروى عنه أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان والشام ومصر وإفريقية والأندلس وهو مصداق الحديث الذي أخرجه الحاكم عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً: «يخرج ناس من المشرق والمغرب في طلب العلم فلا يجدون أعلم من عالم المدينة». وأخرجه الترمذي وحسنه.

ومن حديث أبي هريرة يرفعه اللفظ: «يوشك أن يضرب الناس أكباد الأبل يطلبون العلم فلا يجدون أحداً أعلم من عالم المدينة» وفي رواية «أفقه من عالم المدينة» وفي رواية «لا تنقضي الساعة حتى يضرب الناس أكباد الأبل من كل ناحية إلى عالم المدينة يطلبون علمه» وقد تأوله الأئمة على مالك.

قال سفيان: كانوا يرونه مالكاً.

قال ابن مهدي: يعني سفيان بقوله «يرونه» التابعين.

وتأول ذلك فيه أيضاً عبد الملك بن جريج وسفيان بن عيينة وعبد الرحمن بن مهدي ووكيع بن الجراح والأوزاعي.

وقال عبد الرزاق: كنا نرى أنه مالك ولم يعرف بهذا الاسم غيره ولا ضربت أكباد الأبل إلى أحد مثل ما ضربت إليه.

قال أبو مصعب: كان الناس يزدحمون على باب مالك ويقتتلون عليه من الزحام يعني لطلب العلم.

فصل
فيمن روى عنه مالك أو روى عن مالك

وذلك جمع كثير وجم غفير، روى - رضي الله عنه - عن نافع وسعيد المقبري وزيد بن أسلم وعمرو بن دينار وموسى بن عقبة ويحيى بن سعيد ومحمد بن شهاب الزهري إمام السنة وربيعة بن أبي عبد الرحمن فقيه أهل المدينة وهشام بن عروة بن الزبير وخلق كثير حتى بلغ عدة أشياخه تسعمائة.

* روى عنه الأئمة كالزهري وربيعة وموسى بن عقبة والشافعي وأبي حنيفة وصاحبيه أبي يوسف ومحمد وابن جريج وشعبة بن الحجاج والسفيانين الثوري إمام أهل العراق وابن عيينة عالم أهل مكة ومسلم بن خالد الزنجي شيخ الشافعي وعبد الرحمن بن مهدي شيخ الإمام أحمد والأوزاعي إمام أهل الشام والليث إمام أهل مصر وابن أبي ذئب عبد الرحمن القرشي أحد علماء المدينة ويحيى النيسابوري شيخ مسلم وقتيبة بن سعيد البلخي شيخ البخاري ومسلم وعبد الله بن وهب القرشي المصري وعبد الرحمن بن القاسم المصري وعبد الله بن عبد الحكم المصري وأشهب بن عبد العزيز العامري المصري ومحمد بن إسحاق بن يسار ووكيع بن الجراح الكوفي ويحيى بن

سعيد القطان البصري وعمر بن عبد العزيز وعبد الرزاق بن همام الصنعاني والفضيل بن عياض الزاهد وأبو نعيم الفضل الكوفي وأبو مسهر عبد الأعلى الدمشقي وعبد العزيز الماجشون المدني وعبد الله بن المبارك الخراساني وأبو سلمة حماد بن سلمة بن دينار وأبو إسماعيل حماد بن زيد بن درهم البصريين وبشر بن الحارث وإبراهيم بن أدهم الزاهدين وأبو الفيض ذو النون المصري وعبد الله بن غانم قاضي إفريقية وعبد الله بن زياد التونسي ويحيى بن يحيى الأندلسي وعبد الله بن مسلم القعنبي، وخلائق لا يحصون من مشاهير الرواة يزيدون على ألف شيخ.

وعد القاضي عياض منهم ألفاً ونيفاً وقال: تركنا كثيراً ممن يشتهر وروى عنه من الخلفاء ستة: أمير المؤمنين المنصور والمهدي والهادي والرشيد والأمين والمأمون، وحصل له من الحظ ما لم يحصل قط لغيره.

وكان شيخه ربيعة يرجع إليه في غير شيء، واجتمع الناس عليه وتركوا ربيعة مع جلالة قدره، وكانوا يسألون مالكاً أن يحدثهم عن ربيعة وربيعة حاضر بمسجد رسول الله ﷺ وكان ربيعة معادياً لأبي الزناد راوي أنس وفقيه أهل المدينة.

قال ابن سعيد: [رأيت أبا الزناد دخل مسجد النبي ﷺ ومعه من الأتباع مثل ما مع السلطان فمن سائل عن الحساب ومن سائل عن فريضة ومن سائل عن الحديث ومن سائل عن معضلة.

وقال الليث: رأيته وخلفه ثلاثمائة طالب علم ثم لم يلبث أن بقي وحده، وأقبلوا على ربيعة، فكان ربيعة يقول: شبر من حظوة خير من باع من علم.

وقال محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة: سمعت عن مالك سبعمائة حديث ونيفا إلى الثمانمائة، فكان محمد بن الحسن إذا واعد الناس أن يحدثهم عن مالك امتلأ موضعه وكثر عليه الناس وإذا حدث

عن غيره لم يأته إلا النفير].

وقال إبراهيم بن طهمان: أتيت المدينة ثم قدمت الكوفة فأتيت أبا حنيفة فقال: هل كتبت عن مالك بن أنس شيئاً؟ قلت: نعم، قال: حدثني بما كتبت عنه، فأتيته به، فدعى بقرطاس ودواة فجعلت أملي عليه وهو يكتب.

وقال مطرف: كان سفيان بن عيينة يجلس في حلقة مالك يسمع الحلال والحرام والحديث المعمول به لا يتكلم بحرف وإن خرج حلق بنفسه. وكان سفيان الثوري يتبعه في الحج [فما فعل مالك] فعل مثله.

فصل
في مدح العلماء للإمام مالك

قد أكثر الأئمة الأعلام في مدحه وأطنبوا في ذكره وها أنا أذكر شيئاً من ذلك حاذفاً للرواة خشية التطويل.

سئل عنه أبو حنيفة فقال: ما رأيت أعلم بسنة رسول الله ﷺ منه.

وقال الليث بن سعد: لقيت مالكاً بالمدينة فقلت: مالك تمسح العرق عن جبينك؟ فقال: عرقت مع أبي حنيفة إنه لفقيه يا مصري، ثم لقيت أبا حنيفة فقلت: ما أحسن قول ذلك الرجل فيك، فقال أبو حنيفة: والله ما رأيت أسرع بجواب صادق وزهد تام منه ـ يعني مالكاً ـ.

وقال عبد الرحمن بن مهدي: ما أدركت أحداً من علماء الحجاز إلا معظماً لمالك، وإن الله لا يجمع أمة محمد في حرمه وحرم نبيه إلا على هدى. وقال ابن إسحاق: مالك ملك لنفسه حجة، مالك رضى، مالك كثير الأتباع، مذهبه الآثار.

وقال الشافعي: إذا ذكر الحديث فمالك النجم، يشير إلى قوله

تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾.

وقال الشافعي أيضاً: إذا جاء الحديث عن مالك فشد به يدك، وقال أيضاً: مالك أمير المؤمنين في الحديث، وقال: كان مالك إذا شك في بعض الحديث تركه كله.

وقال ابن الأثير: كفى الشافعي شرفاً أن مالكاً شيخه، وكفى مالكاً شرفاً أن الشافعي تلميذه، وكان يقول: مالك أستاذي وإنما أنا غلام من غلمان مالك.

وقال أبو زرعة: سمعت أحمد بن حنبل وقد سئل عن سفيان ومالك إذا اختلفا في الرأي؟ فقال: مالك أكبر في قلبي، قلت: فمالك والأوزاعي؟ فقال: مالك أحب إلي وإن كان الأوزاعي من الأئمة، قيل: فمالك والليث؟ فقال: مالك، قيل: فمالك والحكم وحماد؟ قال: مالك، قيل: فمالك والنخعي؟ قال: هذا كأنه سبه، ضعه مع أهل زمانه، مالك سيد من سادات أهل العلم، وهو إمام في الحديث والفقه ومن مثل مالك.

قال أبو داود السجستاني: سمعت أحمد بن حنبل يقول: مالك أتبع من سفيان.

وقال عبد الملك الميموني الرقى: سمعت أحمد بن حنبل غير مرة يقول: كان مالك أثبت الناس في الحديث ولا تبال ولا تسأل عن رجل روى عنه.

وقال عبد السلام بن عاصم: قلت لأحمد بن حنبل: يا أبا عبد الله رجل يريد أن يحفظ حديث رجل بعينه، قال: يحفظ حديث مالك ورأي مالك.

وقيل لأحمد: مالك أحسن حديثاً عن الزهري أم سفيان بن عيينة قال: مالك أصح حديثاً، قيل: فمعمر، فقدم مالك، إلا أن معمر أكثر حديثاً عن الزهري.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي: من أثبت أصحاب الزهري؟ قال: مالك أثبت في كل شيء.

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: سمعت أبي يقول: مالك بن أنس ثقة أهل الحجاز وهو أثبت أصحاب الزهري، وإذا خالف أهل الحجاز مالكاً حكم لمالك، وهو أنقى حديثاً من الثوري والأوزاعي، وأقوى في الزهري من ابن عيينة وأقوى من معمر وابن أبي ذئب.

وسئل ابن المديني: من أثبت أصحاب نافع؟ قال: مالك وإتقانه وأيوب وفضله وعبيد الله وحفظه.

وقال ابن المديني: لم يكن بالمدينة أعلم بمذهب تابعيهم من مالك.

وقال سفيان بن عيينة: من نحن عند مالك؟ إنما كنا نتبع آثار مالك وننظر الشيخ إن كان مالك كتب عنه وإلا تركناه.

وقال سعيد بن منصور: رأيت مالكاً يطوف وسفيان الثوري خلفه كلما فعل مالك شيئاً فعله سفيان.

وقيل ليحيى بن معين: الليث أرفع عندك أو مالك؟ فقال: مالك، قيل: أليس مالك أعلم أصحاب الزهري؟ قال: بلى، قيل: فعبيد الله بن نافع أثبت أو مالك؟ قال: مالك، ثم قال: مالك أثبت الناس.

وقال يحيى بن معين: كان مالك من حجج الله على خلقه.

وقال سفيان بن عيينة: ما كان أشد إتقان مالك للرجال وأعلمه بشأنهم، وقال أيضاً: كان مالك لا يبلغ من الحديث إلا صحيحاً ولا يحدث إلا عن ثقات الناس وما أرى المدينة إلا ستخرب بعد موت مالك.

وقال يحيى القطان: مالك أمير المؤمنين في الحديث وما أقدم على مالك في زمانه أحداً.

وقال الأوزاعي: مالك مفتي الحرمين.

وقال حماد بن زيد: دخلت المدينة ومناد ينادي لا يفتي الناس بمسجد رسول الله ﷺ ولا يحدث فيه إلا مالك بن أنس.

وقال سعيد الحذاء: مالك من الراسخين في العلم.

إلى غير ذلك مما قالوه من الثناء عليه والمدح فيه.

وقال البخاري: أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر.

وأخرج أبو نعيم عن الشافعي قال: قال لي محمد بن الحسن: صاحبنا أعلم أم صاحبكم؟ ـ يعني مالكاً وأبا حنيفة ـ قلت: تريد المكارم أم الإنصاف؟ قال: بل الإنصاف، قلت: فما الحجة عندكم؟ قال: الكتاب والسنة والإجماع والقياس، قلت: أنشدك الله صاحبنا أعلم بكتاب الله أم صاحبكم؟ قال: إذ نشدتني بالله فصاحبكم، قلت: فصاحبنا أعلم بسنة رسول الله ﷺ أم صاحبكم؟ قال: صاحبكم، قلت: فصاحبنا أعلم بتأويل الصحابة أم صاحبكم؟ قال: صاحبكم، قلت: فبقي شيء غير القياس؟ قال: لا، قلت: فلم يبق إلا القياس ولا يكون إلا على هذه الأشياء، فاتفق رأي الشافعي ومحمد بن الحسن على تقديم مالك على أبي حنيفة في معرفة الكتاب والسنة والآثار.

وعن ابن مهدي أن رجلاً قال له: بلغني أنك قلت: مالك أفقه من أبي حنيفة قال: ما قلت هذا ولكني أقول: كان أعلم من أستاذ أبي حنيفة ـ يعني حماداً ـ.

قلت: ـ

وهذا والذي قبله كلام لا يخلو من تعصب ففي صحته بعد لما مر لك من ثناء الأئمة على أبي حنيفة خصوصاً الشافعي ومحمد بن الحسن وابن المبارك وقد أجمع من يعتد بإجماعه على أنه لم يكن في عصره أفقه منه، وأيضاً فقول ابن مهدي ـ أعلم من أستاذ أبي حنيفة ـ

لا يستلزم التفضيل على أبي حنيفة أو أن ابن مهدي فهم من السائل عدم ميله لمالك فبالغ في الرد عليه.

وسئل ابن المبارك: من أعلم مالك أو أبو حنيفة؟ قال: مالك أعلم من أستاذ أبي حنيفة وهو إمام في الحديث والسنة وما بقي على وجه الأرض آمن على حديث رسول الله ﷺ من مالك ولا أقدم عليه أحداً في صحة الحديث ولم أر أحداً مثله.

ونقل القاضي عياض في المدارك عن الإمام مالك أنه قال: جالست ابن هرمز ثلاث عشرة سنة ويروى ستة عشرة سنة في علم لم أبثه لأحد من الناس.

وقال ابن وهب: سمعت مالكاً يقول: إن عندي لأحاديث ما حدثت بها قط ولا سمعت مني ولا أحدث بها حتى أموت.

وسأله رجل عن شيء من علم الباطن فغضب وقال: إن علم الباطن لا يعرفه إلا من عرف الظاهر فإنه متى عرفه وعمل به فتح الله به له علم الباطن ولا يكون ذلك إلا مع فتح القلب وتنويره، ثم قال للرجل: عليك بالدين المحض وإياك وثنيات الطريق وعليك بما تعرف واترك ما لا تعرف.

وقال ابن رشد: رحم الله مالك بن أنس فإنه كان أمير المؤمنين في الرأي والآثار وأعرف الناس بالقياس وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وقال مطرف: قال لي مالك: ما تقول الناس في؟ قلت: أما الصديق فيثني وأما العدو فيقع، قال: ما زال الناس هكذا لهم صديق وعدو ولكن نعوذ بالله من تتابع الألسن كلها.

فصل
في الموطأ ومدحه

قال الحافظ ابن حجر: إن آثار النبي ﷺ لم تكن في عصر

أصحابه وكبار تابعيهم مدونة في الجوامع ولا مرتبة لأمرين: أحدهما أنهم كانوا في ابتداء الحال قد نهوا عن ذلك كما ثبت في صحيح مسلم خشية أن يختلط بعض ذلك بالقرآن العظيم، والثاني سعة حفظهم وسيلان أذهانهم ولأن أكثرهم كانوا لا يعرفون الكتابة، ثم حدث في أواخر عصر التابعين تدوين الآثار وتبويب الأخبار لما انتشر العلماء في الأمصار وكثر الابتداع من الخوارج والروافض ومنكري الأقدار.

فأول من جمع ذلك الربيع بن صبيح وسعيد بن أبي عروبة وغيرهما فكانوا يصنفون كل باب على حدة إلى أن قام أهل الطبقة الثالثة فدونوا الأحكام فصنف الإمام مالك الموطأ وتوخى فيه القوي من حديث أهل الحجاز ومزجه بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين ومن بعدهم، وصنف ابن جريج بمكة، والأوزاعي بالشام وسفيان الثوري بالكوفة وحماد بن سلمة البصري ثم تلاهم كثير من أهل عصرهم في النسج على منوالهم إلى أن رأى بعض الأئمة أن يفرد حديث النبي خاصة وذلك على رأس المائتين فصنفوا المسانيد.

قال القاضي أبو بكر بن العربي في شرح الترمذي: الموطأ هو الأصل الأول واللباب وكتاب البخاري هو الأصل الثاني في هذا الباب وعليهما بنى الجميع كمسلم والترمذي.

قال ابن العربي أيضاً: ذكر ابن الهباب أن مالكاً روى مائة ألف حديث جمع منه في الموطأ عشرة الآف ثم لم يزل يعرضها على الكتاب والسنة ويختبرها بالآثار والأخبار حتى رجعت إلى خمسمائة.

وقال بعضهم: إن موطأ مالك كان قد اشتمل على تسعة الآف حديث ثم لم يزل ينتقي حتى رجع إلى سبعمائة.

وقال عتيق بن يعقوب: وضع مالك بن أنس الموطأ على نحو من عشرة الآف حديث فلم يزل ينظر فيه في كل سنة ويسقط منه حتى بقي منه هذا ولو بقي قليلاً لأسقطه كله.

وسئل أبو حاتم الرازي: موطأ مالك بن أنس لم سمي موطأ؟

فقال: شيء قد صنفه ووطأه للناس حتى قيل موطأ مالك كما قيل جامع سفيان.

وقال بعض المشايخ: قال مالك: عرضت كتابي هذا على سبعين فقيهاً من فقهاء المدينة فكلهم وطاني عليه فسميته الموطأ بمعنى الممهد المنقح المحرر المصفى.

قال عمر صاحب الأوزاعي: عرضنا على مالك الموطأ في أربعين يوماً فقال: كتاب ألفته في أربعين سنة أخذتموه في أربعين يوماً ما أقل ما تفقهون فيه.

وعن أبي خليد قال: أقمت على مالك فقرأت الموطأ في أربعة أيام فقال مالك: علم جمعه شيخ في ستين سنة أخذتموه في أربعة أيام، لا فقهتم أبداً.

وأما مدحه: ـ

فقال الإمام الشافعي رحمه الله: ما بعد كتاب الله أنفع من الموطأ، وقال أيضاً: ما على ظهر الأرض بعد كتاب الله تعالى أصح من كتاب مالك، وقال أيضاً: ما وضع على الأرض كتاب هو أقرب إلى القرآن من كتاب مالك بن أنس يعني الموطأ، وقال أيضاً: ما على الأرض بعد كتاب الله أكثر صواباً من موطأ مالك، وسئل الإمام أحمد عن كتاب مالك بن أنس فقال: ما أحسنه لمن تدين به. وقال عبد الرحمن بن مهدي: ما كتاب بعد كتاب الله أنفع للناس من الموطأ، أو كلام هذا معناه.

وسئل إسحاق بن راهويه: أي الكتابين أحسن كتاب مالك أو كتاب سفيان؟ قال: كتاب مالك.

وذكر بعضهم أن مالك لما صنف الموطأ عمل من كان بالمدينة يومئذٍ من العلماء الموطأت فقيل لمالك: شغلت نفسك بعمل هذا الكتاب وقد شركك فيه الناس وعملوا أمثاله، فقال: أيتوني بما عملوا

فأُتي بذلك فنظر فيه ثم نبذه وقال: لتعلمن أنه لا يرتفع من هذا إلا ما أريد به وجه الله قال: فكأنما ألقيت تلك الكتب في الآبار وما سمع لشيء منها بعد ذلك بذكر.

وقال مطرف بن عبد الله صاحب مالك، قال لي مالك بن أنس: ما يقول الناس في موطأي؟ فقلت له: الناس رجلان: محب مطر وحاسد مفتر، فقال لي مالك: إن مد بك عمر فسترى ما يراد الله به.

وقال الواقدي: سمعت مالك بن أنس يقول: لما حج أبو جعفر المنصور دعاني فدخلت عليه فحادثته وسألني فأجبته فقال: إني عزمت أن آمر بكتبك هذه التي وضعتها ـ يعني الموطأ ـ فتنسخ نسخاً ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها بنسخة وآمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدونه إلى غيره ويدعوا ما سوى ذلك من هذا العلم المحدث فإني رأيت أهل العلم رواية أهل المدينة وعلمهم، فقلت: يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا فإن الناس قد سيقت إليهم أقاويل وسمعوا أحاديث ورووا روايات وأخذ كل قوم بما سيق إليهم وعملوا به ودانوا به من اختلاف الناس وغيرهم وإن ردهم عما اعتقدوه شديد فدع الناس وما هم عليه وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم، فقال: لعمري لو طاوعتني على ذلك لأمرت به.

وقال عبد الله بن عبد الحكم: سمعت مالك بن أنس يقول: شاورني هارون الرشيد في ثلاث، في أن يعلق الموطأ في الكعبة ويحمل الناس على ما فيه، وفي أن ينقض منبر رسول الله ﷺ ويجعله من جوهر وذهب وفضة، وفي أن يقدم نافع بن أبي نعيم إماماً يصلي بالناس في مسجد رسول الله ﷺ فقلت: أما تعليق الموطأ في الكعبة فإن أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا في الفروع وافترقوا في البلدان وكلٌ عند نفسه مصيب، وأما نقض المنبر فلا أرى أن تحرم الناس أثر النبي ﷺ وأما تقديمك نافعاً يصلي بالناس فإن نافعاً إمام في القراءة لا

يؤمن أن يندر منه في المحراب نادرة فتحفظ منه فقال: وفقك الله يا أبا عبد الله.

وأخرج الخطيب قال: قال هارون الرشيد لمالك: يا أبا عبد الله نكتب هذه الكتب ونفرقها في آفاق الإسلام فنحمل عليها الأمة قال: يا أمير المؤمنين رضي الله عنك إن اختلاف العلماء رحمة من الله على هذه الأمة، كلٌ يتبع ما صح عنده، وكلٌ على هدى، وكلٌ يريد الله.

فصل
في اجتماع الخلفاء به

أخرج الخطيب قال: لما قدم الرشيد استقبله الناس مشاة واستقبله مالك في محمل فقال له: مرحباً بك يا أبا عبد الله وردت علينا كتبك فأمرنا فتياننا بالنظر فيها إلا أنا لم نر فيها ذكراً لعلي وابن العباس فقال: لم يكونا ببلدي ولم ألق رجالهما.

وأخرج ابن فهر عن أبي مصعب قال: قال هارون الرشيد لمالك: أريد أن أسمع منك الموطأ فقال: نعم يا أمير المؤمنين فقال: متى؟ قال مالك: غداً، فجلس هارون ينتظر وجلس مالك في بيته ينتظر، فلما أبطأ عليه أرسل إليه فدعاه فقال: يا أبا عبد الله ما زلت أنتظرك منذ اليوم فقال مالك: وأنا أيضاً يا أمير المؤمنين لم أزل أنتظرك منذ اليوم، إن العلم يؤتى ولا يأتي وإن ابن عمك هو الذي جاء بالعلم فإن رفعتموه ارتفع وإن وضعتموه اتضع.

وفي رواية عبد الله بن رافع: قدم هارون الرشيد فوجه البرمكي إلى مالك وقال له: احمل إلي الكتاب الذي صنفته حتى أسمعه منك فقال للبرمكي: أقرئه السلام وقل له: إن العلم يزار ولا يزور وإن العلم يؤتى ولا يأتي، فرجع البرمكي إلى هارون فقال له: يا أمير المؤمنين يبلغ أهل العراق أنك وجهت إلى مالك في أمر فخالفك إعزم عليه حتى يأتيك، فإذا بمالك قد دخل وليس معه كتاب وأتاه مسلماً

فقال: يا أمير المؤمنين إن الله جعلك في هذا الموضع لعلمك فلا تكن أنت أول من يضيع العلم فيضيعك الله، ولقد رأيت من ليس في حسبك ولا بيتك يعز هذا العلم ويجله فأنت أحرى أن تجل وتعز علم ابن عمك ولم يزل يعدد عليه من ذلك حتى بكى هارون ثم قال: أخبرني الزهري عن خارجة بن زيد قال: قال لي زيد بن ثابت: كنت أكتب بين يدي النبي ﷺ في كتف: «لا يستوي القاعدون من المؤمنين... والمجاهدون» وابن مكتوم عند النبي ﷺ فقال: يا رسول الله قد أنزل الله في فضل الجهاد ما أنزل وأنا رجل ضرير فهل لي من رخصة؟ فقال النبي ﷺ: لا أدري، قال زيد: وقلمي رطب ما جف حتى غشي النبي ﷺ، الوحي ووقع فخذه على فخذي حتى كادت تدق من ثقل الوحي، ثم جلي عنه فقال لي: أكتب يا زيد: «غير أولي الضرر» فيا أمير المؤمنين فحرف واحد تعب فيه جبريل والملائكة عليهم السلام من مسيرة خمسين ألف عام حتى أنزله على نبيه ﷺ أفلا ينبغي لي أن أعزه وأجله.

وفي رواية الرعيني قال: قدم المهدي أمير المؤمنين فبعث إلى مالك فأتاه فقال لهارون وموسى: إسمعا منه فبعثا إليه فلم يجبهما فأعلما المهدي فقال لمالك: لم امتنعت عليهما؟ فقال: يا أمير المؤمنين العلم نضارة يؤتي أهله فقال: صدق مالك سيرا إليه فلما صارا إليه قال له مؤدبهما: إقرأ علينا فقال له مالك: أهل هذه المدينة يقرؤون على العالم كما يقرأ الصبيان على المعلم فإن أخطأوا أفتاهم، فرجعوا إلى المهدي فبعث إلى مالك فقال: ساروا إليك فمنعتهم من السماع ولم تقرأ عليهم، فقال له مالك: سمعت ابن شهاب يقول: جمعنا هذا العلم من رجال في الروضة وهم سعيد بن المسيب وأبو سلمة والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وخارجة بن زيد وسليمان بن يسار ونافع وابن حزم ومن بعدهم أبو الزناد وربيعة ويحيى بن سعيد وابن شهاب كل هؤلاء يُقرأ عليهم ولا يقرؤون فقال: في هؤلاء قدوة سيروا إليه فاقرؤا عليه ففعلوا.

وفي بعض الرسائل: رحل الرشيد بولديه الأمين والمأمون لسماع الموطأ على مالك، وكان أصل الموطأ لسماع الرشيد في خزانة المصريين، ثم رحل لسما[عه] السلطان صلاح الدين بن أيوب، فسمعه على ابن طاهر بن عوف.

فصل
في ذكر جملة من اخباره

قال مطرف بن عبد الله: كان مالك إذا حدث عن رسول الله ﷺ إغتسل وتطيب ولبس ثياباً جدداً ثم يحدث.

وروى أبو نعيم قال: كان مالك إذا أراد أن يحدث توضأ وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته وتمكن في الجلوس موقراً بوقار وهيبة ثم حدث فقيل له في ذلك فقال: أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ.

وقال عبد الله بن المبارك: كنت عند مالك وهو يحدث فلدغته عقرب ستة عشر مرة وهو يتغير لونه ويصفر ولا يقطع حديث رسول الله ﷺ، فلما سألته عن ذلك، فقال: صبرت إجلالاً لحديث رسول الله ﷺ.

وسأله ابن مهدي يوماً عن حديث وهو ماش فانتهره وقال له: كنت في عيني أجل من أن تسألني عن حديث النبي ﷺ ونحن نمشي.

وقال إسماعيل بن أبي أويس: كان مالك إذا جلس للحديث يقول: ليلني أولوا الأحلام والنهى فربما قعد القعنبي عن يمينه.

وقال الواقدي: كان مالك يجلس في منزله على ضجاع له ونمارق مطرحة عنده ونشره في سائر البيت لمن يأتيه من قريش والأنصار والناس، وكان مجلسه مجلس وقار وحلم، وكان رجلاً مهيباً نبيلاً ليس في مجلسه شيء من المراء واللغط ولا رفع الصوت، وكان الغرباء يسألونه عن الحديث ولا يجيب إلا الحديث بعد الحديث،

وربما أذن لبعضهم فقرأ عليه، وكان له كاتب قد نسخ كتبه يقال له حبيب يقرأ للجماعة فليس أحد ممن يحضره يدنو ولا ينظر في كتابه ولا يستفهم هيبة لمالك وإجلالاً له.

وروى الخطيب عن إبراهيم بن هارون قال: كان مالك لا يحضر مجلسه لغط ولا لغو وكان مهيباً إذا سئل عن الشيء فأجاب سائله لم يراجعه ولم يقل له: من أين رأيت.

وقال عمرو بن عثمان: دخل شاعر على مالك بن أنس فمدحه: -

يدع الجواب فلا يراجع هيبة والسائلون نواكس الأذقان
أدب الوقار وعز سلطان التقى فهو المطاع وليس ذا سلطان

قال ابن وهب: سمعت مالكاً يقول: إن حقاً على من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية وأن يكون متبعاً لأثر من مضى قبله.

وقال إبراهيم بن مهدي: سمعت مالكاً يقول: لو أعلم أن قلبي يصلح على كناسة لذهبت حتى أجلس عليها.

وقال: كثرة الكلام تمج العالم وتذله وتنقصه ومن هذا ذهب بهاؤه ولا يوجد ذلك إلا في النساء والصغار.

وروى أبو نعيم عن ابن مهدي قال: سأل رجل مالكاً عن مسألة فقال: لا أحسنها فقال: إني ضربت إليك من كذا وكذا لأسئلك عنها فقال له مالك: إذا رجعت إلى مكانك فأخبرهم أني قلت: لا أحسنها.

قال عمرو بن يزيد المصري: قلت لمالك: يا أبا عبد الله يأتيك ناس من بلدان شتى قد أفنوا مطاياهم وأنفقوا نفقاتهم يسألونك عما جعل الله عندك من العلم: فتقول لا أدري فقال: يأتيني الشامي من شامه والعراقي من عراقه والمصري من مصره فيسألوني عن الشيء لعلي أن يبدو لي فيه غير ما أحببت، قال عمرو: فأخبرت الليث بن سعد بقول مالك هذا فبكى ثم قال: مالك والله أقوى عليه من الليث،

والليث والله أضعف عنده من مالك.

وقال إسماعيل بن جعفر الخياط: نزلت بي مسألة فأتيت مالكاً فسألته فقال لي: انصرف حتى أنظر في مسألتك فانصرفت وأنا متهاون بعلمه وقلت: هذا الذي تضرب إليه المطي لم يحسن مسألتي فنمت فأتاني آت في منامي فقال: أنت المتهاون بعلم مالك أما إنه لو نزل بمالك أدق من الشعر وأصلب من الصخر لقوي عليه باستعانته عليه بما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وأخرج الخطيب وابن عبد البر عن الهيثم بن جميل قال: شهدت مالكاً سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها لا أدري.

وقال عبد الرحمن بن مهدي: رأيت رجلاً جاء إلى مالك بن أنس يسأله عن شيء أياماً ما يجيبه فقال: يا أبا عبد الله إني أريد الخروج قال: فأطرق طويلاً ثم رفع رأسه فقال: ما شاء الله يا هذا إني إنما أتكلم فيما أحتسب فيه الخير وليس أحسن مسألتك هذه.

فانظر يا أخي إلى توقف هذا الإمام وعدم جرأته في الجواب عما لا يعلم.

وكان يقول: إن المسألة إذا سئل عنها الرجل فلم يجب واندفعت عنه فإنما هي بلية صرفها الله عنه.

وأخرج أبو نعيم عن الطرسوسي قال: كنت عند مالك فدخل عليه رجل فقال: ما تقول في من قال: القرآن مخلوق؟ فقال مالك: زنديق اقتلوه فقال: يا أبا عبد الله إنما أحكي كلاماً سمعته، قال: لم أسمعه من أحد إنما سمعته منك.

وأخرج عن جعفر بن عبد الله قال: كنا عند مالك فجاء رجل فقال: يا أبا عبد الله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ كيف استوى؟ فقال: الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وأمر به فأخرج.

وأخرج عن الشافعي قال: كان مالك إذا جاء بعض أهل الأهواء قال: أما أني على بينة من ديني، وأما أنت فشاك إذهب إلى شاك مثلك فخاصمه. وأخرج خالد بن خداش قال: ودعت مالك بن أنس فقلت: أوصني، قال: تقوى الله وطلب الحديث من عند أهله.

وقال خالد بن نزار: سمعت مالكاً يقول لفتى من قريش: تعلم الأدب قبل أن تتعلم العلم.

وقال ابن وهب: قال مالك: العلم نور يجعله الله حيث يشاء، ليس بكثرة الرواية، وقال: لا يبلغ أحد ما يريد من هذا العلم حتى يضر به الفقر ويؤثره على كل حال.

وقال: من صدق في حديثه متع بعقله ولم يصبه ما يصيب الناس من الهرم والخرف.

وقال: لا يصلح الرجل حتى يترك ما لا يعنيه ويشتغل بما يعنيه فإذا فعل ذلك يوشك أن يفتح الله قلبه.

وقال: ما زهد أحد فيها إلا أنطقه الله بالحكمة.

وقال: عليك بمجالسة من يزيد في علمك قوله ويدعوك إلى الآخرة فعله وإياك ومجالسة من يقللك قوله ويدعوك إلى الدنيا فعله.

وقال رجل: أوصني، فقال: إذا هممت بأمر من طاعة الله فلا تحبسه فواقاً حتى تمضيه فإنك لا تأمن من الأحداث، وإذا هممت بغير ذلك فإن استطعت أن لا تمضيه ولو فواقاً فاجعل لعل الله يحدث بعد ذلك تركه ولا تستحي إذا دعيت لأمر ليس بحق أن تعمل الحق واقرأ: «والله لا يستحي من الحق» وطهر ثيابك ونقها عن معاصي الله وعليك بمعالي الأمور وكبريائها، واتق رذائلها وسفاسفها، فإن الله تعالى يحب معالي الأخلاق، وكثرة تلاوة القرآن واجتهد في الخير واذهب حيث شئت.

وروى الخطيب عن أسد بن الفرات قال: كنت أنا وصاحب لي نلزم مالكاً فلما أردنا الخروج إلى العراق أتيناه مودعين له فقلنا له:

أوصنا، فالتفت إلى صاحبي فقال: أوصيك بالقرآن خيراً، والتفت إلي فقال: أوصيك بهذه الأمة خيراً، قال أسد: فما مات صاحبي حتى أقبل على القرآن والعبادة، وولي أسد القضاء.

فصل
في محنة الإمام مالك بن أنس

إعلم وفقك الله تعالى أن العادة جرت بأن كل ذي نعمة محسود ولا نعمة بعد الإسلام تعدل نعمة العلم والفضل، وفضل مالك مشهور، فلذلك وقع فيه الناس ووشوا به لوالي المدينة وتكلموا فيه بما لا يليق، حتى قال الإمام أحمد: إذا رأيت الرجل يبغض مالكاً فاعلم أنه مبتدع، قال أبو داود: وأخشى عليه من البدعة.

وقال ابن مهدي: إذا رأيت الحجازي يحب مالكاً فاعلم أنه صاحب سنة وإذا رأيت أحداً يتناوله فاعلم أنه [على] خلاف ذلك.

قال ابن سعد: أخبرنا الواقدي قال: لما دُعي مالك بن أنس وسُوّد وسُمع منه وقُبل قوله، شَنّف الناس له وحسدوه وبغوه بكل شيء فلما ولي جعفر بن سليمان المدينة سعوا به إليه وأكثروا عليه عنده وقالوا: لا يرى أيمان بيعتكم هذه بشيء، وهو يأخذ بحديث رواه عن ثابت الأحنف في طلاق المكره أنه لا يجوز فغضب جعفر بن سليمان فدعي بمالك وحده وضربه بالسياط ومدت يداه حتى انخلع كتفاه وارتكب منه أمر عظيم.

وروى أبو نعيم عن أبي داود قال: ضرب جعفر بن سليمان مالك بن أنس في طلاق.

قال ابن وهب: وحمل على بعير فقال: ألا من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا مالك بن أنس بن أبي عامر الأصبحي وأنا أقول طلاق المكره ليس بشيء فبلغ جعفر بن سليمان أنه ينادي على نفسه بذلك فقال: أدركوه وأنزلوه.

وقال: اختلف فيمن ضربه وفي سبب ضربه فالأشهر أن جعفر بن سليمان هو الذي ضربه في ولايته الأولى بالمدينة وأما سببه فقيل إن أبا جعفر نهاه عن حديث «ليس على مستكره طلاق» ثم دس إليه من سأله فحدث به على رؤوس الناس.

وقيل إن الذي نهاه هو جعفر بن سليمان وقيل إنه سُعي به إلى جعفر وقيل له إنه لا يرى أيمان بيعتكم بشيء وقيل أنه أفتى عند قيام محمد بن عبد الله العلوي بأن بيعة أبي جعفر لا تلزم لأنها على الإكراه، على هذا أكثر الرواة. وقال ابن بكير: إنما ضرب في تقديمه عثمان على علي، فقيل لابن بكير: خالفت أصحابك، فقال: أنا أعلم من أصحابي.

والأشهر أن ذلك كان في خلافة أبي جعفر وقيل في أيام الرشيد والأول أصح.

واختلف في مقدار ضربه من ثلاثين إلى مائة ومدت يداه حتى انخلعت كتفيه وبقي على ذلك بطال اليدين لا يستطيع أن يرفعهما ولا أن يسوي رداءه. وقال الداروردي: سمعته يقول حين ضرب: اللهم اغفر لهم فإنهم لا يعلمون. وقال مالك ـ رحمه الله ـ: ما كان علي أشد يوم ضربت من شعر كان في صدري وكان في إزاري خرق ظهرت منه فخذي، فجعلت لله علي أن أستجد الإزار وأن لا أترك علي شعراً.

وكان يقول: ضربت فيما ضرب فيه محمد بن المنكدر وربيعة وابن المسيب، ويذكر قول عمر بن عبد العزيز: ما أغبط أحداً لم يصبه في هذا الأمر أذى.

قال الواقدي وغيره: والله ما زال مالك بعد ذلك الضرب في رفعة عند الناس وعلو من أمره وإعظام الناس له وكأنما كانت تلك السياط التي ضرب بها حلياً حلي بها.

ولما حج المنصور أقاده من جعفر بن سليمان وأرسل إليه ليقتص

منه قال: أعوذ بالله: والله ما ارتفع منها سوط عن جسمي إلا وأنا أجعله في حل من ذلك الوقت لقرابته من رسول الله ﷺ.

وقيل: حمل مغشي عليه فلما أفاق ودخل الناس عليه قال: أشهدكم أني قد جعلت ضاربي في حل، ثم قال في اليوم الثاني: قد تخوفت أن أموت أمس فألقى النبي ﷺ فأستحي منه بأن يدخل بعض آله النار بسببي، فما كان إلا مدة حتى غضب المنصور على ضاربه فضربه ونيل منه أمر شديد.

فصل
في وفاة الإمام مالك بن أنس

قال الواقدي: كان مالك ـ رحمه الله ـ يأتي المسجد ويشهد الصلاة والجنائز ويعود المرضى ويقضي الحقوق ويجيب الدعوة ثم ترك الجلوس في المسجد فكان يصلي وينصرف ثم ترك عيادة المرضى وشهود الجنائز فكان يأتي أصحابها فيعزيهم ثم ترك ذلك كله فلم يكن يشهد الصلاة في مسجد رسول الله ﷺ ولا الجمعة ولا يأتي أحداً يعزيه ولا يقضي له حقاً واحتمل الناس ذلك كله له وكانوا أرغب ما كانوا فيه وأشد تعظيماً حتى مات على ذلك، وكان ربما كُلِّم في ذلك فيقول: ليس كل الناس يقدر أن يتكلم بعذره.

وقال في مختصر المدارك: لما حضرته الوفاة سئل عن تخلفه عن المسجد وكان تخلفه عنه سبع سنين فقال: لولا أني في آخر يوم من الدنيا وأوله من الآخرة ما أخبرتكم، منعني سلس بولي فكرهت أن آتي مسجد رسول الله ﷺ، وكرهت أن أذكر علتي فأشكو ربي.

وقيل: كان اعتراه فتق من الضرب الذي ضربه فكانت الريح تخرج منه فقال: إني أوذي المسجد والناس.

قال ابن عبد البر: ولد مالك سنة ثلاث وتسعين.

وقال ابن عبد الحكم: ولد سنة أربع وتسعين في ربيع الآخر،

وفيها ولد الليث بن سعد، ولا خلاف أنه مات سنة تسع وسبعين ومائة، مرض يوم الأحد فأقام مريضاً اثنين وعشرين يوماً، ومات يوم الأحد لعشر خلون من ربيع الأول.

وقال ابن سعد: لأربع عشرة خلت منه.

وقال مصعب: مات في صفر وصلى عليه عبد الله بن محمد بن إبراهيم الهاشمي أمير المدينة، وحضر جنازته ماشياً، وكان أحد من حمل نعشه.

وترك من الأولاد يحيى ومحمداً وحماد.

وبلغت تركته ثلاثة الآف دينار وثلاثمائة دينار ونيفاً.

وحج هارون الرشيد عام موت مالك فوصل ابنه يحيى بخمسمائة دينار.

وقال سحنون عن عبد الله بن نافع: توفي مالك وهو ابن سبع وثمانين سنة وأقام مفتياً بالمدينة بين أظهرهم ستين سنة.

وأخرج الخطيب عن بكر بن سليم قال: دخلنا على مالك في العشية التي قبض فيها فقلنا: يا أبا عبد الله كيف تجدك؟ قال: ما أدري ما أقول لكم إلا أنكم ستعاينون غداً من عفو الله ما لم يكن لكم في حساب، قال: ثم ما برحنا حتى أغمضناه.

وأخرج أبو نعيم عن الإمام الشافعي قال: قال لي عمي ونحن بمكة: رأيت في هذه الليلة عجباً فقلت له: وما هو؟ قال: رأيت كأن قائلاً يقول: مات الليلة أعلم أهل الأرض، قال الشافعي: فحسبنا ذلك فإذا هو يوم مات مالك بن أنس.

وقال القاضي عياض في المدارك: رأى عمر بن سعد الأنصاري ليلة مات مالك قائلاً يقول: ـ

لقد أصبح الإسلام زعزع ركنه   غداة ثوى الهادي لدى ملحد القبر

إمام الهدى ما زال للعلم صائناً   عليه سلام الله في آخر الدهر

قال فانتبهت فكتبت البيتين في السراج وإذا الصارخة على مالك.

ولما بلغ حماد بن زيد نعي مالك قال: رحمه الله كان من الدين بمكان.

ولما بلغ سفيان موت مالك قال: ما ترك على الأرض مثله.

وقال القعنبي: كنا عند حماد بن زيد فجاءه نعي مالك فقال: رحم الله أبا عبد الله، والله ما خلف مثله، وفي رواية المروزي قال: اللهم أحسن علينا الخلافة بعده.

وقال سعيد بن عبد الجبار: كنا عند سفيان بن عيينة فأتاه نعي مالك فقال: والله مات سيد المسلمين.

ورثاه الأئمة نظماً ونثراً وعرضوا في ذلك بموطاه فمن ذلك قول بعضهم: -

أقول لمن يروي الحديث ويكتب   ويسلك سبل الفقه فيه ويطلب
فبادر موطأ مالك قبل فوته   فما بعده إن فات للعلم مطلب
ودع للموطأ كل علم تريده   فإن الموطأ الشمس والعلم كوكب
هو الأصل طاب الفرع منه لأصله   ولم لا يطيب الفرع والأصل طيب
لقد أعربت آثاره ببيانها   فما أن لها في العالمين مكذب
ومما به أهل الحجاز تفاخروا   بأن الموطأ في العراق محبب
ومن لم تكن كتب الموطأ ببيته   فذاك من التوفيق بيت مخيب
ولو بالموطأ يعمل الناس كلهم   لأمسوا وما منهم على الأرض مذنب
جزى الله عنا مالكاً خير عالم   بأفضل ما يجزي اللبيب المهذب
لقد رفع الرحمن بالعلم قدره   غلاماً وكهلاً ثم إذ هو أشيب
أتعجب منه إذ علا في حياته   تعاليه من بعد المنية أعجب

لقد فاق أهل العلم شرقاً ومغرباً فأضحت به الأمثال في الناس تضرب
وما فاقهم إلا بتقوى وخشية وإذ كان يرضى في الإله ويغضب
فلا زال يسقى قبره كل عارض بمنعبق ظلت عواليه تسكب
وتسقى قبوراً حوله دون سقيه فيصبح فيها نبتها وهو معشب
وما بي بخل أن تسقى كسقيه ولكن حق العلم أولى وأوجب

ورئي له بعد موته منامات حسنة:

فقال بشير بن بكر: رأيت الأوزاعي في النوم مع جماعة من العلماء في الجنة فقلت: أين مالك بن أنس؟ فقيل: رفع، قلت: بماذا؟ قال: بصدقه.

ورآه بعض الصالحين بعد موته في منامه فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، قال: بماذا؟ قال: بكلمة سمعتها عن عثمان، كان إذا رأى ميتاً قال: سبحان الحي الذي لا يموت، فأدمتها فأدخلني الله بها الجنة.

رضي الله عنه ونفعنا به آمين.

والله سبحانه أعلم.

الباب الثالث

في مناقب الإمام أبي عبد اللَّه محمد بن إدريس الشافعي

رضي اللَّه عنه

وهو الإمام العلم الحجة الضابط المتقن المجتهد البارع، عالم الإسلام وناصر الحديث.

أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف، رابع أجداد النبي ﷺ القرشي المطلبي الشافعي.

أحد الأئمة المجتهدين، وأحد أئمة المذاهب المتبوعة.

ولد سنة خمسين ومائة، قال الربيع: في اليوم الذي مات فيه أبو حنيفة ففيه إشارة إلى أنه يخلفه في فنه، وعاش أربعاً وخمسين سنة، فهو أقصر الأئمة الأربعة عمراً.

وتوفي بمصر المحروسة سنة أربع ومائتين، ودفن بالقرافة وقبره بها ظاهراً يزار عليه من الأنس والجلالة ما لا يخفى.

حملت به أمه أربع سنين.

وولد ـ رحمه الله تعالى ـ بغزة وقيل بعسقلان، وقيل باليمن، وقيل بمنى، والأول أصح.

قال رحمه الله: ولدت بغزة وحملتني أمي إلى عسقلان، وحملت إلى مكة وأنا ابن سنتين، وقيل عشر سنين.

قال الحافظ ابن حجر: الذي يجمع الأقوال أنه ولد بغزة عسقلان، ولما بلغ سنة حولته أمه إلى الحجاز وذهبت به إلى قومها،

وهم أهل اليمن لأنها كانت أزدية فنزلت عندهم، فلما بلغ عشراً خافت على نسبه الشريف أن ينسى ويضيع فحولته إلى مكة.

قال الربيع: كان الشافعي يلبس الثياب الرفيعة من الكتان والقطن البغدادي وكان ربما لبس قلنسوة ليست بمشرفة جداً، ويلبس كثيراً العمامة والخف، وكان لا يأتي عليه يوم إلا تصدق فيه، ويتصدق بالليل لا سيما في رمضان، ويتفقد الفقراء والضعفاء، وكان أكرم الناس مجالسة.

وقال البيهقي عن يونس بن عبد الأعلى: كان الشافعي معتدل القامة واضح الجبهة رقيق البشرة، لونه إلى السمرة أقرب، وفي عارضيه خفة.

وقال الشيخ ابن الصلاح: كان الشافعي طويلاً سائل الخدين، قليل لحمة الوجه، طويل العنق، طويل القصب، أسمر خفيف العارضين يخضب لحيته بالحناء حمراء قانية، حسن الصوت والسمت، عظيم العقل، جميل الوجه مهيباً فصيحاً من آدب الناس، قال: وكان مسقاماً، وعلى أنفه أثر جدري، بادي العنفقة، أبلج مفلج الأسنان.

وقال الإمام النووي: كان الشافعي - رحمه الله - من أنواع المحاسن بالمحل الأعلى والمقام الأسنى لما جمعه الله له من الخيرات ووفقه له من جميل الصفات وسهله عليه من أنواع الكرامات.

فمن ذلك شرف النسب لاجتماعه مع رسول الله ﷺ في جد جده عبد مناف.

ومن ذلك شرف المولد والمنشأ فإنه ولد بالأرض المقدسة ونشأ بمكة.

ومن ذلك أنه أخذ عن الأئمة المبرزين وناظر الحذاق المتفننين ووجد الكتب في العلوم قد مهدت والأحكام قد تقررت فانتخب وتخير وحقق وحبر ولخص طريقة جامعة للنقل والنظر ولم يقتصر كما اقتصر

غيره، مع ما رزق من كمال الفهم وعلو الهمة والبراعة في جميع الفنون والمهارة في لغة العرب وإتقان معرفة كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ورد بعض ذلك إلى بعض حتى أذعن لفضله المخالف والموافق واعترف بتقدمه المفارق والمرافق، فبارك الله في علومه الباهرة ومحاسنه المتظاهرة إلى أن انتشرت تصانيفه في سائر الأقطار وكثر الآخذون عنه لطريقته في سائر الأمصار وملأ علمه طبق الأرض شرقاً وغرباً، براً وبحراً، فكان ذلك مصداق الحديث الذي أخبر به الصادق المصدوق في حديث ابن مسعود وأبي هريرة وعلي بن أبي طالب وابن عباس.

فعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا قريشاً فإن عالمها يملأ الأرض علماً، اللهم أذقت أولها عذاباً فأذق آخرها نوالاً» أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده وأبو نعيم في الحلية وأخرجه البيهقي.

وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «اللهم اهد قريشاً فإن عالمها يملأ طبق الأرض علماً، اللهم كما أذقتهم عذاباً فأذقهم نوالاً، دعى بها ثلاث مرات» أخرجه الحافظ ابن حجر.

وعن علي بن أبي طلب قال: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تؤموا قريشاً واتموا بها ولا تقدموا على قريش وقدموها ولا تعلموا قريشاً وتعلموا منها، فإن أمانة الأمين من قريش تعدل أمانة اثنين من غيرهم وإن علم عالم قريش يسع طباق الأرض» وفي رواية «فإن علم عالم قريش مبسوط على الأرض» أخرجه الحاكم وأخرج بعضه أبو بكر البزار في مسنده وأبو بكر بن أبي خيثمة في تاريخه.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم اهد قريشاً فإن علم العالم منهم يسع طبقات الأرض، اللهم أذقت أولها نكالاً فأذق آخرها نوالاً» وهذا رجاله رجال الصحيح إلا إسماعيل بن مسلم ففيه مقال، لكن قال الحافظ البيهقي: إذا ضُمت طرق هذا الحديث بعضها

إلى بعض أفاد قوة وعرف أن للحديث أصلاً، قال ابن حجر: وهو كما قال لتعدد مخارجها وشهرتها.

قال أبو نعيم الجرجاني ما ملخصه: كل عالم من علماء قريش من الصحابة فمن بعدهم وإن كان علمه قد ظهر وانتشر لكنه لم يبلغ من الشهرة والكثرة والانتشار في جميع أقطار الأرض مع تباعدها ما وصل علم الشافعي حتى غلب على الظن أنه المراد بالحديث، وقد سبق إلى تنزيل هذا الحديث على الشافعي الإمام أحمد بن حنبل في الحديث الذي بعده.

وقال البزار: سمعت عبد الملك بن عبد الحميد الميموني يقول: كنت عند أحمد بن حنبل فجرى ذكر الشافعي فرأيت أحمد يرفعه وقال: يروى عن النبي ﷺ يقول: «إن الله يقيض في رأس كل مائة سنة من يعلم الناس دينهم» قال: فكان عمر بن عبد العزيز على رأس المائة الأولى وأرجو أن يكون الشافعي على رأس المائة الأخرى.

وورد هذا أيضاً عن الإمام أحمد من رواية أبي بكر المروزي وأبي سعيد العرياني وحميد بن زنجويه.

وحديث أبي هريرة: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» أخرجه الحاكم وأبو داود وابن عدي وجماعة من الحفاظ.

وقال الربيع: سمعت الشافعي يقول: كنت ببغداد فرأيت في المنام كأن علي بن أبي طالب دخل وقعد عندي ونزع خاتمه من يده وجعله في يدي، فقال لي معبر: إن صدقت رؤياك لم يبق موضع في الشرق ولا في الغرب يذكر فيه علي إلا ذكرت فيه. أخرجه الحاكم.

فصل
فيمن روى عنه الشافعي

روى ـ رضي الله عنه ـ عن مالك بن أنس ووكيع بن الجراح

ويحيى القطان ومسلم بن خالد الزنجي وعبد الله بن المبارك والفضيل بن عياض ومحمد بن الحسن ومطرف بن مازن وسفيان بن عيينة وإبراهيم بن سعد الزهري وأيوب بن سويد الرملي وسعيد بن سالم والضحاك بن عثمان الحزامي وخلائق من المشايخ نقل عنهم العلم من الفقه والحديث والأخبار، سمع منهم بمكة والمدينة واليمن والعراق ومصر، وكان مكثراً من الحديث، ولم يكثر من الشيوخ كعادة أهل الحديث لإقباله على الاشتغال بالفقه حتى حصل منه ما حصل.

وكان معظماً للآثار مقدماً لها على الرأي متى بلغه الحديث لم يتجاوز القول بمقتضاه، وكان معظم أحاديث الأحكام حاصلة عنده، وكانت رياسة الفقه بمكة قد انتهت إلى ابن جريج فأخذ كتبه التي فيها علمه عن أربعة أنفس، مسلم بن خالد وسعيد بن سالم وهما فقيهان وعبد الحميد بن عبد العزيز بن أبي رواد وكان أعلمهم بابن جريج وعبد الله بن الحارث المخزومي وكان من الأثبات، وانتهت رياسة الفقه بالمدينة إلى مالك بن أنس فرحل إليه ولازمه وأخذ عنه، وانتهت رياسة الفقه بالعراق إلى أبي حنيفة فأخذ عن صاحبه محمد بن الحسن حِمْلُ جملٍ ليس فيها شيء إلا وقد سمعه عليه فاجتمع له علم أهل الرأي وعلم أهل الحديث فتصرف في ذلك حتى أصّل الأصول وقعّد القواعد وأذعن له الموافق والمخالف واشتهر أمره وعلا ذكره وارتفع قدره حتى صار منه ما صار، وروى عنه الأئمة من سائر الأقطار.

فصل
فيمن روى عن الشافعي

روى عنه الأئمة أحمد بن حنبل ويحيى بن سعيد القطان وعبد الرحمن بن مهدي ومسلم بن خالد وأبو بكر الحميدي وسفيان بن عيينة وأبو ثور الكلبي أحد الفقهاء المجتهدين وإسحاق بن راهويه أحد الأئمة والمزني والبويطي والربيع والزعفراني وسليمان بن داود أحد الفقهاء الأئمة وعبد الملك الأصمعي إمام اللغة المشهور وعبد الملك بن هشام

المصري النحوي صاحب النحو وصاحب السيرة النبوية وعلي بن المديني الإمام المشهور من شيوخ البخاري وقتيبة بن سعيد شيخ الأئمة الخمسة وعمرو بن أبي سلمة المشهور روى له الستة وأحمد بن خالد الخلال البغدادي من شيوخ الترمذي والنسائي وأحمد بن سعيد الهمذاني من شيوخ أبي داود وأحمد بن سنان من شيوخ البخاري ومسلم وأبي داود وأحمد بن عبد المقري المعروف بقنبل وأحمد بن يحيى بن الوزير المصري من شيوخ النسائي وأبو نعيم الفضل بن دكين شيخ البخاري والحارث بن سليمان الرملي من شيوخ أبي زرعة الرازي وأبو حاتم السجستاني أحد الأئمة في العربية من شيوخ أبي داود والنسائي وعبد الكريم الجرجاني قاضي مكة وابن الماجشون الفقيه المالكي المشهور وأشهب المصري صاحب الإمام مالك، ذكره ابن عبد البر فيمن أخذ عن الشافعي، وتعقبه القاضي عياض في المدارك فقال: إنما كانا يتناظران، قال ابن حجر: وهو تعقب عجيب فإن ذلك لا يمنع أن يكون حكى عنه شيئاً، وابن عبد الحكم المصري أحد الأئمة في الفقه وخلائق آخرون من أهل مصر والشام والعراق والحجاز واليمن أضربنا عنهم خوف التطويل.

فصل
فيما اتفق له من كبار الأصحاب والرواة

* كان [له] من كبار الأصحاب مثل الإمامين المجتهدين الإمام أحمد الذي شهرته تغني عن إيراد شيء من خبره وسيأتي الكلام عنه.

* والإمام المجتهد أبو ثور إبراهيم بن خالد بن اليماني الكلبي البغدادي[1]، كان من كبار الفقهاء وصحبه الشافعي ببغداد، وكان أحمد

---

(١) قال الذهبي: إبراهيم بن خالد الإمام الحافظ الحجة المجتهد مفتي العراق أبو ثور الكلبي البغدادي الفقيه، قال عنه أبو حاتم ابن حبان: كان أحد أئمة الدنيا فقهاً وعلماً وورعاً وفضلاً صنف الكتب وفرع على السنن وذب عنها رحمه الله تعالى. روى له أبو داود وابن ماجه ت ٢٤٠هـ.
سير أعلام النبلاء ١٢/ ٧٢ (١٩) تهذيب الكمال، ٢/ ٨٠ (١٦٩).

يعظم أبا ثور حتى قال: هو عندي في مسلاخ الثوري، وقال لرجل سأله عن مسألة: ما سأل الفقهاء مثل أبي ثور، وقال الأعين: سألت أحمد عنه فقال: أعرفه بالسنة منذ خمسين سنة، وكان من أقران الإمام أحمد، ومات قبله في السنة التي مات فيها، أو في التي قبلها.

* وكان له من كبار الرواة مثل الحميدي أبو بكر عبد الله بن الزبير بن عيسى القرشي الأسدي المكي[1]، صحب ابن عيينة فأكثر عنه وهو من أصح الناس عنه حديثاً ولازم الشافعي بمكة ودخل معه إلى مصر وأقام معه إلى أن مات، وهو من كبار شيوخ البخاري.

قال أبو حاتم الرازي: كان رئيس أصحاب ابن عيينة وهو ثقة إمام.

وقال أبو يعقوب بن سفيان: ما رأيت أنصح للإسلام وأهله منه.

وقال ابن عدي: كان من خيار الناس.

وقال ابن حبان: كان صاحب سنة وفضل ودين.

* ومثل سليمان بن داود البغدادي[2] أحد الأعلام، كان أحمد يجله ويعظمه حتى قال: لو قيل لي: اختر للأمة من يستخلف عليهم لاخترته.

وقال أبو حاتم: كان من الأئمة.

---

(١) قال الذهبي: عبد الله بن الزبير بن عيسى الإمام الحافظ الفقيه شيخ الحرم أبو بكر القرشي الأسدي الحميدي المكي صاحب المسند روى له البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي ت ٢١٩هـ.
سير أعلام النبلاء ١٠/٦١٦ (٢١٢) تهذيب الكمال ١٤/٥١٢ (٣٢٧٠).

(٢) قال الذهبي: سليمان بن داود ابن الأمير داود بن علي بن الحبر عبد الله بن العباس الشريف الإمام البارع الحافظ السري أبو أيوب الهاشمي العباسي من كبار الأئمة، روى له الأربعة. ت ٢١٩هـ.
سير أعلام النبلاء ١٠/٦٢٥ (٢١٥) تهذيب الكمال ١١/٤١٣ (٢٥١٠).

وقال الشافعي: ما رأيت أعقل من هذين الرجلين: أحمد بن حنبل وسليمان بن داود.

* وكان له من كبار رواة الفقه مثل أبي يعقوب البويطي[1] الإمام المشهور عالم الإسلام وأحد رواة الجديد وأكبرهم قدراً وأغزرهم علماً وهو الذي أقامه الشافعي مقامه حين مات.

* ومثل حرملة[2] بن يحيى المصري أخذ العلم عن ابن وهب وغيره، ثم لزم الشافعي لما قدم مصر وحمل عنه الفقه والحديث، وهو أحد رواة كتب الشافعي الجديدة، وهو الذي نقل عن الشافعي أنه قال: ما تقرب أحد إلى الله بعد أداء ما افترض عليه بأفضل من طلب العلم.

وقال يحيى بن معين: كان أعلم الناس بابن وهب.

* ومثل الزعفراني[3] أبو محمد الحسن بن محمد الزعفراني وهو أحد رواة القديم عن الشافعي، قال الماوردي: هو أثبتهم، روى عنه

---

(١) قال الذهبي: الإمام العلامة سيد الفقهاء يوسف أبو يعقوب بن يحيى المصري البويطي صاحب الإمام الشافعي لازمه مدة وتخرج به وفاق الأقران وكان إماماً في العلم قدوة في العمل زاهداً ربانياً متهجداً دائم الذكر والعكوف على الفقه ت ٢٣١هـ.

سير أعلام النبلاء ١٢/ ٥٨ (١٣) تهذيب الكمال ٣٢/ ٤٧٢ (٧١٦٣).

(٢) قال الذهبي: حرملة بن يحيى بن عبد الله بن حرملة الإمام الفقيه المحدث الصدوق أبو حفص التجيبي مولاهم المصري روى له مسلم وابن ماجه والنسائي ت ٢٤٣هـ.

سير أعلام النبلاء ١١/ ٣٨٩ (٨٤) تهذيب الكمال ٥/ ٥٤٨ (١١٦٦).

(٣) قال الذهبي: الإمام العلامة شيخ الفقهاء والمحدثين أبو علي الحسن بن محمد بن الصباح البغدادي الزعفراني قرأ على الشافعي كتابه القديم وكان مقدماً في الفقه والحديث ثقة جليلاً عالي الرواية كبير المحل روى له البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي ت ٢٦٠هـ.

سير أعلام النبلاء ١٢/ ٢٦٢ (١٠٠) تهذيب الكمال ٦/ ٣١٠ (١٢٧٠).

البخاري في صحيحه وأصحاب السنن الأربعة وابن خزيمة في صحيحه، وكان فصيحاً عالماً، وكان الإمام أحمد وأبو ثور يحضران عند الشافعي وكان الزعفراني هو الذي يتولى لهم القراءة، وشارك الشافعي في الرواية عن سفيان بن عيينة.

* ومثل المزني[١] أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى، سمع من علي بن سعيد ونعيم بن حماد ولزم الشافعي لما قدم مصر وصنف المبسوط والمختصر من علم الشافعي واشتهر في الآفاق وحمله عنه أهل الحجاز والشام والعراق وغيرهم. أخذ عنه الأئمة كابن خزيمة وزكريا الساجي وابن أبي حاتم والطحاوي وأبي بكر النيسابوري، وكان آية في الحجاج والمناظرة عابداً عاملاً متواضعاً.

* ومثل يونس بن عبد الأعلى بن موسى[٢]، قرأ على ورش وأقرأ، وسمع على سفيان بن عيينة وابن وهب والوليد بن مسلم وجماعة ولازم الشافعي وتفقه عليه، قرأ عليه محمد بن الربيع وابن خزيمة وأبو بكر بن زياد النيسابوري وغيرهم، وكان عارفاً عالماً ورعاً فاضلاً نبيلاً عاقلاً أثنى الشافعي على عقله.

* ومثل ابن عبد الحكم محمد بن عبد الله بن عبد الحكم[٣]،

---

(١) قال الذهبي: الإمام العلامة فقيه الملة علم الزهاد أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل المزني المصري تلميذ الشافعي وهو قليل الرواية ولكنه كان رأساً في الفقه ت ٢٦٤هـ.
سير أعلام النبلاء ١٢/٤٩٢ (١٨٠).

(٢) قال الذهبي: يونس بن عبد الأعلى بن ميسرة الإمام شيخ الإسلام أبو موسى الصدفي المصري المقرىء الحافظ قرأ القرآن على ورش صاحب نافع وكان من كبار العلماء في زمانه روى له مسلم والنسائي وابن ماجه ت ٢٦٤هـ.
سير أعلام النبلاء ١٢/٣٤٨ (١٤٤)، تهذيب الكمال ٣٢/٥١٣ (٧١٧٨).

(٣) قال الذهبي: محمد بن عبد الله بن عبد الحكم الإمام شيخ الإسلام أبو عبد الله المصري الفقيه وكان عالم الديار المصرية في عصره مع المزني روى له النسائي ت ٢٦٨هـ. =

سمع من أبيه ومن ابن وهب وأبي ضمرة وبشر بن بكر وأيوب بن سويد وشعيب بن الليث وجماعة ولزم الشافعي منذ قدم مصر وأكثر عنه وتفقه.

روى عنه النسائي وابن خزيمة وابن صاعد وابن أبي حاتم وأبو بكر بن زياد وآخرون.

وكان الشافعي معجباً به لذكائه وحرصه، وكان أهل مصر لا يعدلون به أحداً.

وقال المزني: نظر الشافعي إليه فاتبعه بصره فقال: وددت لو أن لي ولداً مثله وعلي ألف دينار ولا أجد لها قضاء.

وقال أبو إسحاق الشيرازي: انتهت إليه رياسة العلم بمصر وكان الشافعي قد نزل على أبيه عبد الله أول ما قدم ثم لما مات دفن في تربتهم.

* ومثل الربيع بن سليمان بن عبد الجبار[1]، سمع من عبد الله بن وهب وأيوب بن سويد وبشر بن بكر وأسد بن موسى، وسمع من الشافعي ولازمه وتحقق بصحبته وانتشر عنه علمه، روى عنه أبو داود والنسائي وابن ماجه والترمذي بالإجازة وأبو زرعة وأبو حاتم وابن أبي حاتم وزكريا الساجي والطحاوي وأبو محمد بن صاعد وآخرون.

وللشافعي من كبار الرواة ومشاهير الأصحاب ما أضربنا عنه خوف الإطالة.

= سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٩٧ (١٨١) تهذيب الكمال ٢٥/ ٤٩٧ (٥٣٥٤).

(١) قال الذهبي: الربيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل الإمام المحدث الفقيه الكبير بقية الأعلام أبو محمد المرادي مولاهم المصري المؤذن صاحب الإمام الشافعي وناقل علمه وشيخ المؤذنين بجامع الفسطاط ومستملي مشايخ وقته. روى له الأربعة ت ٢٧٠هـ.

سير أعلام النبلاء ١٢/ ٥٨٧ (٢٢٢) تهذيب الكمال ٩/ ٨٧ (١٨٦٤).

فصل
في ثناء الائمة

قد أكثر الأئمة وعلماء الأمة في الثناء عليه وأطنبوا في ذكره لا سيما الإمام الجليل أحمد بن حنبل.

قال عبد الله بن أحمد: كان أبي يصف الشافعي فيطنب في وصفه وقد كتب عنه أبي حديثاً كثيراً وكتب من كتبه بعد موته أحاديث كثيرة مما كان سمعه منه.

وقال البغوي: سمعت أحمد بن حنبل يقول: كان الفقه قفلاً على أهله حتى فتحه الله بالشافعي.

وقال أبو داود: ما رأيت أحمد يميل إلى أحد ميله إلى الشافعي.

وقال الفضل بن زياد: سمعت أحمد بن حنبل يقول: ما أحد مس محبرة ولا قلماً إلا وللشافعي في عنقه منة.

قال الإمام النووي: هذا قول إمام أصحاب الحديث وأهله ومن لا يختلف الناس في ورعه وفضله، ثم قال: إن الإمام أحمد قال: إن الشافعي مكنه الله تعالى من أنواع العلوم حتى عجز لديه المناظرون من الطوائف وأصحاب الفنون.

وقال عبد الله بن أحمد: سمعت أبي يقول: لولا الشافعي ما عرفنا فقه الحديث.

وقال محمد بن عوف: سمعت أحمد بن حنبل يقول: الشافعي فيلسوف في أربعة أشياء في اللغة واختلاف الناس والمعاني والفقه.

وقال جعفر بن أحمد: قال أحمد بن حنبل: كلام الشافعي في اللغة حجة.

وقال إبراهيم الحربي: سألت أحمد عن الشافعي فقال: حديثه صحيح ورأيه صحيح.

وقال يحيى بن المختار: سمعت أحمد وذكر الشافعي فقال: ما رأيت أفصح منه ولا أفهم للعلوم منه.

وقال أبو إسماعيل الترمذي: سمعت أحمد يقول: رحم الله الشافعي لقد كان يذب عن الآثار.

وقال الميموني: قال لي أحمد بن حنبل: مالك لا تنظر في كتب الشافعي؟ ما من أحد وضع الكتب منذ ظهرت السنة أتبع من الشافعي.

وقال محمد بن عبد الرحمن: سمعت أحمد بن حنبل يقول: كانت أقضيتنا في أيدي أصحاب أبي حنيفة ما تنزع حتى رأينا الشافعي، فكان أفقه الناس في كتاب الله وفي سنة رسول الله ﷺ.

وقال ابن إسحاق بن راهويه: لقيني أحمد بن حنبل بمكة فقال: تعال أريك رجلاً لم تر عيناك مثله، قال فجاء فأقامني على الشافعي.

وقال محمد بن الفضل: سمعت أبي يقول: حججت مع أحمد بن حنبل فنزلت في مكان معه، فخرج باكراً وخرجت بعده [فدرت] المسجد فلم أجده في مسجد ابن عيينة ولا غيره حتى وجدته جالساً مع أعرابي فقلت: يا أبا عبد الله تركت ابن عيينة وجئت إلى هذا، فقال: اسكت إنك إن فاتك حديث بعلو وجدته بنزول وإن فاتك عقل هذا أخاف أن لا تجده، ما رأيت أحداً أفقه في كتاب الله من هذا الفتى قلت: من هذا؟ قال: محمد بن إدريس الشافعي.

وقال صالح بن الإمام أحمد: جاء الشافعي إلى أبي زائراً وهو عليل يعوده فوثب أبي إليه فقبل ما بين عينيه وأجلسه في مكانه وجلس بين يديه فلما قام ليركب راح أبي فأخذ بركابه ومشى معه.

وروى الخطيب من طريق صالح بن أحمد قال: مشى أبي مع بغلة الشافعي فبعث إليه يحيى بن معين - يعني يعاتبه - فقال: فقال

أحمد: لو مشيت من الجانب الآخر كان أنفع لك، وفي رواية أخرى مشى أبي مع بغلة الشافعي فبعث إليه يحيى بن معين فقال: يا أبا عبد الله ما رضيت إلا أن تمشي مع بغلة الشافعي فقال: يا أبا زكريا لو مشيت من الجانب الآخر كان أنفع لك. وروى ابن عدي وجه آخر: أن الشافعي لما قدم بغداد لزمه أحمد يمشي مع بغلته فأخلا الحلقة التي كانت يجتمع فيها مع يحيى بن معين وأقرانه فذكر نحوه، وفي رواية أخرجها أبو نعيم قال: فقال أحمد ليحيى: لو أردت الفقه فالزم ذنب البغلة.

وقال الفضل بن زياد: قال أحمد: هذا الذي ترونه كله أو عامته من الشافعي وما بت منذ ثلاثين سنة إلا وأنا أدعو الله للشافعي وأستغفر له، وقال الغزالي في الإحياء أربعين سنة.

ولكثرة دعائه له قال له ابنه: أي رجل كان الشافعي؟ حتى تدعو له كل هذا الدعاء، فقال: يا بني كان الشافعي كالشمس للدنيا وكالعافية للناس. فرحمة الله تعالى على هذا الإمام حيث عرف الإنصاف لأهله.

وقال عبد الرحمن بن مهدي: سمعت مالكاً يقول: ما يأتيني قرشي أفهم من هذا الفتى - يعني الشافعي -.

وكان إبراهيم الحربي يقول: قال أستاذ الأستاذين، فقيل له: من هو؟ فقال: الشافعي أليس هو أستاذ أحمد بن حنبل؟

قلت:

كفى الشافعي شرفاً ومدحة أن أحمد بن حنبل تلميذه، وكفى أحمد شرفاً أن الشافعي شيخه.

وقال ابن بنت الشافعي: سمعت أبي يقول: كنا عند ابن عيينة وكان إذا جاء شيء من التفسير والفتيا يسأل عنها التفت إلى الشافعي فقال: سلو هذا. ولما قيل لسفيان بن عيينة مات محمد بن إدريس

فقال: إن كان مات فقد مات أفضل أهل زمانه. أخرجه البيهقي.

وقال الحميدي: كان ابن عيينة ومسلم بن خالد وسعيد بن مسلم وعبد المجيد بن عبد الحميد وشيوخ أهل مكة يصفون الشافعي ويعرفونه من صغره مقدماً عندهم بالذكاء والعقل والصيانة، لم تعرف له صبوة.

وقال الحميدي: سمعت الزنجي بن خالد - يعني مسلماً - يقول للشافعي: أفت يا أبا عبد الله فقد آن لك والله أن تفتي، وهو ابن خمس عشرة سنة.

وأخرج الخطيب من طريق أخرى عن الربيع عن الحميدي قال: قال مسلم بن خالد للشافعي: أفت الناس فقد آن لك والله أن تفتي.

وقال محمد بن الحسن: إن تكلم أصحاب الحديث يوماً فبلسان الشافعي.

وقال الحسين بن علي الكرابيسي: سمعت الشافعي يقول: سمعت ابن الحسن ما لا أحصيه يقول لأصحابه: إن تابعكم الشافعي فما عليكم من حجازي بعده كلفة.

وقال يحيى بن أكثم عن الشافعي: كنا عند محمد بن الحسن في المناظرة فكان الشافعي رجلاً قرشي العقل والفهم والذهن، صافي العقل والفهم والدماغ، سريع الإصابة، ولو كان أمعن في الحديث لاستغنت به أمة محمد ﷺ عن غيره من العلماء.

وقال يحيى بن سعيد القطان: إني لأدعو الله للشافعي في كل صلاة أو في كل يوم لما فتح الله عليه من العلم ووفقه السداد فيه. رواه ابن أبي حاتم.

وقال يحيى بن سعيد القطان أيضاً: إني لأدعو الله للشافعي أخصه بذلك. رواه البيهقي.

وقال أيضاً: ما رأيت أعقل أو أفقه منه - يعني الشافعي -.

وقال ابن وهب: الشافعي من أئمة العلماء.

وقال عبد الرحمن بن مهدي: ما أصلي صلاة إلا وأنا أدعو للشافعي فيها.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: ما رأيت رجلاً أعقل من الشافعي، وفي رواية ولا أروع ولا أفصح.

وقال ابن بنت الشافعي: دخل الشافعي على هارون الرشيد فسمع كلامه فقال: أكثر الله في أهلي مثلك.

وقال معمر بن شبيب: سمعت المأمون يقول: امتحنت محمد بن إدريس في كل شيء فوجدته كاملاً.

وقال أيوب بن سويد: ما ظننت أني أعيش حتى أرى مثل هذا الرجل قط.

وقال الزعفراني: ما رأيت أفضل ولا أكرم ولا أسخى ولا أتقى ولا أعلم منه.

وقال أيضاً: كان أصحاب الحديث رقوداً حتى أيقظهم الشافعي رضي الله عنه.

وقال قتيبة بن سعد: رأيت الشافعي بمكة فذكر قصة فقال: لو وصلت إلى كلامه لكتبته ما رأت عيناي أكيس منه.

وقال ابن عبد الحكم: قال لي أبي: يا بني إلزم هذا الرجل فما رأيت أبصر منه بأصول الفقه أو قال بأصول العلم.

وقال علي بن المديني لعلي بن المبارك: عليك بكتب الشافعي.

وقال محمد بن علي بن المديني: قال لي أبي: لا تترك للشافعي حرفاً واحداً إلا كتبته فإن فيه معرفة.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق حسين بن علي الكرابيسي قال: ما كنا ندري ما الكتاب ولا السنة والإجماع حتى سمعنا الشافعي

يقول: الكتاب والسنة والإجماع.

وقال يونس بن عبد الأعلى: ما رأيت أحداً أعقل من الشافعي لو جعلت أمة في عقل الشافعي لوسعهم عقله.

وقال الربيع بن سليمان: لو وزن عقل الشافعي بنصف عقل أهل الأرض لرجحهم ولو كان في بني إسرائيل لاحتاجوا إليه.

وقال يحيى بن أكثم: ما رأيت رجلاً أعقل من الشافعي.

وحكى إسحاق بن راهويه مناظرته مع الشافعي ثم قال: نظرنا بعد في كتبه فوجدنا الرجل من علماء الأمة.

وقال إمام أهل الظاهر داود الظاهري: قال لي إسحاق بن راهويه: ذهبت أنا وأحمد بن حنبل إلى الشافعي بمكة فسألته عن أشياء فوجدته فصيحاً حسن الأدب فلما فارقناه أعلمني جماعة من أهل الفهم بالقرآن أنه أعلم الناس في زمانه بمعاني القرآن وأنه قد أوتي فيه فهماً فلو كنت عرفته للزمته، فقال داود: فرأيته يتأسف على ما فاته منه، وفي رواية قال لإسحاق: لو علمت أنه بهذا المحل لم أفارقه.

وقال الحسن بن علي القرطبي: كنت عند أبي ثور فجاءه رجل فقال: سمعت فلاناً يقول قولاً عظيماً سمعته يقول: الشافعي أفقه من الثوري، فقال أبو ثور: أفتنكر أن يقال الشافعي أفقه من الثوري؟ هو عندي أفقه من النخعي والثوري.

وقال أبو ثور: ما رأيت مثل الشافعي ولا رأى الشافعي مثل نفسه.

وكان الحميدي إذا ذكر عنده الشافعي يقول: حدثنا سيد الفقهاء.
وقال الإمام مسلم في مسألة: هذا قول أهل العلم بالحديث ممن يعرف بالفقه فيه والإتباع له، منهم يحيى القطان وعبد الرحمن بن مهدي ومحمد بن إدريس الشافعي وأحمد وإسحاق، وهكذا يقول الترمذي في عدة مواضع من جامعه.

وقال الربيع وقد ذكر الشافعي: لو رأيتموه لقلتم أن هذه ليست كتبه، كان والله لسانه أكبر من كتبه.

وقال علي بن معبد: ما عرفنا الحديث حتى جاءنا الشافعي.

وقال أبو نعيم الفضل: ما رأينا ولا سمعنا أعقل عقلاً ولا أحضر فهماً ولا أجمع علماً من الشافعي.

وقال حجاج بن الشاعر: منَّ الله على هذه الأمة بأربعة: الشافعي تفقّه في الحديث، وأحمد تمسّك بالسّنة، وأبو عبيد فسّر الغريب، ويحيى بن معين نفى الكذب عن حديث رسول الله ﷺ.

وقال قتيبة بن سعيد: مات الثوري ومات الورع ومات الشافعي وماتت السنن ويموت أحمد وتظهر البدع، وقال أيضاً: الشافعي إمام.

وقال أحمد بن سنان: لولا الشافعي لاندرس العلم بالسنن.

وقال أبو القاسم الجنيد: كان الشافعي من المريدين الناطقين بلسان الحق في الدين.

وقال أبو زرعة: ما أعلم أحداً أعظم منة على أهل الإسلام من الشافعي.

وأخرج الخطيب عن ابن عبد الحكم قال: ما رأينا مثل الشافعي، كان أصحاب الحديث ونقاده يجيئون إليه فيعرضون عليه فربما اعتل نقد النقاد منهم ووقفهم على غوامض من نقل الحديث لم يقفوا عليها فيقومون وهم يتعجبون، ويأتيه أصحاب الفقه المخالفون والموافقون فلا يقومون إلا وهم مذعنون له بالحذق والدراية، ويجيئه أصحاب الأدب فيقرؤون عليه الشعر فيفسره، ولقد كان يحفظ عشرة آلاف بيت من شعر هذيل بإعرابها وغرائبها ومعانيها، وكان من أضبط الناس للتاريخ وكان يعينه شيئان وفور عقل وصحة ذهن، وملاك أمره خلاص العمل لله تعالى.

وقال المبرد: رحم الله الشافعي فإنه كان من أشعر الناس وآدب

الناس وأعرفهم بالقرآن.

وقال أبو حسان الزيادي: ما رأيت أحداً أقدر على انتزاع المعاني من القرآن والاستشهاد على ذلك من اللغة من الإمام الشافعي.

وقال ثعلب: يؤخذ عن الشافعي اللغة وهو من بيت اللغة، يجب أن يؤخذ عنه لأنه من أهلها.

وقال عبد الملك بن هشام النحوي: طالت مجالستنا للشافعي فما سمعت منه لحنة قط.

وقال أحمد بن يسار: لولا الشافعي لدرس الإسلام - رضي الله عنه -.

وبالجملة فثناء الأئمة عليه ومدحهم له مما يطول ذكره.

ولقد أحسن الإمام داود بن علي الأصبهاني إمام أهل الظاهر حيث قال فيما أخرجه البيهقي من طريقه: اجتمع للشافعي من الفضائل ما لم يجتمع لغيره، فأول ذلك شرف نسبه ومنصبه وأنه من رهط النبي ﷺ، ومنها صحة الدين وسلامة المعتقد من الأهواء والبدع، ومنها سخاوة النفس، ومنها معرفته بصحيح الحديث وسقيمه، وناسخ الحديث ومنسوخه، ومنها حفظه لكتاب الله ولأخبار رسول الله ﷺ، ومعرفته بسير النبي ﷺ وسير خلفائه، ومنها كشفه التمويه لمخالفيه وتأليفه الكتب، ومنها ما أتفق له من الأصحاب مثل أبي عبد الله أحمد في زهده وعلمه وإقامته على السنة، ومثل سليمان بن داود الهاشمي والحميدي والكرابيسي وأبي ثور والزعفراني والبويطي وحرملة والربيع والحارث بن سريح والقائم بمذهبه أبي إبراهيم المزني، ولم يتفق لأحد من العلماء والفقهاء ما اتفق له من ذلك.

وأخرج الحاكم من طريق الإمام داود بن علي أيضاً أنه قال في مسألة ذكرها: هذا قول مطلبينا الشافعي الذي علاهم بنكته وقهرهم بأدلته وبانهم بشهامته وظهر عليهم بحمازته، التقي في دينه، النقي في

حسبه، الفاضل في نفسه، المتمسّك بكتاب ربه، المقتدي قدوة رسوله، الماحي لآثار أهل البدع، الذاهب بجمرتهم، الطامس لسنتهم، فأصبحوا كما قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾.

فصل
في سعة علمه وإخلاصه فيه وتعظيمه الحديث

قال هارون بن سعيد: سمعت الشافعي يقول: لولا أن نطول على الناس لوضعت في كل مسألة جزء حجج وبيان.

وقال الربيع: أقام الشافعي ها هنا أربع سنين ـ يعني بمصر ـ فأملى ألف وخمسمائة ورقة، وخرج كتاب الأم ألفي ورقة وكتاب السنن وأشياء كثيرة كلها في مدة أربع سنين، وكان عليلاً شديد العلة وربما خرج وهو راكب حتى يمتلىء سراويله وخفه ـ يعني دماً من البواسير ـ.

وقال الربيع أيضاً: لما قدم الشافعي مصر وقعد في مجلسه كان يجالسه رؤساء أصحاب الحلق عبد الله بن عبد الحكم ونظراؤه.

وكان الشافعي حسن الوجه والخلق محبباً إلى أهل مصر من الفقهاء والنبلاء والأعيان، وكان يجلس في حلقته إذا صلى الصبح فيجيء أهل القرآن فيسألونه، فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث فسألوه عن معانيه وتفسيره، فإذا ارتفعت الشمس قاموا واستقرت الحلقة للمناظرة والمذاكرة، فإذا ارتفع النهار تفرّقوا وجاء أهل العربية والعروض والشعر والنحو حتى يقرب انتصاف النهار، ثم ينصرف إلى منزله.

وقال المزني: قيل للشافعي: كيف شهوتك للعلم؟ قال: أسمع بالحرف مما لم أسمعه فتود أعضائي أن لها أسماعاً تتنعم به مثلما تنعمت الأذنان، فقيل له: فكيف حرصك عليه؟ قال: حرص الجموع المنوع في بلوغ لذته للمال، فقيل له: فكيف طلبك له؟ قال: طلب

المرأة المضلة ولدها ليس لها غيره.

وقال الربيع: سمعت الشافعي يقول وهو مريض وذكر ما جمع من الكتب فقال: وددت أن الخلق تعلموه ولا ينسب إلي منه شيء.

وقال حرملة: سمعت الشافعي يقول: وددت أن كل علم أعلمه يعمله الناس أوجر عليه ولا يحمدونني.

وقال البويطي: سمعت الشافعي يقول: لقد ألفت هذه الكتب ولم آل فيها ولا بد أن يوجد فيها الخطأ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ فما وجدتم في كتبي هذه مما يخالف الكتاب والسنة فقد رجعت عنه.

وقال الربيع: سمعت الشافعي يقول: إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بها ودعوا ما قلته.

قال: وسمعته يقول: متى رويت عن رسول الله ﷺ حديثاً صحيحاً ولم آخذ به فأشهدكم أن عقلي قد ذهب.

وقال أيضاً: سمعت الشافعي يقول: كل مسألة تكلمت فيها وصح الخبر فيها عن النبي ﷺ عند أهل الثقة بخلاف ما قلت فأنا راجع عنها في حياتي وبعد موتي.

وقال أيضاً: سمعت الشافعي يقول: أي سماء تظلني وأي أرض تقلّني إذا رويت عن رسول الله ﷺ حديثاً ولم أقل به، وقد اشتهر عنه قوله ـ رضي الله عنه ـ: إذا صحَّ الحديث فهو مذهبي.

وقال الحميدي: سأل رجل الشافعي عن مسألة فأفتاه وقال: قال النبي ﷺ كذا فقال الرجل: أتقول بهذا؟ فقال: يا هذا أرأيت في وسطي زناراً، أرأيتني خارجاً من كنيسة أقول قال النبي ﷺ وتقول لي أتقول بهذا؟

وقال الإمام أحمد: كان الشافعي إذا ثبت عنده الحديث قال به وخير خصاله أنه لم يكن يشتهي الكلام، إنما همته الفقه.

وقال الإمام أحمد أيضاً: أحسن أمر الشافعي أنه كان إذا سمع

الخبر إن لم يكن عنده قال به وترك قوله.

وكان ـ رحمه الله تعالى ـ معظماً للحديث وأهله فقال البويطي: سمعت الشافعي يقول: عليكم بأصحاب الحديث فإنهم أكثر صواباً من غيرهم.

وقال الحسين بن علي الكرابيسي: قال الشافعي: كل متكلم من الكتاب والسنة فهو الحق وما سواه هذيان.

وقال الشافعي: إذا رأيت الرجل من أصحاب الحديث فكأنما رأيت رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ جزاهم الله خيراً حفظوا لنا الأصل فلهم علينا الفضل.

وقد أكثر الأئمة من مشايخه وأقرانه من الثناء عليه ـ رضي الله تعالى عنه ـ.

فصل
في مناظرته وإنصافه ونهيه عن علم الكلام

قال أحمد بن خالد الخلال: سمعت الشافعي يقول: ما ناظرت أحداً فأحببت أن يخطىء.

وقال الحسن بن الصباح: سمعت الشافعي يقول: ما ناظرت أحداً قط إلا على النصيحة.

وقال أبو الوليد: سمعت الشافعي يقول: ما ناظرت أحداً قط فأحببت أن يخطىء.

وقال الحسين بن علي الكرابيسي: سمعت الشافعي يقول: ما ناظرت أحداً قط إلا أحببت أن يوفق أو يسدد ويعان ويكون عليه رعاية من الله وحفظه وما ناظرت أحداً إلا ولم أبال بيَّن الله الحق على لساني أو لسانه.

وعنه: ما ناظرت أحداً قط على الغلبة.

وقال أبو عثمان ابن الشافعي: ما سمعت أبي يناظر أحداً قط فيرفع صوته.

وقال الربيع: قال الشافعي: ما عرضت الحجة على أحد فقبلها إلا عظم في عيني ولا عرضتها على أحد فردها إلا سقط من عيني.

وقال أبو عبد الله بن محمد: جلس الشافعي يوماً في حلقته فجاء غلام حدث فسأله عن مسألة فأجابه ثم سأله عن أخرى فقال: أخطأت، فقال له الشافعي: أخطأت يا ابن أخي ما في كتابك وأما الحق فلا.

وقال الإمام أبو ثور: كنت من أصحاب محمد بن الحسن فلما قدم الشافعي جئت كالمستهزىء فسألته عن مسألة من الدور فلم يجبني وأخذ في مسألة من فروع الصلاة فلما كان بعد شهر وعلم الشافعي أنه قد لزمته للتعلم قال: خذ مسألتك في الدور فإني إنما منعني أن أجيبك يومئذٍ أنك كنت متعبثاً.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي ثور قال: لما ورد الشافعي العراق جاءني الحسين بن علي الكرابيسي، وكان يختلف معي إلى أهل الرأي فقال لي: ورد رجل من أصحاب الحديث يتفقه فقم بنا نسخر منه، فذهبنا إليه فسأله الحسين عن مسألة فلم يزل يقول: قال الله، قال رسول الله حتى أظلم علينا البيت فتركنا ما كنا فيه واتبعناه.

وقد مر قول الإمام أحمد: كانت أقضيتنا في أيدي أصحاب أبي حنيفة ما تنزع حتى رأينا الشافعي، فكان أفقه الناس في كتاب الله وفي سنة رسول الله. وقال مرة بمكة: سلوني عما شئتم أخبركم عنه في كتاب الله فقيل له: ما تقول في المحرم يقتل الزنبور؟ فقال: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ ثم ذكر الحديث: «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر» وأن عمر بن الخطاب أمر أن يقتل المحرم الزنبور.

وقال الزعفراني: كنا نحضر مجلس بشر المريسي وكنا لا نقدر على مناظرته فقدم الشافعي فأعطانا كتاب الشاهد واليمين فدرسته في ليلتين ثم تقدمت إلى حلقة بشر فناظرته فيه فقطعته فقال: ليس هذا من

كيسك هذا من كلام رجل رأيته بمكة معه نصف عقل أهل الدنيا.

وقال زكريا الساجي: سمعت أبا شعيب البصري يقول: ـ وأثنى عليه الربيع خيراً ـ قال: حضرت الشافعي وعن يمينه عبد الله بن عبد الحكم وعن يساره يوسف بن عمرو بن يزيد وحفص الفرد حاضر، فقال لابن عبد الحكم: ما تقول في القرآن؟ فقال: أقول كلام الله، فأقبل على يوسف بن عمرو فقال مثل ذلك، فجعل الناس يومئون إليه أن يسأل الشافعي فقال: يا أبا عبد الله أجب؟ فقال: دع الكلام في هذا فأبى، فقال: القرآن كلام الله غير مخلوق فناظره وتجاريا في الكلام حتى كفّره الشافعي فقام حفص مغضباً، فلقيته بعد في سوق الدجاج بمصر، فقال: رأيت ما فعل بي الشافعي، ثم قال: أما أنه مع هذا لا أعلم إنساناً أعلم منه.

وقال هارون بن سعيد: لو أن الشافعي ـ رضي الله عنه ـ ناظر على هذا العمود الذي من حجارة بأنه من خشب لغلب لاقتداره على المناظرة.

وقال الربيع: ناظر الشافعي رجلاً فدقق والشافعي يجيب ويصيب فعدل الرجل إلى الكلام في مناظرته فقال له الشافعي: هذا غير ما نحن فيه، هذا كلام ولست صاحب كلام، وليست المسألة متعلقة به.

وقال المزني: سألت الشافعي عن مسألة في الكلام فقال: سلني عن شيء إذا أخطأت فيه قلت أخطأت ولا تسألني عن شيء إذا أخطأت فيه قلت كفرت.

وأخرج الحافظ ابن حجر بسنده المتصل إلى الإمام أبي ثور وحسين بن علي الكرابيسي قالا: سمعنا الشافعي يقول: حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد ويحملوا على الإبل ويطاف بهم في العشائر والقبائل وينادى عليهم هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام.

وقال الربيع: أخبرني من سمع الشافعي يقول: لأن يلقى الله

المرء بكل ذنب ما خلا الشرك خير له من أن يلقاه بشيء من هذه الأهواء.

فصل

في تفننه في العلوم

كان ـ رحمه الله تعالى ـ له طول الباع وقوة الملكة في سائر العلوم النقلية والعقلية وقد مر مدح الأئمة له بالحديث والفقه والنحو واللغة والشعر حتى أنه مهر في علم الطب والنجوم.

* أخرج أبو نعيم من طريق أبي حسين البصري قال: سمعت طبيباً بمصر يقول: ورد الشافعي مصر فذاكرني بالطب حتى ظننت أنه لا يحسن غيره فقلت له: أقرأ عليك شيئاً من كلام بقراط؟ فأشار إلى الجامع فقال: إن هؤلاء لا يتركونني.

وقال حرملة: كان الشافعي يتلهف على ما ضيع المسلمون من الطب ويقول: ضيعوا ثلث العلم ووكلوه إلى اليهود والنصارى.

وقال ابن عبد الأعلى: سمعت الشافعي يقول: إحذر أن تتناول لهؤلاء الأطباء دواء إلا دواء تعرفه.

* وأما علم النجوم فكان وهو حدث ينظر في علم النجوم وما نظر في شيء إلا تفقه فيه وفهمه، فجلس يوماً وامرأة رجل تطلق فحسب فقال: تلد جارية عوراء على فرجها خال وتموت لكذا فولدت فكان كما قال فجعل على نفسه أن لا ينظر في النجوم أبداً ودفن تلك الكتب التي كانت عنده. أخرجه الحافظ ابن حجر.

وأخرج الحاكم من طريق حرملة قال: كان الشافعي ينظر في النجوم وكان له صديق فذكر القصة وفيها، فقال: تلد إلى سبعة وعشرين يوماً، وقال: في فخذه الأيسر خال أسود ويعيش أربعة وعشرين يوماً ثم يموت فجأة، وقال فيها: فأحرق الشافعي تلك الكتب وما عاد نظر في شيء من ذلك.

* وأما الرمي: فقال عمرو بن سواد: قال لي الشافعي: كانت نهمتي في شيء من العلم والرمي فنلت من الرمي حتى كنت أصيب من عشرة عشرة، وفي رواية غيره من كل عشرة تسعة.

* وأما الفراسة فقال الحميدي: خرجت أنا والشافعي من مكة فلقينا رجلاً بالأبطح فقلت للشافعي: أذكر ما الرجل فقال: نجار أو خياط، قال: فلحقته فسألته فقال: كنت نجاراً وأنا خياط.

وأخرج الحاكم من وجه آخر عن قتيبة قال: رأيت محمد بن الحسن والشافعي قاعدين بفناء الكعبة فمر رجل فقال أحدهما لصاحبه: تعال حتى نتزكَّن على هذا أي حرفة معه؟ فقال أحدهما: خياط وقال الآخر: نجار فبعثا إليه فسألاه فقال: كنت خياطاً وأنا اليوم نجار.

قال ابن حجر: وسند كل من القصتين صحيح فيحمل على التعدد، والتزكّن الفراسة.

وقال الربيع: مر أخي في صحن الجامع فدعاني الشافعي فقال: يا ربيع هذا المار الذي يمشي أخوك؟ قلت: نعم، ولم يكن رآه قبل ذلك.

وقال المزني: كنت مع الشافعي في الجامع إذ دخل رجل يدور على النيام، فقال الشافعي للربيع: قم فقل له ذهب لك عبد أسود مصاب بإحدى عينيه؟ فقمت فقلت له فقال: نعم، فقلت: تعال، فجاء إلى الشافعي فقال: أين عبدي؟ قال: تجده في الحبس، فذهب الرجل فوجده في الحبس، قال المزني: فقلت له: أخبرنا قد حيرتنا، قال: نعم رأيت رجلاً دخل من باب المسجد يدور بين النيام فقلت يطلب هارباً، ورأيته يجيء إلى السودان دون البيض فقلت هرب له عبد أسود، ورأيته يجيء إلى ما يلي العين اليسرى فقلت مصاب بإحدى عينيه، قلنا: فما يدريك أنه في الحبس؟ قال: ذكرت الحديث في العبيد: «إذا جاعوا سرقوا وإذا شبعوا زنوا» فتأولت أنه فعل أحدهما فكان كذلك.

فصل
في أخلاقه الجميلة وكرمه

قال ابن بنت الشافعي: سمعت أمي تقول: دخلت علينا امرأة وأبي نائم ومعها صبي فجعلت تحدث فبكى الصبي فوضعت يدها على فيه وخرجت خوفاً أن يستيقظ أبي ببكائه وكانت له هيبة فلما استيقظ أخبر بذلك فآلى على نفسه أن لا ينام إلا والرحى يطحن بها عند رأسه.

قال الحارث بن سريج: دخلت مع الشافعي على خادم للرشيد وهو في بيت قد فرش بالديباج فلما رآه رجع وقال: لا يحل افتراش هذا فعدل به إلى بين قد فرش بالأرمني فقال له الشافعي: هذا أحسن من ذاك وهذا حلال وذاك حرام وهذا أعلى ثمناً.

وقال حرملة: سمعت الشافعي يقول: ما كذبت قط ولا حلفت بالله قط صادقاً ولا كاذباً.

وقال عبد الله بن عبد الحكم للشافعي: إن أردت أن تسكن البلد - يعني مصر - فليكن لك قوت سنة ومجلس من السلطان تعزز به، فقال له الشافعي: يا أبا محمد من لم تعزه التقوى فلا عز ولقد ولدت بغزة وربيت بالحجاز وما عندنا قوت ليلة وما بتنا جياعاً قط.

وقال عمر بن سوار: قال لي الشافعي: أفلست ثلاث مرات فكنت أبيع قليلي وكثيري حتى حلي ابنتي وزوجتي ولم استذل قط.

وقال حرملة: سمعت الشافعي يقول: ما كذبت قط ولا حلفت بالله صادقاً ولا كاذباً.

وقال الربيع: سمعت الشافعي يقول: ما شبعت منذ ست عشرة سنة إلا شبعة واحدة ثم طرحتها.

وأما كرمه: -

قال الربيع: كان الشافعي إذا سأله إنسان استحيى من السائل وبادر بإعطائه فإن لم يكن معه أرسل إليه إذا رجع.

فقال الربيع: ولقد سمعنا بالأسخياء وكان عندنا منهم قوم وما رأينا مثل الشافعي.

وقال الربيع: رأيت الشافعي راكب حمار فسقط سوطه فوثب غلام فمسح السوط بكمه وناوله إياه، فقال الشافعي لغلامه: إدفع تلك الدنانير التي معك لهذا الفتى قال: ما أدري كانت تسعة أو سبعة.

وقال المزني: كنت مع الشافعي فمر بهدف فإذا رجل يرمي بقوس عربية فوقف عليه الشافعي، وكان حسن الرمي فأصاب أسهماً فقال له الشافعي: أحسنت، ثم قال لي: ما معك؟ فقلت: ثلاثة دنانير، فقال: أعطه إياها واعتذر لي إذ لم يحضرني غيرها.

وقال البويطي: قدم علينا الشافعي مصر وكانت زبيدة ترسل إليه رزم الوشي والثياب فيقسمها بين الناس.

وقال ابن سليمان القرشي: قال الشافعي: خرج هرثمة بن أعين فأقرأني سلام أمير المؤمنين هارون وقال: قد أمر لك بخمسة الآف دينار قال: فحمل إليه المال فدعى الحجام فأخذ شعره فأعطاه خمسين ديناراً ثم أخذ رقاعاً فصر من تلك الدنانير صراراً ففرقها في القرشيين الذين هم في الحضرة وصر لمن يعرفه من أهل مكة حتى ما رجع إلى بيته إلا بأقل من مائة دينار أخرجه ابن أبي حاتم.

وقال الحميدي: قدم الشافعي مرة من اليمن ومعه عشرون ألف دينار فضرب خيمة خارجاً من مكة فما قام حتى فرقها كلها. كذا في هذه الرواية. وأخرجها الحاكم عن الحميدي: قدم الشافعي من صنعاء إلى مكة ومعه عشرة الآف دينار في منديل فضرب خبائه في موضع خارجاً من مكة فما برح حتى وهبها كلها.

وأخرجها ابن عساكر عن الحميدي قال: قدم الشافعي بثلاثة الآف دينار فدخل عليه بنو عمه وغيرهم فجعل يعطيهم حتى قام وليس معه شيء.

وقال أبو ثور: كان الشافعي من أجود الناس وأسمحهم كفاً، وكان يشتري الجارية الصناع التي تطبخ وتعمل الحلوى ويشترط عليها أن لا يقربها، وكان يقول لنا: تشهوا ما أحببتم فقد اشتريت جارية تحسن أن تعمل ما تريدون، قال: فيقول لها بعض أصحابنا: إعملي لنا كذا وكذا. فكنا نحن الذين نأمرها بما نريد وهو مسرور بذلك.

وقال الربيع: عمل الشافعي وليمة فلما أن أكل الناس، قلت للبويطي: إجلس فكل، فقلت: من أذن لنا أن نأكل؟ قال: فسمع الشافعي فقال: سبحان الله، أنت في حل من مالي كله.

قال: ورآني قد كتبت حساب النفقة فقال: لا تضيع قراطيسك باطلاً فلست أنظر في حساب، فقلت له: فإن أم أبي الحسن - يعني ولده - ربما طلبت الشيء فأشتري لها ولم تأذن لي، قال: يا طويل الرقاد أنت في حل من مالي كله.

فصل
في بليغ كلامه نثراً وهو كثير جداً

قال الحافظ ابن حجر: ولو جمع لكان جزءاً كبيراً.

وها نحن نذكر ما ذكره الحافظ محذوف الأسانيد.

قال - رحمه الله -: سياسة الناس أشد من سياسة الدواب.

وقال: إن للعقل حداً ينتهي إليه كما أن للبصر حداً ينتهي إليه.

وقال: للمروءة أربعة أركان: حسن الخلق والسخاء والتواضع والشكر.

وقال: ولا يكمل الرجل في الدنيا إلا بأربع: الديانة والأمانة والصيانة والرزانة.

وقال: الانبساط إلى الناس مجلبة لقرناء السوء والانقباض عنهم مكسبة للعداوة، فكن بين المنقبض والمنبسط.

وقال: ما أكرمت أحداً فوق مقداره إلا اتضع من قدري عنده بمقدار ما أكرمته.

وقال: ما نظر الناس إلى من هم دونه إلا بسطوا ألسنتهم فيه.

وقال: ثلاثة أن أهنتهم أكرموك وإن أكرمتهم أهانوك: المرأة والعبد والفلاح.

وقال: من حضر مجلس العلم بلا محبرة وورق كان كمن حضر الطاحون بغير قمح.

وقال: أصل كل عداوة الصنيعة إلى الأنذال.

وقال: من أحسن ظنه بلئيم كان أدنى عقوبته الحرمان.

وقال: صحبة من لا يخاف العار عار يوم القيامة.

وقال: أظلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه ورغب في مودة من لا ينفعه وقبل مدح من لا يعرفه.

وقال: طبع ابن آدم على اللؤم فمن شأنه أن يتقرب ممن يتباعد عنه ويتباعد ممن يتقرب منه.

وقال: خير الدنيا والآخرة في خمس خصال: غنى النفس وكف الأذى وكسب الحلال ولباس التقوى والثقة بالله في كل حال.

وقال: الشفاعات زكاة المروءات.

وقال: مثل الذي يطلب العلم بلا حجة كمثل حاطب ليل، يحمل حزمة حطب وفيه أفعى تلدغه وهو لا يدري.

وقال: زينة العلماء التقوى وحليتهم حسن الخلق وجمالهم كرم النفس.

وقال: من لا يحب العلم لا خير فيه ولا يكن بينك وبينه معرفة ولا صداقة.

وقال: من أظهر شكرك بما لم تأت إليه فاحذر أن ينكر عليك نعمتك فيما أتيت إليه.

وقال: من علامة الصديق أن يكون لصديق صديقه صديقاً.

وقال: إنك لا تقدر أن ترضي الناس كلهم فأصلح ما بينك وبين الله ثم لا تبال بالناس.

وقال: من استغضب ولم يغضب فهو حمار ومن استرضي فلم يرض فهو شيطان.

وقال: التلطيف في الحيلة أجدى من الوسيلة.

وقال: لا تشاور من ليس في بيته دقيق.

وقال: ما ضحك من خطأ الرجل إلا ثبت صوابه في قلبه.

وقال: الوقار في النزهة سخف.

وقال: ترك العبادة ذنب مستحدث.

وقال: ليس من المروءة أن يخبر الرجل بسنه.

وقال: من تعلم القرآن عظمت قيمته ومن نظر في الفقه نبل قدره ومن كتب الحديث قويت حجته ومن نظر في اللغة رق طبعه ومن نظر في الحساب جزل رأيه، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه.

وقال: من نم لك نم بك، ومن نقل إليك نقل عنك، ومن إذا أرضيته قال فيك ما ليس فيك كذلك إذا أغضبته قال فيك ما ليس فيك.

وقال: أشد الأعمال ثلاثة الجود من قلة، والورع في خلوة، وكلمة الحق عند من يرجى ويخاف.

وقال: من طلب الرياسة في غير حينها ذل ما بقى.

وقال أيضاً: من طلب الرياسة فرت منه وإذا تصدر [الحَدَثُ] فاته علم كثير.

وقال الربيع: قال لي الشافعي: إقبل مني ثلاثة أشياء، لا تخوض في أصحاب النبي ﷺ، فإن خصمك النبي ﷺ، يوم القيامة، ولا تشتغل بالكلام فإني قد اطلعت من أهل الكلام على أمر عظيم ولا تشتغل بالنجوم فإنه يجر إلى التعطيل.

وقال الربيع: سمعت الشافعي يقول: يحتاج طالب العلم إلى ثلاث خصال: طول العمر، وسعة ذات اليد والذكاء.

وقال: العلم علمان، علم الأديان الفقه وعلم الأبدان الطب.

فصل
في بليغ كلامه شعراً

كان - رحمه الله تعالى - له في الشعر قوة الملكة ومزيد الرغبة حتى مهر فيه وحفظ كثيراً من أشعار العرب، فكان يحفظ أكثر من عشرة الآف بيت من أشعار هذيل وأنشد ليلتين من أشعار من اسمه عمرو وقال: أحفظ أشعار الثلاثمائة مجنون.

ولنذكر نبذة يسيرة من شعره محذوفة الأسانيد والرواة قال:

إذا نحن فضلنا علياً فإننا ... روافض بالتفضيل عند ذوي الجهل
وفضل أبي بكر إذا ما ذكرته ... رميت بنصب عند ذكري للفضل
فلا زلت ذا نصب ورفض كلاهما ... بحبيهما حتى أوسد في الرمل

وقال يوماً وقد أخذ بيد المزني:

أحب من الأخوان كل مواتي ... وكل غضيض الطرف عن عثراتي
يصاحبني في كل أمر أحبه ... ويحفظني حياً وبعد وفاتي

فمن لي بهذا ليت أني أصبته | أقاسمه مالي مع الحسنات

وقال:

إن الذي رزق اليسار ولم يصب | أجراً ولا حمداً لغير موفق
الجد يدني كل أمر شاسع | والجد يفتح كل باب مغلق
فإذا سمعت بأن مجدوداً حوى | عوداً فأثمر في يديه فصدق
ومن الدليل على القضاء وكونه | بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق
وأحق خلق الله بالهم امرء | ذو همة يبلى بعيش ضيق

وقال:

إذا أصبحت عندي قوت يومي | فخل الهم عني يا سعيد
ولا تخطر هموم غد ببالي | فإن غداً له رزق جديد
أُسَلِّمُ إن أراد الله أمراً | فاترك ما أريد لما يريد

وقال:

ومن الشقاوة أن تحب | ومن تحب يحب غيرك
أو أن تريد الخير للإنسا | ن وهو يريد ضيرك

وقال:

ومنزلة السفيه من الفقيه | كمنزلة الفقيه من السفيه
فهذا زاهد في علم هذا | وهذا فيه أزهد منه فيه
إذا غلب الشقاء على سفيه | تنطع في مخالفة الفقيه

وقال:

وأنزلني طول النوى دار غربة | يجاورني من ليس مثلي يشاكله
فجانبته حتى يقال سجية | ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

وقال الإمام أحمد بن حنبل: لقيت الشافعي فقلت: يا أبا

عبد الله: أين تريد؟ فأنشأ يقول:

أراني أرى النفس تتوق إلى مصر ومن دونها أرض المفاوز والقفر
فوالله ما أدري للخفض والغنى أساق إليها أم أساق إلى قبري

فصل
في صفة طلبه للعلم

قال عبد الرحمن بن وهب: سمعت الشافعي يقول: قدمت مكة وأنا ابن عشر أو شبهها فسرت إلى نسيب لي، قال: فرآني أطلب العلم فقال لي: لا تعجل لهذا وأقبل على ما ينفعك ـ يعني التكسب ـ قال: فجعلت لذتي في العلم وطلبه حتى رزق الله منه ما رزق.

وقال المزني: سمعت الشافعي يقول: حفظت القرآن وأنا ابن سبع، وحفظت الموطأ وأنا ابن عشر.

وقال الربيع: سمعت الشافعي يقول: كنت في الكُتّاب أسمع المعلم يلقن الصبي الكلمة فأحفظها. قال: وخرجت من مكة ـ يعني بعد أن بلغ ـ، قال: فلزمت هذيلاً بالبادية أتعلم كلامها وآخذ اللغة وكانت أفصح العرب، قال: وسألت مسلم بن خالد حين أردت الخروج إلى مالك أن يكتب لي إليه فكتب لي إليه وأخذ مالك كتابه مني وقرأه.

وقال الربيع عن الشافعي قال: حفظت الموطأ ثم دخلت على والي مكة فأخذت كتابه إلى والي المدينة وإلى مالك فأتيت مالكاً فدفع والي المدينة له الكتاب فلما قرأه رمى به وقال: يا سبحان الله وصار علم رسول الله ﷺ، يؤخذ بالرسائل، فتقدمت إليه فقلت: أصلحك الله إن من قصتي كذا، قال: فنظر إلي ساعة وكانت له فراسة فقال: ما اسمك؟ قلت: محمد، قال: يا محمد إتق الله فسيكون لك شأن، فقلت: نعم وكرامة.

وقال الربيع: سمعت الشافعي يقول: قدمت على مالك وقد

حفظت الموطأ فقلت: إني أريد أن أسمع منك الموطأ فقال: اطلب من يقرأ لك، فقلت: لا عليك أن تسمع قراءتي فإن سهل عليك قرأت لنفسي فأعاد فأعدت، فقال: إقرأ، فلما سمع قراءتي قال: إقرأ، فقرأت حتى فرغت منه.

وقال الإمام أحمد: سمعت الشافعي يقول: أنا قرأت على مالك وكانت تعجبه قراءتي، قال أحمد: لأنه كان فصيحاً.

وقال ابن عبد الأعلى: سمعت الشافعي يقول: ما أشتد على فوت أحد مثل فوت الليث وابن أبي ذئب وكان فقيه المدينة في زمن مالك وقبله، وكان يقدمه في الورع.

قال ابن حجر: حين اجتمع الشافعي بمالك وقرأ عليه الموطأ كان الليث موجوداً لكن بمصر فأسف ـ يعني على فوت اجتماعه به ـ وأما ابن أبي ذئب فمات والشافعي ابن تسع سنين بالمدينة.

وقال ـ رحمه الله ـ: كتبت عن ابن عيينة ما شاء الله أن أكتب، ثم كنت أجالس مسلم بن خالد الزنجي ثم قدمت على مالك بن أنس وإن كنت لأسير الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد، وسميت بمكة ناصر الحديث وكنت أكتب في العظم فإذا كثر طرحته في جرة عظيمة.

فصل
في تصنيفه الكتب

قال أحمد بن أبي شريح: سمعت الشافعي يقول: أنفقت على كتب محمد بن الحسن ستين ديناراً ثم تدبرتها فوضعت إلى جنب كل مسألة حديثاً يعني رداً عليه.

وقال البويطي: قال الشافعي: اجتمع علي أصحاب الحديث فسألوني أن أضع على كتاب أبي حنيفة، فقلت: لا أعرف قولهم حتى أنظر في كتبهم، فأمرت فكتبت لي كتب محمد بن الحسن فنظرت فيها

سنة حتى حفظتها ثم وضعت الكتاب البغدادي - يعني الحجة -.

وقال البيهقي: قرأت في كتاب زكريا بن يحيى الساجي فيما حدثه المصريون أن الشافعي إنما وضع الكتاب على مالك أنه بلغه بالأندلس قلنسوة لمالك يستسقى بها وكان يقال لهم: قال رسول الله ﷺ، فيقولون: قال مالك، فقال الشافعي: إن مالكاً بشر معطى، فدعاه إلى تصنيفه الكتاب في اختلافه معه وكان يقول: استخرت الله في ذلك سنة.

وقال ابن عبد الحكم: لم يزل الشافعي يقول بقول مالك لا يخالفه إلا كما يخالفه أصحابه حتى أكثر فتيان على الشافعي من خلفه بالألفاظ التي لا تجوز، فعمد الشافعي إلى التصنيف في خلاف مالك، وإلا فالدهر إذا سئل عن الشيء يقول: هذا قول الأستاذ يريد مالكاً.

ولما وضع الشافعي كتاب الرد على المالكية سعوا به عند السلطان وقالوا له: أخرجه عنا وإلا أفتن البلد فهمَّ بذلك فأتاه الشافعي والهاشميون فكلموه فامتنع وقال: إن هؤلاء كرهوه وأخشى الفتنة، فقال له الشافعي: أجلني ثلاثة أيام فأجله، فمات الوالي فجأة في الليلة الثالثة، وكفى الشافعي أمره، فأقام الشافعي إلى أن مات.

وأخرج الحاكم من طريق محفوظ قال: سمعت الشافعي يقول: يقولون إني إنما أخالفهم للدنيا، وكيف يكون ذلك؟ والدنيا معهم، وإنما يريد الإنسان الدنيا لبطنه وفرجه، وقد منعت ما ألذ من المطاعم ولا سبيل إلى النكاح يعني لما كان به من البواسير، ولكن لست أخالف إلا من خالف سنة رسول الله ﷺ.

وقال الربيع مراراً: لو رأيت الشافعي وحسن بيانه وفصاحته لعجبت منه ولو أنه ألف هذه الكتب على عربيته التي كان يتكلم بها معنا في المناظرة لم يقدر على قراءة كتبه لفصاحته وغرائب ألفاظه غير أنه كان في تأليفه يجتهد في أن يوضح للعوام.

وقال: لو رأيتموه لقلتم إن هذه ليست كتبه، كان والله لسانه أكبر من قلبه.

وقال الربيع: لزمت الشافعي قبل أن يدخل مصر، وكانت له جارية سوداء فكان يعمل الباب من العلم ثم يقول: يا جارية قومي فأسرجي فتسرج له، فيكتب ما يحتاج إليه ثم يطفىء السراج فدام على ذلك سنة، فقلت: يا أبا عبد الله إن هذه الجارية منك في جهد، فقال لي: إن السراج يشغل قلبي قال: وسألني عن أهل مصر، فقلت: هم فرقتان، فرقة مالت إلى قول مالك وفرقة مالت إلى قول أبي حنيفة، قال: أرجو أن أقدم مصر إن شاء الله فآتيهم بشيء يغنيهم عن القولين، قال الربيع: ففعل ذلك والله حين [دخل] مصر.

وقال حرملة: كان الشافعي يجلس إلى هذه الأسطوانة في المسجد فيلقى له طنفسة فيجلس عليها وينحني لوجهه لأنه كان مسقاماً فيصنف، فصنف هذه الكتب في أربع سنين.

وقال الربيع: ألف الشافعي هذا الكتاب يعني المبسوط، حفظاً لم يكن معه كتب.

وقال يونس بن عبد الأعلى: كان الشافعي يضع الكتاب من غدوة إلى الظهر.

وقال نصر الخولاني: قدم الشافعي من الحجاز فبقي بمصر أربع سنين ووضع هذه الكتب، وكان معه من الحجاز كتب ابن عيينة وخرج إلى يحيى بن حسان فكتب عنه وأخذ كتباً من أشهب فيها مسائل.

وقد سرد البيهقي كتب الشافعي، وذكر الحافظ ابن حجر منها جملة لا حاجة لنا بذكرها، والله سبحانه أعلم.

فصل
في محنة الشافعي

كان ـ رحمه الله تعالى ـ قد ولي ولاية باليمن وحمده الناس

لعدله وأثنوا عليه، قال ـ رحمه الله تعالى ـ: فلقيت إبراهيم ابن أبي يحيى فلامني على دخولي في العمل ثم لقيت ابن عيينة فرحب بي وقال لي: قد بلغني حسن ما انتشر عنك وما أديت كل الذي عليك فلا تعد، قال: فكانت موعظة ابن عيينة أنفع لي ثم وليت نجران.

قال البويطي: قال الشافعي: كتب حماد البربري إلى الرشيد: إن كانت لك حاجة قبلنا ـ يعني باليمن ـ فاحذر محمد بن إدريس فإنه قد غلب على ما قبلي ولو أراد الخروج لم يبق أحد إلا تبعه، قال: فحملت إلى الباب واجتمع علي أصحاب الحديث.

وقال الكرابيسي: سمعت الشافعي يقول: كتب مطرف إلى الرشيد: إن أردت اليمن لا يفسد عليك فأخرج عنا محمد بن إدريس، وذكر قوماً من الطَّالِبِيِّين، قال: فبعث إلى حماد البربري فأوثقت في الحديد فقدمنا على هارون بالرقة.

وقال زكريا بن يحيى ويحيى بن زكريا النيسابوري كلاهما عن الربيع يزيد بعضهم على بعض أن الشافعي قال: خرجت إلى اليمن فأقمت بها أشهراً وارتفع لي بها شأن وكان بها وال من قبل الرشيد وكان ظلوماً غشوماً فكنت ربما أخذت على يديه ومنعته من الظلم وكان باليمن جماعة من العلويين قد تحركوا فكتب الوالي إلى الرشيد أن العلوية قد تحركوا وأرادوا أن يخرجوا وأن ها هنا رجلاً من ولد شافع بن السائب من ولد المطلب لا أمر لي معه ولا نهي، فكتب إليه الرشيد أن يقبض عليهم وعليه، قال: فقرنت معهم، قال: فبلغني عن محمد بن زياد وكان نديم هارون، أنه كان عند هارون حين أدخلوا عليه فقتل العلوية والتفت إلى محمد بن الحسن فقال له: يا أمير المؤمنين لا يغلبنَّك هذا بفصاحته ولسانه فإنه رجل لسن، قال الشافعي فقلت له: مهلاً يا أمير المؤمنين فإنك الراعي وأنا المرعي وأنت القادر على ما تريد مني، ما تقول في رجلين أحدهما يراني أخاه والآخر يراني عبده أيهما أحب إلي؟ قال: الذي يراك أخاه، قلت: فأنت هو يا

أمير المؤمنين إنكم ولد العباس وهم ولد علي ونحن إخوتكم من بني المطلب فأنتم تروننا أخوة وهم يروننا عبيداً، قال: فسري عنه ما كان واستوى جالساً وقال: عظني فوعظته إلى أن بكى ثم أمر لي بخمسين ألف درهم.

وفي رواية الكرابيسي قال: فأدخلنا عليه ثم أخرجنا من عنده - يعني الرشيد - ولم يكن معي سوى خمسين ديناراً فأنفقتها على كتب محمد بن الحسن، قال: فجئت يوماً فجلست إليه وأنا من أكثر الناس هما وغماً من سخط أمير المؤمنين وزادي قد نفذ، فلما أن جلست أقبل محمد يطعن على أهل المدينة فقلت: إن طعنت على البلد فإنها مهاجر رسول الله ﷺ، ومهبط الوحي، وإن طعنت على أهلها فهم أبو بكر وعمر والمهاجرون والأنصار، فقال: معاذ الله أن أطعن عليهم وإنما أطعن على حكم من أحكامهم فذكر الشاهد واليمين، فذكر بحثه معه في ذلك ومباحث كثيرة، قال: ورجل من ورائي يكتب ألفاظي وأنا لا أعلم فأدخله على هارون وقرأه عليه فقال هرثمة بن أعين: كان الرشيد متكئاً فاستوى جالساً فقال: أعد فأعاده عليه، فقال: صدق الله ورسوله، قال رسول الله ﷺ: «تعلموا من قريش ولا تعلموها وقدموا قريشاً ولا تؤخروها» ما أنكر أن يكون محمد بن إدريس أعلم من محمد بن الحسن، قال: فرضي عني وأمر لي بخمسمائة دينار، فخرج هرثمة فقال لي: قد أمر لك بخمسمائة دينار وقد أضفنا إليه مثله، فوالله ما ملكت قبلها ألف دينار.

قال الحافظ ابن حجر بعد أن ذكر ما قدمناه: هذا أقرب ما وقفت عليه من أمر المحنة، والذي نقل عن محمد بن الحسن في حق الشافعي ليس بثابت، والرحلة المنسوبة إلى الشافعي المروية من طريق عبد الله بن محمد كذب، وقد أخرجها البيهقي وغيره وساقها الفخر الرازي في مناقب الشافعي بغير إسناد معتمداً عليها وهي مكذوبة وغالب ما فيها موضوع وبعضها ملفق من روايات مفرقة وأوضح ما فيها من الكذب قوله فيها، أن أبا يوسف ومحمد بن الحسن حرضا

الرشيد على قتل الشافعي وهذا باطل من وجهين: أحدهما أن أبا يوسف لما دخل الشافعي بغداد كان مات ولم يجتمع به الشافعي، والثاني أنهما كانا أتقى لله من أن يسعيا في قتل رجل مسلم لا سيما وقد اشتهر بالعلم وليس له إليهما ذنب إلا الحسد له على ما آتاه الله من العلم وهذا مما لا يظن بهما وأن منصبهما وجلالتهما وما اشتهر من دينهما ليصد عن ذلك والذي تحرر لنا بالطرق الصحيحة أن قدوم الشافعي بغداد أول ما قدم كان سنة أربع وثمانين وكان أبو يوسف قد مات قبل ذلك بسنتين وأنه لقي محمد بن الحسن في تلك القدمة وكان يعرفه قبل ذلك من الحجاز وأخذ عنه. انتهى كلام الحافظ.

ومع ذلك فكان محمد بن الحسن يبالغ في إكرام الشافعي والتأدب معه والاغتباط به حتى قال أبو حسان: ما رأيت محمداً يعظم أحداً إعظام الشافعي.

فصل
في وفاة الإمام الشافعي

قال الزعفراني: قدم علينا الشافعي ـ يعني من الحجاز إلى العراق ـ سنة خمس وتسعين ومائة فأقام عندنا سنتين ثم خرج إلى مكة ثم قدم علينا سنة ثمان وتسعين فأقام عندنا أشهراً ثم خرج إلى مصر.

وقال الربيع: سمعت الشافعي يحكي في قصة ذكرها وأنشد لنفسه: ـ

لقد أصبحت نفسي تتوق إلى مصر ... ومن دونها أرض المهامة والقفر
فوالله ما أدري ألفوز والغنى ... أساق إليها أم أساق إلى قبري

قال: فوالله لقد سيق إليهما جميعاً.

وقال: أقام الشافعي ها هنا ـ يعني بمصر ـ أربع سنين فأملى ألفاً وخمسمائة ورقة وخرَّج كتاب الأم ألفي ورقة وكتاب السنن وأشياء

كثيرة كلها في مدة أربع سنين وكان عليلاً شديد العلة وربما خرج وهو راكب حتى يمتلىء سراويله وخفه ـ يعني من دم البواسير ـ.

وقال ابن عبد الحكم: كان الشافعي قد مرض من هذا الباسور مرضاً شديداً حتى ساء خلقه فسمعته يقول: إني لآت الخطأ وأنا أعرفه ـ يعني ترك الحمية ـ.

وعن أبي الوليد قال: وجه المأمون لحمل الشافعي ليوليه القضاء فوصل الرسول والشافعي عليل شديد العلة.

وقال الربيع: جاء رسول الخليفة إلى الشافعي بمصر يدعوه ليوليه القضاء فقال الشافعي: اللهم إن كان خيراً لي هذا في ديني ودنياي وعاقبة أمري فأمضه وإلا فاقبضني إليك، قال: فتوفي بعد هذه الدعوة بثلاثة أيام والرسول على بابه، أخرجه البيهقي.

وقال الربيع: دخلنا على الشافعي عند وفاته أنا والبويطي والمزني وابن عبد الحكم فنظر إلينا الشافعي فأطال ثم التفت إلينا فقال: أما أنت يا أبا يعقوب فستموت في حديدك وأما أنت يا مزني فسيكون لك بمصر هنات وهنات ولتدركن زماناً تكون أقيس أهل زمانك وأما أنت يا محمد فسترجع إلى مذهب أبيك وأما أنت ياربيع فأنت أنفعهم لي في نشر الكتب، قال الربيع: فكان كما قال.

قال: ولما مرض الشافعي مرضه الذي مات فيه جاء محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ينازع البويطي في مجلس الشافعي، فقال الحميدي: قال الشافعي: ليس أحد من أصحابي أعلم من البويطي، فغضب محمد وترك مجلس الشافعي. وقال أيضاً: وجه الشافعي الحميدي إلى الحلقة فقال: الحلقة لأبي يعقوب البويطي فمن شاء فليجلس ومن شاء فليذهب.

وقال أيضاً: دخل المزني على الشافعي في مرضه الذي مات فيه فقال له: كيف أصبحت يا أستاذ، فقال: أصبحت من الدنيا راحلاً ولكأس المنية شارباً وعلى الله وارداً ولسوء عملي ملاقياً، قال: ثم

رمى بطرفه إلى السماء واستعبر وأنشد: -

إليك إله الخلق أرفع رغبتي وإن كنت يا ذا المن والجود مجرما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظما

وقال ابن عبد الحكم: سمعت أشهب يدعو على الشافعي بالموت فذكرت [ذلك] للشافعي فقال:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد
فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى تهيأ لأخرى مثلها وكأن قد

قال: فمات الشافعي - رحمه الله - فاشترى أشهب من تركته غلاماً طباخاً ثم مات أشهب بعد الشافعي بثمانية عشر يوماً فاشتريت أنا الغلام من تركة أشهب فنهيت عنه وقيل لي: إنه دفن العالمين في بضعة عشر يوماً، قال: فاشتريته وتركت التطير.

قال ابن حجر: فعاش محمد بعد ذلك أربعاً وستين سنة.

وسئل ابن عبد الحكم عن القراءة بعد الموت فقال: كان أصحابنا مجتمعين عند رأس الشافعي ورجل يقرأ سورة يس فلم ينكر ذلك عليه أحد منهم، وحضروا غسله فما زالوا وقوفاً على أرجلهم إلى أن كفن.

وقال الربيع: مات الشافعي في آخر يوم من رجب يوم الجمعة سنة أربع ومائتين، وفي رواية أخرى عن الربيع: مات الشافعي سنة أربع ومائتين في آخر يوم من رجب يوم الجمعة، وفي رواية ابن أبي حاتم عن الربيع: توفى الشافعي ليلة الجمعة بعد عشاء الآخرة وكان قد صلى المغرب وذلك آخر يوم من رجب ودفناه يوم الجمعة وانصرفنا فرأينا هلال شعبان، وفي رواية أخرى قال الربيع: لما كان مع المغرب قال له ابن عمه: ننزل نصلي؟ قال: تجلسون تنتظرون خروج نفسي، فنزلنا ثم صعدنا فقلنا: أصليت؟ قال: نعم، واستسقى وكان الوقت شتاء فقال ابن عمه: أنجزوه بماء مسخن، فقال الشافعي: لا بل برب

السفرجل، وتوفي مع عشاء الآخرة.

ولما قيل لسفيان بن عيينة: مات محمد بن إدريس قال: إن كان مات فقد مات أفضل أهل زمانه، أخرجه البيهقي. وفيه نظر لتقدم وفاة سفيان كما مر.

وأخرج القاضي عياض: قال الربيع: كنا جلوساً في حلقة الشافعي بعد موته بيسير فوقف علينا أعرابي فسلم ثم قال: أين قمر هذه الحلقة وشمسها؟ فقلنا: مات، فقال: رحمه الله وغفر له بما كان يفتح ببيانه منغلق الحجة ويسد على خصمه واضح المحجة ويغسل من العار وجوهاً مسودة ويوسع بالرأي أبواباً منسدة ثم انصرف.

ولما مات الشافعي ـ رحمه الله ـ رثاه جماعة من الشعراء فأبلغوا.

* منهم ابن دريد اللغوي ولم يلق الشافعي وإنما أخذ عن أصحابه فأنشد لنفسه يمدح الشافعي ويرثيه بقصيدة وهي طويلة منها قوله فيها: ـ

ألم تر آثار ابن إدريس بعده ... دلائلها في المشكلات لوامع
معالم يفنى الدهر وهي خوالد ... وتنخفض الأعلام وهي روافع
مناهج فيها للهدى متصرف ... موارد فيها للرشاد شوارع
ظواهرها حكم ومستنبطاتها ... لما حكم التفريق منه جوامع
لرأي ابن إدريس ابن عم محمد ... ضياء إذا ما أظلم الخطب صادع
إذا المعضلات المشكلات تشابهت ... سما منه نور في دجاهن ساطع
أبى الله إلا رفعه وعلوه ... وليس لما يعليه ذو العرش وَاضِعُ

ـ إلى أن قال: ـ

فمن يك علم الشافعي إمامه ... فمربعه في ساحة العلم واسع
سلام على قبر لقد ضم جسمه ... وجادت عليه المرجفات الهوامع

لئن فجعتنا الحادثات بشخصه وهن لما حكمن فيه فواجع
فأحكامه فينا بدور زواهر وآثاره فينا نجوم طوالع

وأنشد راثياً له أبو حيان النحوي بقصيدته المشهورة وهي طويلة منها قوله في أولها: -

غذيت بعلم النحو إذ در لي ثديا فجسمي به ينمى وروحي به تحيا
ألا إن علم النحو قد باد أهله فما أن ترى في الحي من بعدهم حيا
سأتركه ترك العذار لظله فأتبعه هجراً وأوسعه نأيا
وأسمو إلى الفقه المبارك إنه ليرضيك في الأخرى ويعليك في الدنيا
هل الفقه إلا أصل دين محمد فجرد له عزماً وجدد له سعيا
وكن تابعا للشافعي وسالكاً طريقته تبلغ به غاية القصوا
سمي الرسول المصطفى وابن عمه فناهيك مجداً قد سمى الرتبة العليا
هو استنبط الفن الأصولي فاكتسا به الفقه من ديباج إنشائه وشيا
له النظم والنثر الذي سار ذكره فلا لحن فيه يعتريه ولا عيا

- ومنها: -

فكم حكم قد قيدت من كلامه كأن بها لقمان عاد له المحيا
تواليفه نور ونور لناظر فقد أشرقت شمساً وقد عبقت ريا

- ومنها: -

وكان الإمام الشافعي معظما إليه انتهت في عصره رتبة الفتيا
فما كان مفراحاً بمال يصيبه ولا آسيا حزناً لما فات من دنيا
ولا راقه حسن ولا شاقه هوى إلى وجنة حمراء ولا شفة لميا
ولما أتى مصر انبرى لأذائه أناس طووا كشحا على بغضه طيا
أتا ناقداً ما حصلوه وهادماً لما أهملوا إذ كان بنيانهم وهيا
فدسوا عليه عندما انفردوا به شقيا لهم شل الإله له يديا
فشج بمفتاح الحديد جبينه فراح قتيلاً لا نوءاً ولا نعيا

نعم قد نعاه الدين والعلم والحجى وترداد صوت في الدجى يسرد الوحيا
فرعيا لعلم كان أتحفنا به وسقيا لقبر ضم جثمانه سقيا

ومعنى ما أشار به أبو حيان بقوله ـ فشج بمفتاح الحديد جبينه. . . إلخ ـ هو ما قال الحافظ ابن حجر: قد اشتهر أن سبب موت الشافعي أن فتيان ابن أبي السمح المالكي المصري وقعت بينه وبين الشافعي مناظرة فبدرت من فتيان بادرة فرفعت إلى أمير مصر فطلبه وعزره فحقد لذلك فلقي الشافعي ليلاً فضربه بمفتاح حديد فشجه فتمرض الشافعي منها إلى أن مات، قال ابن حجر: ولم أر ذلك من وجه يعتمد، والحق ما قال ابن حجر فإن مقام أولئك الأئمة منزه عن مثل هذا، ولا التفات لكلام المتعصبين.

ورؤي للشافعي بعد موته منامات حسنة: ـ

قال ابن أبي حاتم: سمعت محمد بن مسلم يقول: لما مات أبو زرعة الرازي رأيته في المنام فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: [قيل] لي: ألحقوه بأبي عبد الله وأبي عبد الله وأبي عبد الله الأول، مالك والثاني الشافعي والثالث أحمد بن حنبل.

وأخرج البيهقي من طريق عثمان قال: رأيت فيما يرى النائم كأن القيامة قد قامت وكأن الله قد برز لفصل القضاء وكأن الخلائق قد حشروا وكأن منادياً ينادي من بطنان العرش ألا أدخلوا أبا عبد الله وأبا عبد الله وأبا عبد الله وأبا عبد الله الجنة، فقلت لملك إلى جنبي: من هؤلاء؟ قال: مالك والثوري والشافعي وأحمد بن حنبل، رضوان الله عليهم أجمعين.

والله سبحانه أعلم، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

الباب الرابع

في مناقب الإمام أبي عبد اللَّه

أحمد بن حنبل

رضي اللَّه عنه

وهو الإمام العلم الحجة المجتهد البارع الحافظ الضابط المتقن الورع الزاهد الناسك العابد، عالم الإسلام وناصر السنة وقامع البدعة، وأحد أئمة المذاهب المتبوعة، وحجة الإسلام وداحض الحجج الباطلة بأقواله الفاصلة، العالم الرباني والصديق الثاني، والإمام المبجل والحبر المفضل.

أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله بن حيان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار - تاسع عشر أجداد النبي ﷺ - ابن معد بن عدنان، إلى هنا أجمع النسابون على صحته ابن أد بن أدد بن الهميسع بن حمل بن النبت بن قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله وسلامه عليه.

وأبناء نزار أربعة، مضر وربيعة وإياد وأنمار ومنهم تشعبت بطون العرب كلها. فالإمام أحمد من ولد ربيعة، والنبي ﷺ من ولد مضر.

وقال مصعب الزبيري وغيره: فهر هو جماع قريش كلها.

وأم الإمام أحمد كما قال ابن بطة: شيبانية واسمها صفية بنت ميمونة بنت عبد الله الشيباني من بني عامر، نزل أبوه بهم فتزوجها وجدها عبد الملك بن سواده بن هند الشيباني من وجوه بني شيبان

تنزل به قبائل العرب للضيافة فحاز - رضي الله تعالى عنه - بذلك شرف النسبتين وكمل له بأصليه الشريفين أتم الشرفين.

فهو الإمام أبو عبد الله الذهلي ثم الشيباني المروزي ثم البغدادي.

خرج من مرو بأعمال خراسان وهو حمل فولد ببغداد سنة أربع وستين ومائة في شهر ربيع الأول، وتوفي يوم الجمعة سنة إحدى وأربعين ومائتين وله سبع وسبعون سنة ودفن ببغداد وقبره الآن قد وارته الدجلة.

وكان رجلاً ربعة من الرجال حسن الوجه يخضب بالحناء ليس بالقاني، في لحيته شعرات سود وثيابه بيض، يلبس العمامة والإزار، ويلبس الغليظ الأبيض من الثياب، ولبس في الشتاء قميصين وجبة ملونة وربما لبس قميصاً وفرواً، وربما لبس الفرو فوق الجبة في البرد الشديد ولبس العمامة فوق القلنسوة وكساء ثقيلاً، وقال له بعضهم: هذا اللباس كله؟ فضحك وقال: أنا رقيق في البرد، وربما لبس القلنسوة بغير عمامة، ولبس السراويل والرداء، وكثيراً ما كان يتوشح فوق القميص.

قال الراوي: ولم أره لبس طيلساناً قط، ولم أره أرخى كما في مشيه قط وخاط لنفسه قلنسوة فكان يلبسها بالليل، وكانت له جبة خضراء فيها رقعة بيضاء من صوف.

قال الراوي: وأعطاني خفاً له قد لبسه سبع عشرة سنة، ورأيت نعله صفراء، وقال: ما مضى أكثر مما بقي، تدري منذ كم هذه النعل؟ لها نحو ست عشرة سنة، وكانت سراويله فوق كعبه، وخضب رأسه ولحيته بالحناء وهو ابن ثلاث وستين سنة.

وكان لا يخوض في شيء من أمور الناس، وكان ذا وقار وسكينة، من أحيى الناس وأكرمهم نفساً وأحسنهم عشرة وأدباً، كثير الإطراق والغض، معرضاً عن القبيح واللغو، لا يسمع منه إلا المذاكرة

بالحديث وذكر الصالحين. قال أبو داود: كانت مجالسة أحمد مجالسة آخرة لا يذكر فيها شيء من أمر الدنيا، وما رأيته ذكر الدنيا قط، وربما قعد في الشمس مكشوف الظهر وأثر الضرب ظاهر عليه.

وقال ثعلب في صفته: رأيت رجلاً كأن النار توقد بين عينيه.

وقال عبد الملك الميموني: ما أعلم أني رأيت أحداً أنضر ثوباً ولا أشد تعاهداً لنفسه في ثيابه وشعر رأسه وبدنه من أحمد بن حنبل.

وكان يحب الفقراء ويعرض عن أهل الدنيا ويجلس للفقهاء فلا يتكلم حتى يسأل ويجلس حيث انتهى به المجلس ولا يتصدر ولا يمد رجله إكراماً لجليسه وكان حسن الخلق دائم البشر لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ، يحب في الله ويبغض فيه، يحب لمن أحبه ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لها لا تأخذه في الله لومة لائم، حسن الجوار، يؤذى فيحتمل.

وأرسل إليه الخليفة المتوكل الذي سعى فيه بالمحنة ليقول فيه فقال: لعل له صبياناً يكرهون قتله.

وقال له رجل: اجعلني في حل فقد اغتبتك، فقال: نعم إن لم تعد، وكان أصبر الناس على الوحدة فكان لا يرى إلا في مسجد أو حضور جنازة أو عيادة مريض، وكان يكره المشي في الأسواق وقال: أشتهي ما لا يكون، أشتهي مكاناً ليس فيه أحد، وقال: ما أبالي أن لا يراني أحد ولا أراه، وإن كنت لأشتهي رؤية عبد الوهاب.

وقال: الخلوة أروح لقلبي.

وقال: أريد أن أنزل مكة فألقي نفسي في شعب من الشعاب حتى لا أعرف.

وبالجملة: فأوصافه الجميلة كما سيأتي كثيرة: ـ

قال حميد بن عبد الرحمن: كان يقال لم يكن أشبه

برسول الله ﷺ من أصحابه من عبد الله بن مسعود هدياً وسمتاً، وكان أشبه الناس بعبد الله علقمة بن قيس، وكان أشبه الناس بعلقمة إبراهيم النخعي [وكان أشبه الناس بإبراهيم منصور بن المعتمر وكان أشبه الناس بمنصور سفيان الثوري] وكان أشبه الناس بسفيان الثوري وكيع بن الجراح، قال محمد بن يونس: وكان أشبه الناس بوكيع أحمد بن حنبل، كيف لا؟ وهو الإمام المجتهد حافظ السنة ومحييها ومميت البدعة ومخفيها، الذي شاع فضله واشتهر علمه وارتفع قدره وعظمت منزلته وعرفت مكانته وظهرت سيادته، فأقر بعلمه علماء الأمصار وأذعن لفضله فضلاء الأقطار واشتهرت عنه رواية الحديث عند الأئمة الأخيار، وحفظ ألف ألف حديث من الأخبار، وكان متمسكاً في دينه بالأحاديث والآثار، قامعاً لأهل البدعة من ذوي الأشرار، حتى كان عند الأئمة كأبي بكر الصديق يوم الردة وعمر يوم السقيفة وعلي يوم صفين وعثمان يوم الدار، الصابر في الله على محنته، الدافع عن كتاب الله وسنته، المضروب بالسياط فلا تأخذه في الله لومة لائم، فكان ذلك فيه مصداق الحديث الوارد عن أبي القاسم حيث قال ﷺ: «إنه كائن في أمتي ما كان في بني إسرائيل حتى أن المنشار ليوضع على مفرق رأس أحدهم فما يصرفه ذلك عن دينه».

قال علي بن شعيب الطوسي: كان أحمد بن حنبل عندنا المثل الذي قال فيه النبي ﷺ هذا الحديث، ولولا أن أبا عبد الله قام بهذا الشأن لكان عاراً وشناراً علينا إلى يوم القيامة أن قوماً سبكوا فلم يخرج منهم أحد.

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه فقد وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه».

قال الإمام البيهقي: فاجتمعت هذه الخصال الثلاث في أبي

عبد الله أحمد بن حنبل رحمة الله عليه.

فصل

في من روى عنه أحمد أو روى عن أحمد وفي سعة حفظه

لا شبهة عند الأئمة بأنه إمام السنة وأنه أجمع الأئمة حديثاً وروت عنه أئمة الأمصار قديماً وحديثاً.

طلب - رحمه الله - العلم سنة وفاة مالك وهي سنة تسع وسبعين، فكان يتأسف على عدم اجتماعه به، وكان يقول: فاتني الإمام مالك، فأخلف الله عليَّ سفيان بن عيينة، وفاتني حماد بن زيد فأخلف الله عليَّ إسماعيل بن علية.

فروى - رضي الله عنه - عن سفيان بن عيينة وسفيان الثوري ومحمد بن إدريس الشافعي ويزيد بن هارون ويحيى القطان وإبراهيم بن سعد وهشيم ووكيع وابن علية وعبد الرحمن بن مهدي وعبد الرزاق وجرير بن عبد الحميد ومعتمر بن سليمان والقاضي [أبي] يوسف و[أبي] الوليد الطيالسي و[أبي] نعيم الفضل و[أبي] النبيل وعبد المؤمن بن عبد الله وبهز وعفان وروح بن عبادة وسليمان بن حرب وأبي بكر بن عياش وابن منيع وإبراهيم بن عقيل، وخلائق لا يحصون ذكرهم الحافظ ابن الجوزي وغيره على حروف المعجم.

سمع منهم بمكة والبصرة والكوفة وبغداد واليمن والجزيرة وخرج إلى اليمن وإلى طرسوس ماشياً وشارك الإمام الشافعي في أكثر شيوخه كما قال ابن حجر. واشتهرت عنه رواية الحديث، وروى عنه من الأئمة ما لا يمكن حصره حتى روى عنه كبار مشايخه.

فروى عنه الإمام الشافعي وعبد الرزاق وعبد الرحمن بن مهدي ويزيد بن هارون ويحيى بن آدم وأبو الوليد والأسود بن عامر وقتيبة بن سعيد ومعروف الكرخي وعلي بن المديني والبخاري ومسلم وأبو داود وإبراهيم الحربي وأبو زرعة الرازي وأبو زرعة الدمشقي وأبو بكر الأثرم

وأبو بكر بن أبي الدنيا وأبو القاسم البغوي ومحمد بن إسحاق الصاغاني وأبو حاتم الرازي وأحمد بن أبي الحواري وموسى بن هارون وحنبل بن إسحاق وعثمان بن سعيد الدرامي وحجاج بن الشاعر وخلائق كثيرون ذكرهم الحافظ أبو الفرج على حروف المعجم.

وكان محباً لطلب العلم مكثراً من الحديث.

وكان يقول: ما تزوجت إلا بعد الأربعين.

وقال: نحن كتبنا الحديث من ستة أوجه أو سبعة ولم نضبطه فكيف يضبطه من كتبه من وجه واحد.

وما زال في طلب الحديث حتى قال صالح بن الإمام أحمد: رأى رجل مع أبي محبرة فقال له: يا أبا عبد الله أنت قد بلغت هذا المبلغ وأنت إمام المسلمين، فقال: مع المحبرة إلى المقبرة، وقال: اطلب العلم إلى أن أدخل القبر.

وقال أحمد الدورقي: لما قدم أحمد من مكة من عند عبد الرزاق رأيت به شحوباً وآثار التعب والنصب فقلت له: لقد شققت على نفسك في خروجك إليه، فقال: ما أهون المشقة فيما استفدنا منه، كتبنا عنه حديث الزهري عن سالم بن عبد الله عن أبيه وحديثه عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة، وكان مكثراً من الحديث، ومن المشايخ المعروفين بالحديث حتى وقع له أنه أخذ عن ثلاثة من الشيوخ ثلاثمائة ألف حديث وهذا القدر كاف في علو مرتبته.

قال أحمد بن منيع: سمعت جدي يقول: مر أحمد بن حنبل جائياً من الكوفة وبيده خريطة فيها كتب، فأخذت بيده فقلت: مرة إلى الكوفة ومرة إلى البصرة إلى متى؟ إذا كتب الرجل ثلاثين ألف حديث ألم يكفه؟ فسكت، ثم قلت: ستين ألف، فسكت، فقلت: مائة ألف، فقال: حينئذٍ يعرف شيئاً، قال أحمد بن منيع: فنظرنا فإذا أحمد قد كتب عن ثلاثة، ثلاثمائة ألف حديث، بهز بن أسد وعفان وأظنه قال وروح بن عبادة.

وقال محمد بن أحمد بن النصر: سئل أحمد عن الرجل يسمع مائة ألف حديث أيفتي؟ قال: لا، قلت: فمائتي ألف حديث، قال: لا، قلت: فثلاثمائة ألف حديث؟ قال: لعله.

وقال أبو علي الضرير: قلت لأحمد بن حنبل: كم يكفي الرجل من الحديث حتى يمكنه أن يفتي، أيكفيه مائة ألف حديث؟ قال: لا، قلت: فمائتا ألف؟ قال: لا، قلت: أربعمائة ألف؟ قال: لا، قلت: خمسمائة ألف؟ قال: أرجو.

قال ابن حجر: ومن عظيم ما اتصل بي من حفظه قول أبي زرعة الرازي: أن كتبه كانت اثني عشر حملاً، وكان يحفظها كلها على ظهر قلبه.

قال عبد الله بن الإمام أحمد: سمعت أبا زرعة يقول: كان أبوك يحفظ ألف ألف حديث.

وقيل لأبي زرعة: من أحفظ مشايخ المحدثين؟ قال: أحمد بن حنبل.

وقال عبد الوهاب الوراق: ما رأيت مثل أحمد بن حنبل، قالوا له: وأي شيء بان لك من فضله وعلمه على سائر من رأيت؟ قال: رجل سئل عن ستين ألف مسألة فأجاب فيها بأن قال حدثنا وأخبرنا.

فصل
في ثناء الائمة على الإمام احمد بن حنبل

قد أكثر أئمة الإسلام وعلماء الأنام من الثناء على هذا الإمام وبالغوا في تعظيمه والثناء عليه، لا سيما الإمام الشافعي رضي الله عنه.

قال الشافعي رحمه الله: خرجت من بغداد وما خلفت بها أحداً أورع ولا أتقى ولا أفقه، وأظنه قال: ولا أعلم من أحمد بن حنبل.

وقال أيضاً: ما خلَّفت بالعراق أحداً يشبه أحمد.

وقال الربيع: قال لنا الشافعي: أحمد إمام في ثمان خصال، إمام في الحديث، إمام في الفقه، إمام في اللغة، إمام في القرآن، إمام في الفقر، إمام في الزهد، إمام في الورع، إمام في السنة.

وقال أيضاً: عجبت لصغير لا يقول شيئاً إلا صدقه الكتاب وهو أحمد.

وقال أيضاً: ما رأيت أعقل من أحمد وسليمان بن داود.

وحدث الشافعي عن أحمد فقال: أنبأنا الثقة من أصحابنا ـ يعني أحمد ـ.

وقال الشافعي: يا أبا عبد الله إذا رأيت الحديث الصحيح فأخبرني حتى أذهب إليه، وفي رواية أخرى قال الشافعي لأحمد: أنت أعلم بالأخبار الصحاح منا فإذا كان خبر صحيح فأعلمني به حتى أذهب إليه كوفياً كان أو مصرياً أو شامياً، نقل ذلك البيهقي وغيره.

وامتدحه الإمام الشافعي بالبيتين المشهورين:

قالوا يزورك أحمد وتزوره ... قلت الفضائل لا تفارق منزله
إن زارني فبفضله أو زرته ... فلفضله فالفضل في الحالين له

ويقال إن الإمام أحمد أجابه بقوله:

إن زرتنا فبفضل منك تمنحنا ... أو نحن زرنا فللفضل الذي فيكا
فلا عدمنا كلا الحالين منك ولا ... نال الذي يتمنى فيك شانيك

وقال قتيبة بن سعيد: خير أهل زماننا ابن المبارك ثم هذا الشاب يعني أحمد.

وقال أيضاً: أحمد وإسحاق بن راهويه إماما الدنيا.

وقال أيضاً: من أحب أحمد فهو صاحب سنة، وفي أخرى: فاعلم أنه على الطريق.

وقال أيضاً: لو أدرك أحمد عصر الثوري ومالك والأوزاعي والليث بن سعد لقدم، فقيل له: يضم أحمد إلى التابعين؟ فقال: إلى كبار التابعين.

وقال أيضاً: لولا الثوري لمات الورع ولولا أحمد لأحدثوا في الدين.

وقال أيضاً: يموت أحمد وتظهر البدع.

وقال عبد الرزاق: ما رأيت أفقه من أحمد ولا أورع.

وقال أيضاً: ما قدم علينا أحد يشبه أحمد.

وقال أيضاً: رحل إلينا أربعة من رؤساء الحديث، الشاذكوني وكان أحفظهم للحديث، وابن المديني وكان أعرفهم باختلافه، ويحيى بن معين وكان أعلمهم بالرجال، وأحمد بن حنبل وكان أجمعهم لذلك كله.

وفي هذا منقبة عظيمة لأحمد حيث أن هؤلاء الأربعة أعظم من رحل إلى عبد الرزاق وأعظمهم الإمام أحمد.

وقال أيضاً: إن يعش هذا الرجل يكن خلفاً من العلماء.

قال أبو يعقوب: ما رحل إلى أحد بعد رسول الله ﷺ ما رحل إلى عبد الرزاق، ويقول: ما قدم علينا أحد يشبه أحمد.

وأثنى عليه يزيد بن هارون ورجع إلى قوله في مسألة ضمان العارية.

قال أحمد بن سنان: ما رأيت يزيد بن هارون لأحد أشد تعظيماً منه لأحمد، كان يقعده إلى جنبه إذا حدثنا وكان يوقره ولا يمازحه، وضحك إنسان بحضرة يزيد بن هارون وأحمد حاضر فغضب يزيد وقال: أتضحكون وأحمد ها هنا.

وقال وكيع: ما قدم الكوفة مثل أحمد.

وقال عبد الرحمن بن مهدي: أحمد أعلم الناس بحديث سفيان.

وقال أيضاً: ما نظرت أحمد إلا تذكرت سفيان.

وقال أيضاً: من أراد أن ينظر إلى ما بين كتفي الثوري فلينظر إلى هذا ـ يعني أحمد ـ.

وقال أيضاً: كاد أحمد أن يكون إماماً في بطن أمه.

وقال يحيى بن سعيد القطان: ما قدم علي مثل أحمد ويحيى بن معين.

وقال أيضاً: ما قدم علي من بغداد أحب إلي من أحمد.

وقال لمن ذكر أحمد: أتذكر حبراً من أحبار هذه الأمة.

وقال الهيثم بن جميل: إن عاش هذا الفتى فسيكون حجة على أهل زمانه ـ يعني أحمد ـ وفي رواية أخرى قال: إن لكل زمان رجلاً يكون حجة على الخلق وإن فضيل بن عياض حجة على أهل زمانه وإن عاش هذا الفتى سيكون حجة على أهل زمانه ـ يعني أحمد ـ وقيل له يوماً: خالفوك في كذا، فقال: من خالفني؟ فقال: أحمد، فقال: وددت لو نقص من عمري ويزيد عمره وهو خليق أن ينتفع به المسلمون.

وقال حفص بن غياث: ما قدم الكوفة مثل أحمد.

وقال أبو الوليد لما ضرب أحمد: لو كان في بني إسرائيل لكان أحدوثة.

وقال أيضاً لما ورد عليه كتاب أحمد: ما بالكوفة والبصرة أحب إلي منه ولا أرفع قدراً في نفسي منه.

وسئل أبو مسهر الدمشقي: أتعرف أحداً يحفظ دين هذه الأمة؟ فقال: لا أعلم إلا شاباً بناحية المشرق ـ يعني أحمد.

* فهذا بعض كلام مشايخه فيه.

وأما ثناء نظرائه عليه: ـ

فقال أبو بكر الحميدي: ما دمت بالحجاز وأحمد بالعراق وإسحاق بخراسان لا يغلبنا أحد.

وقال رجل بحضرة ابن أبي أويس: ذهب أصحاب الحديث، فقال: ما أبقى الله أحمد فلم يذهبوا.

وقال علي بن المديني: اتخذت أحمد إماماً فيما بيني وبين الله تعالى، ومن يقوى على ما يقوى عليه أحمد.

وقال أيضاً: إذا ابتليت بشيء فأفتاني أحمد بن حنبل لم أبال إذا لقيت ربي كيف كان، وقال أيضاً: أحمد سيدنا.

وسئل ابن المديني التحديث فقال: إن سيدي أحمد أمرني أن لا أحدث إلا من كتاب.

وقال أيضاً: أحمد عندي أفضل من سعيد بن جبير في زمانه إذ كان لسعيد نظير وليس لهذا نظير.

وقال أيضاً: ليس في أصحابنا أحفظ من أحمد.

وقال أيضاً: حفظ الله أحمد، هو اليوم حجة الله على خلقه.

وقال أيضاً: إن الله تعالى أعز هذا الدين برجلين لا ثالث لهما: أبو بكر الصديق يوم الردة وأحمد يوم المحنة.

وقال أيضاً: ما قام أحد من الإسلام بعد رسول الله ﷺ ما قام أحمد، فقيل له: ولا أبو بكر فقال: ولا أبو بكر فإنه كان له أعوان ولم يكن لأحمد أعوان، وقال أيضاً: أعرف أحمد خمسين سنة يزداد خيراً.

وقال يحيى بن معين: ثلاثة حديثهم لله تعالى: ابن عبيد والقعنبي وأحمد.

وقال أيضاً: أصحاب الحديث وثقاة الناس أربعة: وكيع

ويعلى بن عبيد والقعنبي وأحمد.

وقال أيضاً: أراد الناس أن أكون مثل أحمد لا والله لا أكون مثله أبداً.

وقال محمد بن الحسين [الأنماطي]: كنا في مجلس فيه يحيى بن معين وأبو خيثمة وجماعة من كبار العلماء فأثنوا على أحمد، فقال رجل: لا تكثروا، فقال يحيى بن معين: وكثرة الثناء على أحمد تستكثر لو اقتصرنا على ذكره فقط في مجلسنا لما وفينا.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلّام: انتهى العلم إلى أربعة: أحمد وهو أفقههم وابن أبي شيبة وهو أحفظهم وعلي بن المديني وهو أعلمهم ويحيى بن معين وهو أكتبهم.

وقال أيضاً: أحمد إمامنا وإني لأتزين بذكره ولم أر أعلم بالسنة منه وليس في شرق ولا غرب مثله.

وقال أيضاً: زرت أحمد يوماً فأجلسني صدر داره وجلس دوني فقلت: يا أبا عبد الله صاحب البيت أحق بصدره، فقال: نعم يقعد ويقعد من يريد فيه، فقلت في نفسي: خذ هذه فائدة ثم قلت: لو فعلت حقك لأتيتك كل يوم فقال: لا تقل إن لي إخواناً ألقاهم مرة واحدة في السنة وأنا أوثق بمودتهم ممن ألقى كل يوم، فقلت: هذه أخرى، فلما أردت القيام قام معي فقلت: لا تفعل فقال: من تمام زيارة الزائر أن يمشى معه إلى باب الدار ويؤخذ بركابه، فقلت: هذه ثالثة ثم فعل وأخذ بركابي.

وقال إبراهيم الحربي: أدركت ثلاثة لم ير مثلهم أبداً ولا تلد النساء مثلهم، أبا عبيد القاسم بن سلام مثلته بجبل نفخ فيه العلم، وبشر بن الحارث شبهته برجل عجن من قرنه إلى قدمه عقلاً، وأحمد بن حنبل كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين من كل صنف يقول ما شاء ويمسك ما شاء.

وقال أيضاً: أنا أقول سعيد بن المسيب في زمانه وسفيان الثوري في زمانه وأحمد في زمانه.

وقال أيضاً: انتهى علم رسول الله ﷺ المروي بالكوفة والمدينة والبصرة والشام إلى أربعة: أحمد ويحيى بن معين وزهير بن حرب وأبي بكر بن أبي شيبة وكان أحمد أفقه القوم.

وكان محمد الشافعي لما مات وسئل عن قوم اضطروا إلى الصلاة عراة فقال: أما التابعون وأحمد سيدهم فيقولون يصلي بهم إمامهم وسطهم يومئون إيماءاً فمن خالف التابعين وأحمد معهم لا أبالي به.

وقال أيضاً: يقول الناس أحمد بن حنبل بالتوهم والله ما أجد لأحد من التابعين عليه مزية ولا أعرف أحداً يقدر قدره ولا يعرف من الإسلام محله ولقد صحبته عشرين سنة صيفاً وشتاءاً وحراً وبرداً وليلاً ونهاراً فما لقيته في يوم إلا وهو زائد عليه بالأمس، ولقد كان يقدم أئمة العلماء من كل بلد وإمام كل مصر بجلالتهم ما دام الرجل منهم خارجاً عن مسجد أحمد فإذا دخل المسجد صار غلاماً متعلماً.

وقال إسحاق بن راهويه وقد ذكر عنده أحمد: لا ندرك فضله.

وقال أيضاً: أحمد بن حنبل حجة بين الله وبين عبيده في أرضه.

وقال أيضاً: لولا أحمد وبذله نفسه فيما بذل لذهب الإسلام.

وقال بشر بن الحارث وقد سئل عن أحمد: أن أسأل عنه، رجل أدخل الكير فخرج ذهباً أحمر، وفي أخرى نحوه وقال في آخره: فبلغ ذلك أحمد فقال: الحمد لله الذي أرضى بشر بنا.

وقيل لبشر: يا أبا نصر إن هذا الرجل ـ يعني أحمد ـ قام اليوم بأمر يعجز عنه الخلق، فقال: أرجو أن يكون ممن نفعه الله بالعلم.

وسئل بشر عن أحمد أيام الفتنة فقال: ذاك من أئمة المسلمين.

وقال لبشر أصحابه حين ضرب أحمد: يا أبا نصر لو خرجت فقلت لهم أنا على قول أحمد فقال: أتريدون أن أقوم مقام الأنبياء كما قام أحمد. ولما حمل أحمد ليضرب جاؤوا إلى بشر فقالوا له: قد حمل أحمد والسياط وقد وجب عليك أن تتكلم، فقال: أتريدون مني مقام الأنبياء حفظ الله أحمد من بين يديه ومن خلفه، وقيل لبشر: لو تكلمت فذكر نحوه.

وقيل له: ألا صنعت كما صنع أحمد فذكر نحوه، وزاد بعد قوله: ومن خلفه ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله.

وجاءه رجل فقال: الساعة ضرب أحمد تسعة عشر سوطاً، فمد بشر رجله وقال: ما أقبح هذه الساق أن لا يكون فيها هذا القيد نصرة لهذا الرجل.

وأتى بشراً رجل من المشايخ العباد لما أخذ أحمد فقال: قم بنا ننصر هذا الرجل، فقال: هذا مقام النبيين لا استطيعه.

وقال بشر: سمعت المعافى بن عمران يقول: سئل سفيان الثوري عن الفتوة، فقال: الفتوة العقل والحياء ورأسها الحفاظ وزينتها الحلم والأدب وشرفها العلم والورع وحليتها المحافظة على الصلوات وبر الوالدين وصلة الرحم وبذل المعروف وحفظ الجار وترك التكبر ولزوم الجماعة والوقار وغض الطرف عن المحارم ولين الكلام وبذل السلام وبر الفتيان العاقلين أمر الله ونهيه وصدق الحديث واجتناب الحلف والأيمان وإظهار المودة وإطلاق الوجه وإكرام الجليس والإنصات للحديث وكتمان السر وستر العيوب وأداء الأمانة وترك الخيانة والوفاء بالوعد والصمت في المجالس من غير عي والتواضع من غير حاجة وإجلال الكبير والرفق بالصغير والرأفة والرحمة للمسلمين والصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء وكمالها الخشية لله عز وجل فينبغي للفتى أن

(١) جاء في هامش المخطوط ـ قف على هذه الفائدة ـ.

يكون فيه هذه الخصال فإذا كان كذلك كان فتى، قال بشر: وقد جمع أحمد بن حنبل هذه الخصال فكان فتى.

وقال ذو النون المصري وهو في السجن لما دخل عليه أبو بكر المروزي: ما حال سيدنا؟ - يعني أحمد -.

وقال أبو زرعة: ما رأيت مثل أحمد في فنون العلم وما قام أحد مقامه.

وقال أيضاً: ما رأت عيني مثله، فقيل له: في العلم؟ فقال: في العلم والزهد والفقه والمعرفة وكل خير ما رأيت مثله.

وقال: لم أزل أسمع الناس يذكرون أحمد ويقدمونه على يحيى بن معين وعلي بن المديني وأبي خيثمة، وما أعلم في أصحابنا أفقه من أحمد ولا أجمع منه، فقيل له: إسحاق بن راهويه؟ فقال: أحمد أكثر وأفقه وقد رأيت الشيوخ فما رأيت أكمل منه، اجتمع فيه زهد وفضل وأشياء كثيرة.

وقال الإمام أبو ثور وقد سئل عن مسألة: قال فيها أبو عبد الله أحمد شيخنا وإمامنا كذا وكذا.

وقال: أحمد أعلم وأفقه من الثوري.

وقال: لو قال أحد ان أحمد من أهل الجنة لما عنف.

وقال أيضاً: كنت إذا نظرت إلى أحمد خيل لي أن الشريعة بين عينيه.

وقال المزني صاحب الشافعي: أحمد بن حنبل يوم المحنة أبو بكر يوم الردة وعمر يوم السقيفة وعثمان يوم الدار وعلي يوم صفين.

وقال أبو يعقوب البويطي في كتابه إلى الربيع بن سليمان من بغداد من السجن: إني لأرجو أن يجري الله تعالى أجر كل ممتنع في هذه المسألة لسيدنا الذي ببغداد أحمد بن حنبل.

وقال محمد بن يحيى الذهلي: جعلت أحمد إماماً فيما بيني وبين الله تعالى، وفي أخرى نحوه.

وقال سفيان بن وكيع: أحمد محنة من عابه فهو فاسق.

وقال أحمد بن شعيب: لم يكن مثل أحمد بن حنبل وعلي بن المديني ويحيى بن معين وإسحاق بن راهويه، وذكر معرفة ابن المديني بعلل الحديث ومعرفة يحيى بن معين بالرجال ومعرفة إسحاق بالفقه ثم قال: وأحمد أعلم بالعلل من إسحاق، وقال: جمع أحمد المعرفة بالحديث والفقه والورع والزهد والصبر.

وقال نصر بن علي: أحمد أفضل أهل زمانه.

وقال أبو معمر: ما رأيت منذ خمسين سنة مثل أحمد، ولو كان في زمن ابن المبارك لآثرناه عليه.

وقال أبو جعفر: أحمد من أعلام الدين.

وقال يعقوب بن سفيان: كتبت عن ألف شيخ، وحجتي فيما بيني وبين الله رجلان: أحمد بن حنبل وأحمد بن صالح المصري.

وقال محمد بن يحيى الأزدي: أحمد إمامنا وهو بقية المؤمنين ولا نخالفه، قد رضينا به إماماً، فيه خلف من العلماء نبرأ ممن يخالفه فإنه مبتدع مخذول، ومراده من يخالفه في العقيدة.

وقال أبو همام الوليد: ما رأيت مثل أحمد ولا أرى.

وقال أبو عمير النحاس وقد ذكر عنده أحمد رحمه الله: عن الدنيا ما كان أصبره وبالماضين ما كان أشبهه، وبالصالحين ما كان ألحقه، عرضت له الدنيا فأباها والبدع فنفاها، واختصه الله بنصرة دينه والقيام بحفظ سنته ورضيه لإقامة حجته ونصر كلامه حين عجز عنه الناس.

وقال محمد بن إبراهيم البوسنجي: ما رأيت أجمع في كل شيء

ولا أعقل من أحمد، وهو عندي أفضل وأفقه من سفيان الثوري وسفيان لم يمتحن في الشدة والبلوى كأحمد، ولا علم سفيان ومن تقدم من فقهاء الأمصار كأحمد، امتحن في السراء والضراء لدى أربعة خلفاء، فكان معتصماً بالله، تداوله المأمون والمعتصم والواثق بعضهم بالضرب والحبس وبعضهم بالإخافة فلم يحد عن الحق، ثم امتحن أيام المتوكل بالتكريم والتعظيم وبسط الدنيا فلم يحد عن الحق رغبة ولا رهبة وهذه الحالات لم يمتحن بها سفيان.

وقال أيضاً: ما رأيت أحداً في عصر أحمد أجمع منه ديانة وصيانة وملكاً لنفسه وطلقاً لها وفقهاً وعلماً وأدب نفس وكرم خلق وثبات قلب وكرم مجالسة.

وقال حجاج بن الشاعر: منَّ الله على هذه الأمة بأحمد ثبت في القرآن ولولاه لهلك الناس.

وقال: قبلت يوماً بين عيني أحمد وقلت له: بلغك الله مبلغ سفيان ومالك، وبلغ والله في الإمامة أكثر من مبلغهما.

ومر المروزي بحجاج بن الشاعر فقام إليه وقال: سلام عليك يا خادم الصديقين وقال: ما رأيت أفضل من أحمد.

وقال: كنت أذكر أحمد في الطريق بعد انصرافي من عنده فأبكي شوقاً إليه.

وقال أبو عمير الطالقاني عن مشايخه إنه سمعهم يقولون: أحمد قرة عين الإسلام

وقال عبد الوهاب الوراق: كان أحمد أعلم أهل زمانه وأحمد إمامنا وهو من الراسخين في العلم وإذا سألني الله بمن اقتديت؟ أقول: بأحمد.

وقال أيضاً: ما رأيت مثل أحمد، فقالوا له: بأي دليل؟ فقال: رجل سئل عن ستين ألف مسألة فأجاب فيها بأخبرنا وحدثنا.

وقال مهنى بن يحيى: ما رأيت أحداً أجمع لكل خير من أحمد ما رأيت مثله في فقهه وعلمه وزهده وورعه.

وقال شيخ أهل السنة أبو الحسن الأشعري: إن قال قائل قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة فعرفونا قولكم الذي به تقولون وديانتكم التي بها تدينون، قيل له: قولنا الذي نقول به وديننا الذي به نتدين، التمسك بكتاب الله وسنة نبينا عليه الصلاة والسلام وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ونحن بذلك معتصمون وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن حنبل نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته قائلون، ولما خالف قوله مجانبون لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق ورفع به الضلال وأوضح به المنهاج وقمع به بدع المبتدعين وزيغ الزائغين وشك الشاكين، فرحمة الله عليه من إمام مقدم، وجليل معظم وكبير مفخم.

وبالجملة فثناء الأئمة والمشايخ والزهاد والعباد لهذا الإمام لا يحصره كتاب:

قال إدريس بن عبد الكريم المقرىء: رأيت علماءنا مثل الهيثم بن خارجة ومصعب الزبيري ويحيى بن معين، وذكر جماعة عديدة أسمائهم وقال في آخره لا أحصيهم من أهل العلم والفقه يعظمون أحمد ويجلونه ويوقرونه ويبجلونه ويقصدونه للسلام عليه.

وقال عبد بن حميد: كنا في مسجد وأصحاب الحديث يتذاكرون وأحمد يومئذٍ شاب وهو المنظور إليه.

وقال محمد بن شداد: كنا على باب إسماعيل بن علية جماعة إذ طلع أحمد فجاء فسلم فسألوه عن مسألة فأجاب فلما ولى أجمع القوم أنه ما يأتي باب إسماعيل بن علية أفضل منه.

قال الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي: والإمام أحمد بحمد الله مسألة إجماع أقر له الكل بالفضل وغيره إلا الخصوم.

وقال أبو الوفاء: ومن عجيب ما تسمعه من بعض الجهلة أن أحمد ليس بفقيه ولكنه محدث، وأين هم من الاختيارات التي خرجت عنه؟ وبناها على الحديث بناء لا يعرفونه، وأين هم من دقائق مسائل الفقه التي لا ترى لأحد منهم؟ فإنه قد انفرد بما سلموه له من الحفظ وشاركهم فيما لهم لا سيما مع ما مر لك من مدح هؤلاء الأئمة له بالحفظ والفقه والفضل وغير ذلك.

قال أحمد بن سعيد الرازي: ما رأيت أسود الرأس أحفظ لحديث رسول الله ﷺ ولا أعلم بفقهه ومعانيه من أبي عبد الله أحمد بن حنبل.

والكلام في هذا مما يطول.

فصل
في ثناء إلياس والخضر وغيرهما عليه

روى أبو الفرج بسنده إلى أبي حفص القاضي قال: قدم على أبي عبد الله أحمد بن حنبل رجل من بحر الهند فقال: إني خرجت أريد الصين فأصيب مركبنا فأتاني راكبان على موجة من أمواج البحر فقال لي أحدهما: أتحب أن يخلصك الله على أن تقرىء أحمد بن حنبل منا السلام؟ قلت: ومن أحمد؟ ومن أنتما يرحمكما [الله]؟ فقال: أنا إلياس وهذا الملك الموكل بجزائر البحر، وأحمد بن حنبل بالعراق، قلت: نعم، فنفضني البحر نفضة فإذا أنا بساحل الأبلة وقد جئتك لأبلغك السلام.

وقال بلال الخواص: كنت في تيه بني إسرائيل فإذا أنا برجل يماشيني فعجبت منه ثم ألهمت أنه الخضر فقلت له: بحق الحق من أنت؟ قال: أخوك الخضر، قلت له: أريد أن أسألك مسألة، قال: سل، قلت: ما تقول في الشافعي؟ قال: من الأوتاد، قلت: فأحمد بن حنبل؟ قال: صديق.

وفي مجمع الأحباب في رواية أخرى عن بلال الخواص: قلت له: ما تقول في بشر بن الحارث؟ قال: لم يخلف بعده مثله، قلت: فما تقول في أحمد؟ قال: صديق، قلت: فما تقول في أبي ثور؟ قال: رجل طالب حق، قلت: فبأي وسيلة رأيتك؟ قال: ببرك لأمك.

وقال إسحاق بن إبراهيم البستي: سمعت أبي يقول: قال رجل من أهل بغداد: ركبت سفينة في البحر فخرجنا إلى جزيرة فرأيت شيخاً قاعداً أبيض الرأس واللحية فسلمت عليه، فقال: إذا أتيت بغداد فأقرأ أحمد بن حنبل منا السلام وقل له: فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون ثم غاب الشيخ فعلمنا أنه الخضر.

وقال سلمة بن شبيب: كنا مع أحمد بن حنبل جلوساً إذ جاءه رجل فقال: من منكم أحمد بن حنبل؟ فقال له أحمد: ما حاجتك؟ فقال: صرت إليك من أربعمائة فرسخ برها وبحرها، جاءني الخضر ليلة الجمعة وقال لي: لم لا تخرج إلى أحمد بن حنبل؟ فقلت له: لا أعرفه، فقال: تأتي بغداد واسأل عنه وقل له: الذي على العرش راض عنك وسائر الملائكة راضون عنك لصبرك لله، وفي رواية نحوه وقال له: الأعمال بالخواتيم، هل لك حاجة غير ما ذكرت؟ فقال: لا، ورجع.

وقال بعض الصيادين: كنا نصيد السمك فإذا رجل عليه أطمار رثة يمشي فاستقبلته فقلت له: أأنت من الأبدال؟ قال: نعم، قلت: إلى أين؟ قال: الشام، قلت: من أين؟ قال: من عند أحمد بن حنبل، قلت: ما تعمل عنده؟ قال: أسأله عن مسألة، أحمد منا وهو أفضل منا، ثم صلينا المغرب ثم العشاء ثم انفتل فقلت له: إن هذا السمك نصيده، فقال: إنا لا نأكل، ثم كأن الأرض ابتلعته.

وقال أحمد بن علي: سرنا في نهر أياماً ففني زادنا فقصدت بخارى أشتري طعاماً فإذا رجل أشقر أحمر فقال: من أين؟ فقلنا: من بغداد، قال: فما فعل أحمد؟ قلنا: تركناه حياً، فرفع رأسه يدعو له،

فقلت لرفيقي: بقي لك شيء؟ هذا أقصى عمل الإسلام وهذا موضع الترك.

وقال أبو بكر المروزي: قلت لأحمد: إن رجلاً قال لي: إنه من بلاد الترك وإلى هناك يدعون لك، فكيف تؤدي شكر نعمة الله وما بث لك في الناس؟ فقال: أسأل الله أن لا يجعلنا مرائين.

وقال أحمد بن حسين: سمعت رجلاً يقول: عندنا بخراسان يرون أن أحمد بن حنبل لا يشبه البشر، يظنون أنه من الملائكة.

وقال علي بن الجهم: رأيت الناس يمرون أفواجاً فسألت، فقالوا: رجل رأى أحمد، فقلت له: رأيته؟ فقال: وصليت في مسجده.

وقال أبو بكر المروزي: رأيت بعض النصارى المتطببين قد خرج من عند أحمد ومعه قسيس أو راهب، فقال: إنه سألني أن يجيء معي حتى ينظر أحمد، وقال له: إني لأشتهي أن أراك منذ ستين سنة وليس بقاؤك صلاح للمسلمين فقط بل للخلق وما منا إلا من رضي بك، فقلت لأحمد: إني لأرجو أن الدعاء لك في جميع الأمصار، فقال: يا أبا بكر إذا عرف الرجل نفسه فما ينفع كلام الناس.

وقال أيضاً: قلت لأحمد: ما أكثر الداعي لك، فقال: أخاف أن يكون هذا استدراجاً.

* وبالجملة فالكلام في هذا مما يطول، وشهرة إمامته ومناقبه وسيادته وبراعته وزهادته ومجموع محاسنه كالشمس إلا أنها لا تغرب ـ رضي الله عنه ـ ونفعنا به، آمين.

فصل
في تواضعه وحسن اخلاقه

قال يحيى بن معين: صحبنا أحمد خمسين سنة فلم يفتخر علينا

وكان ربما أخذ القدوم وخرج ليصلح دار سكانه بيده وربما اشترى الحطب بنفسه وحمله.

وقال له بعضهم: إنك رجل من العرب فمن أيهم؟ فقال: نحن قوم مساكين، ثم أعاد عليه بعد ذلك مراراً وهو يجيبه بذلك.

وقال له آخر: إئذن أن أقبل رأسك، فقال: لم أبلغ ذلك.

وقال له آخر: أحييت السنة، فقال له: هذا فساد لقلب الرجل.

وقال له آخر: الحمد لله الذي رأيتك، فقال له: ومن أنا؟

وقال له آخر: يا أبا عبد الله الناس محتاجون إليك في كذا وكذا وذكر الحديث ومسائل الفقه، فقال: إلي أنا؟ ثم تنفس الصعداء ورؤي أثر الغم في وجهه.

وقال له آخر: جزاك الله عن الإسلام خيراً، فقال: بل جزى الله الإسلام عني خيراً ومن أنا؟ ومن أنا؟

وسأله آخر الدعاء، فقال: ونحن من يدعو لنا؟

وروي أنه قال: من أنا حتى تجيئوا إلي؟ من أنا؟ اذهبوا أطلبوا الحديث.

ولمسه آخر بيده ثم جعل يمسح بدنه بيده فغضب وأنكر إنكاراً شديداً.

وقال له آخر: لا يزال الناس بخير ما بقيت، فقال له: لا تقل هذا، من أنا في الناس؟

وسأله عن الورع فاغتم لذلك حتى شق على السائل ما فعله ثم ذهب عنه وهو يقول: ما أظنه ينتفع بنفسه أياماً حيث جددنا عليه غماً.

وذكر يوماً عنده الورع فقال: أسأل الله تعالى أن لا يمقتنا، أين نحن من أهل الورع؟

وقال له آخر: ما أكثر الداعين لك، فقال: أخشى أن يكون

استدراجاً، أسأل الله أن يجعلنا خيراً مما يظنون ويغفر لنا ما لا يعلمون.

وقال آخر: سمعت بعض المحدثين يقول: أبو عبد الله لم يزهد في الدراهم وحدها بل هو زاهد في الناس أيضاً، فقال: ومن أنا حتى أزهد في الناس؟ هم يريدون أن يزهدوا في.

وكان إذا أراد الخروج من المسجد وبحضرته جماعة من الشيوخ أو الأحداث من قريش أو الأشراف قدمهم وخرج بعدهم.

وكان يحب الفقراء ولم ير الفقير في مجلس أعز منه في مجلسه ويعرض عن أهل الدنيا ويعلوه السكينة والوقار ويجلس للفقهاء فلا يتكلم حتى يسأل، يجلس حيث انتهى به المجلس ولا يتصدر ولا يمد رجله إكراماً لجليسه.

وقال البوسنجي: ما رأيت أحمد جالساً إلا القرفصاء: إلا إن يكون في الصلاة، وقد روى عن النبي ﷺ أنه قال: «جلسة المتخشع القرفصاء» والقرفصاء أن يجلس الرجل على إليتيه رافعاً ركبتيه إلى صدره مفضياً بأخمص قدميه إلى الأرض وربما احتبى بيديه فلا جلسة أخشع منها.

وكان كثيراً ما يدعى فيقول: لبيك.

وكان لا يجهل وإن جهل عليه احتمل، لم يكن بالحقود ولا العجول.

وكان ربما احتاج فخرج مع اللقاط، ولقط يوماً شيئاً يسيراً فقيل له: قد أكلت الخبز الحلال مما لقطت.

وكان ربما احتاج فنسخ بالأُجرة.

وقال أبو داود: كان الإمام أحمد من أحيا الناس وأكرمهم نفساً وأحسنهم عشرة وأدباً، كثير الإطراق والغض معرضاً عن القبيح واللغو لا يسمع منه إلا المذاكرة بالحديث وذكر الصالحين وكان ذا وقار وسكينة يبش للاقيه ويكثر التواضع للمشايخ مع إكرامهم له وتعظيمهم

إياه لا سيما يحيى بن معين وكان أكبر منه بنحو من سبع سنين.

وقال عبدوس العطار: وجهت بابني إلى أبي عبد الله فرحب به وأجلسه في حجره وأرسل فاتخذ له خبيصاً ووضعه بين يديه وجعل يبسطه وقال للجارية: كلي معه، ثم قام فجاء وفي ثوبه لوز وسكر وشده في منديل ودفعه إلى الخادم وقال للصبي: إقرأ على أبي محمد السلام.

وكان يجيب من يدعوه إلى عرس أو إملاك ويأكل.

ودعاه رجل فأجاب فلما استقر به المجلس، أخبر أن بالمجلس آنية فضة فلما رآها قام وتبعه من في البيت فذهب إليه الداعي وحلف أنه لم يكن ذلك بأمره ولا علم به وجعل يلح عليه وهو يأبى فنزل بالرجل أمر عظيم حيث جرى ذلك، وفي أخرى: أنه رأى آنية فضة فوق كرسي فقال: زي المجوس، زي المجوس. وخرج.

وحضر يوماً عند بعضهم فلما قدم الطعام أكل معهم فلما قدم الفالوذج امتنع فسئل الأكل منه فقال: طعام رفيع ثم لم يزد على لقمة واحدة.

وكان ربما اتخذ العدس بالشحم والتمر ثم يخص الصبيان بقصعة ثم يصوت ببعضهم فيضحكون، وكان يستف الخبيص بكفه لا بالمعلقة.

وكان حسن الجوار يؤذى فيحتمل.

قال بعض جيرانه: كان لي برج حمام يشرف على أبي عبد الله فمكث صابراً على ذلك، فصعد عمي يوماً فأشرف عليه فقال: ما تستحي تؤذي أبا عبد الله؟ فقلت له: لم يقل لي شيئاً، ثم أنه ذبح الطيور وهدم البرج.

فصل
في هيبته

قال أحمد بن مسلم: كنا نهاب أن نُرادّ أحمد أو نحاجه - يعني لهيبته ولجلالة الإسلام -.

وقال الحسن بن أحمد والي الجسر: دخلت على إسحاق بن إبراهيم وفلان وفلان وذكر السلاطينْ فما رأيت أهيب من أحمد بن حنبل، صرت إليه لأكلمه فوقعت علي الرعدة حين رأيته من هيبته.

وزاره جماعة من الأمراء فمن هيبته لم يقرعوا بابه وإنما قرعوا باب عمه فخرج حين سمع.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: جالست أبا يوسف القاضي ومحمد بن الحسن ويحيى بن سعيد القطان وعبد الرحمن بن مهدي وذكر جماعة ثم قال: فما هبت أحداً منهم ما هبت أحمد، دخلت عليه السجن لأسلم عليه فسألني رجل عن مسألة فلم أجبه هيبة له.

وزاره يحيى بن خاقان وزير الخليفة المتوكل بأمر المتوكل فجاء في موكب عظيم وكان يوماً مطيراً فنزل هيبة لأحمد خارج الزقاق، قال صالح ابن الإمام أحمد: فجهدت به أن يدخل راكباً فلم يفعل ودخل وهو يخوض في الطين فدخل البيت وأبي في الزاوية قاعد عليه كساء مرقع وعمامة والستر الذي على الباب قطعة خيش فسلم عليه وسأله عن حاله وقال: أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ويقول: كيف أنت في نفسك؟ وكيف حالك؟ وقد أنست بقربك، ويسألك أن تدعو له، فقال: ما يأتي علي يوم إلا وأنا أدعو له ثم قال له: قد وجه معي ألف دينار تفرقها على أهل الحاجة، فقال: يا أبا زكريا أنا في البيت منقطع وقد أعفاني أمير المؤمنين مما أكره، فقال: يا أبا عبد الله الخلفاء لا يحتملون هذا كله، فقال: يا أبا زكريا تلطف في ذلك ودعا له ثم قام.

فصل
في تعففه عن أموال الناس

كانت الخلفاء والأمراء والكبراء والمشايخ من العلماء تعرض عليه الأموال الجزيلة وهو لا يقبلها زهداً في الدنيا ورغبة عن ما في أيدي الناس.

قال عبد الرزاق: قدم علينا أحمد فأقام سنتين إلا شيئاً فقال له عبد الرزاق: ليست أرضنا هذه بأرض متجر وأرى أن تقبل مني كذا وكذا شيء من الذهب، فقال: أنا بخير ولم يقبل شيئاً ورهن نعليه عند خباز عند خروجه من اليمن وأكرى نفسه من الحمالين، وفي رواية: عرض عبد الرزاق عليه الدنانير فتبسم وقال: لو قبلت من غيرك قبلت منك.

وعرض عليه يزيد بن هارون نحواً من خمسمائة فلم يقبلها وعرض على ابن معين والمستملي فقبلا منه.

وقال حمدان الواسطي: قدم علينا أحمد ومعه جماعة قد نفذت نفقاتهم فبررتهم فقبلوا وجاءني أحمد بفروة فقال: قل لمن يبيع لي هذه فعرضت عليه صرة دراهم فلم يقبلها فقيل لي: هذا رجل صالح فأضعفها ففعلت فلم يقبل وأخذ الفروة وخرج.

وأراد مرة بيع جبته زمن البرد لحاجته فصرفه بعضهم عن ذلك وأخذ له من يزيد بن هارون مائة درهم فقال: إني لمحتاج عليها وابن سبيل ولكن لا أعود نفسي ذلك، ثم ردها وباع جبته.

وقال صالح بن أحمد: دخلت على أبي أيام الواثق والله يعلم حالنا وتحته لبد له سنون كثيرة وإذا تحته كتاب فقرأته فإذا فيه: يا أبا عبد الله قد وجهت لك بأربعة الآف درهم وأحب أن تقضي بها دينك وتوسع بها على عيالك وليست بصدقة ولا زكاة وإنما هو شيء ورثته من أبي، فقلت: يا أبت ما هذا؟ فاحمر وجهه وقال: رفعته منك، ثم

قال: إذهب بجوابه ثم كتب له: وصل كتابك ونحن في عافية فأما الدين فإنه لرجل لا يرهقنا والعيال في نعمة والحمد الله، ولما كان بعد حين كتب له الرجل كالأول فرد عليه كجوابه الأول، وفي رواية أن الذي وجهها إليه الجنيد بن عيسى مولى ابن المبارك.

ونوى رجل في بضاعة أن ربحها له ـ أي لأحمد ـ فجاء ربحها عشرة الآف فحملها إليه، فقال: جزاه الله خيراً نحن في غنى وسعة ولم يقبلها، وفي رواية أن الرجل محمد بن سليمان السرخسي.

وكان الحسن بن عبد العزيز قد ورث مائة ألف دينار فحمل إليه منها ثلاثة الآف دينار فردها إليه وقال: أنا في كفاية الله.

وقال إسماعيل بن حنبل: أحصى ما رده ـ يعني أحمد ـ حين جيء به إلى العسكر فإذا هو سبعون ألف.

وأخبره أهله أن ليس عندهم دقيق فقال: نعم الساعة، ثم كرر عليه فقال: الساعة وإذا بالباب يدق فأذن لمن أتاه بالدخول فدخل وإذا هو رجل على كتفه عصا فقال له: أنت أحمد بن حنبل؟ فقال: نعم، فقال: أنا رجل من خراسان مرض جار لي فعدته فقلت: ألك حاجة؟ فقال: نعم هذه خمسة الآف درهم توصلها إلى أحمد بن حنبل بعد وفاتي، فقال: أله بيننا وبينه قرابة؟ فقال: لا، قال: فبيننا وبينه رحم؟ قال: لا، قال: فبيننا وبينه نعمة يربها؟ قال: لا، قال: ضمها إليك رحمك الله، فزاد فخشن له ـ أي في الكلام ـ فحمل المال وانصرف.

ودفع إلى بعضهم دراهم يشتري له ورقاً فاشترى ثم أنه جعل بين الأوراق خمسمائة دينار ثم أنه أعطاه إياه من غير أن يعلمه ثم أنه لما فتحه جعلت الدنانير تتناثر في حجره منه فقال لأصحابه: من يعلم منكم الرجل؟ فأعلمه به بعضهم فقام معه إلى مكانه فلما لحقه وضع دنانيره في حجره وانصرف، وفي رواية أخرى: أنه رد الورق معه فجعل الرجل يقول له: بدراهمك اشتريت الكاغد فخذه فأبى.

والأمور التي وقعت له في رد الدراهم والدنانير على أربابها مما

يطول فإن من رد الألوف لا يستعظم عليه رد المائة والدينار.

فصل
في إعراضه عن القضاء

قال المزني: قال الشافعي: لما دخلت على هارون الرشيد قلت: إني خلفت اليمن ضائعة تحتاج إلى حاكم، فقال: أنظر رجلاً ممن يجلس إليك حتى نوليه قضاها، فلما رجع الشافعي إلى مجلسه ورأى أحمد بن حنبل من أمثلهم أقبل عليه وأخبره بذلك وقال: تهيأ للقاء أمير المؤمنين يوليك قضاء اليمن فأقبل عليه وقال: إنما جئتك لأقتبس منك العلم فكيف تأمرني بتولية القضاء وغضب منه فاستحيا الشافعي.

وفي رواية: قال الشافعي له: يا أبا عبد الله إن أمير المؤمنين سألني أن ألتمس له قاضياً لليمن وأنت تحب الخروج إلى عبد الرزاق قد نلت حاجتك تقضي بالحق وتنال ما تريد، فقال للشافعي: إن سمعت منك هذا ثانية لم ترني عندك.

ويقال: كان سن أحمد حينئذٍ سبعاً وعشرين سنة.

قال الإمام البيهقي بعد سوق الحكاية: وهذا في [عنفوان] شبابه ثم بقي على سيرته في الاشتغال بالعلم والعبادة ومجانبة السلاطين.

ودخل إسحاق بن راهويه على عبد الله بن طاهر وبيده كتاب لأحمد فقرأه عليه فلما سمع أحمد بأنه أدخل كتابه عليه ترك مكاتبة إسحاق لذلك.

فصل
في ورعه

ذكر البيهقي أن الإمام أحمد أتى عليه ثلاثة أيام ما طعم فيها ثم أحضر إليه شيء من الدقيق فعرفوا في البيت شدة حاجته إلى الطعام فخبزوا له بالعجلة فلما أن وضع بين يديه قال: خبزتم بسرعة! فقيل

له: كان التنور في دار صالح مسجراً فقال: ارفعوه ولم يأكل وأمر بسد الباب الذي بينه وبين ابنه صالح.

قال البيهقي: وهذا لأن ابنه صالح أخذ جائزة المتوكل فلم يأكل الخبز الذي خبز في تنوره، فالله يرحمنا وإياه.

وقال علي بن المديني لسليمان بن داود: تتشبه بأحمد؟ هيهات أحمد رهن سطلاً في قوته فلما أراد فكاكه أحضر له الذي عنده الرهن سطلين وقال: أيهما لك؟ فقال: لا أدري أنت في حل منه ومما أعطيتك، فقال: والله إنه لسطله وإنما أردت امتحانه.

وكان إذا رأى نصرانياً غمض عينيه فقيل له في ذلك، فقال: لا أقدر أن أرى من افترى على الله كذباً.

وقال إسحاق بن إبراهيم: أعطاني أحمد يوماً قطعة فقال: اشتر بهذه باقلاء، وأعطتني أم ولده قطعة فقالت: خذ للصبيان بها باقلاء ففضل من قطعة الصبيان شيء فأخذت به زيتاً فصببته على الباقلاء التي له، فقال: ما هذا؟ فأخبرته، فقال: أرفع يا أحمق، متى تعقل؟

واحتاج يوماً وهو مريض إلى ماء قرعة مشوية فقال لولده صالح: لاتشوها في منزلك ولا في منزل عبد الله، وفي رواية قال المروزي: فمضيت فشويتها له.

وأمر أن يشترى له سمن فجيء به إليه على ورقة فأخذه وقال: رد الورقة.

وأمر يوماً أن يشتري له باقلاء فجيء له منها بشيء كثير فسأل عن ذلك فقيل: إن اثنين قد تضادا فأرخصا فأمر أن يرد فيترك هو والثمن.

وقال عبد الله بن أحمد: قلت لأبي: بقي شيء من صلة المتوكل أفحج منه؟ فقال: نعم، فقلت: فلم لا تأخذ منه، فقال: ليس حراماً ولكني تنزهت عنه. وكان يذرع أرض داره فيخرج زكاتها ذهاباً إلى

قول عمر بن الخطاب في أرض السواد.

واستأذنه محمد بن إبراهيم الأنماطي أن يكتب من محبرته حديثاً كان أنبأه به، فقال له: أكتب فهذا ورع مظلم.

واستأذنه محمد بن طارق أن يستمد من محبرته، فقال: لم يبلغ ورعي ورعك هذا وتبسم.

وأما ما ينقل عن الإمام أحمد أنه امتنع من أكل البطيخ لعدم علمه بكيفية أكل النبي ﷺ فكذب باطل لا أصل له كما صرح بذلك أئمتنا حتى في متون كتب الفقه.

فصل
في زهده

قال سليمان بن الأشعث: ما رأيت أحمد بن حنبل يذكر الدنيا قط.

وقال أبو داود: كانت مجالسة أحمد مجالسة آخرة لا يذكر فيها شيء من أمر الدنيا، وما رأيت أحمد ذكر الدنيا قط.

وقال أبو حفص بن سليمان: صليت مع أحمد التراويح فكان يصلي به ابن عمير، وكان في المسجد سراج على الدرجة وليس فيه قنديل ولا حصير وقد صبر على الفقر سبعين سنة.

وقيل له: إن فلاناً أعطى ألف دينار، فقال: «ورزق ربك خير وأبقى».

وذكر له جماعة من المحدثين فقال: كانت أيامهم قلائل ثم تلاحقوا.

وذكر عنده رجل فقال: الفائز من فاز غداً ولم يكن لأحد عنده تبعة.

وقال ابنه صالح: ودخل منزلي وقد غيرنا سقفه فأملى علي:

حدثني سليمان بن حرب حدثنا حماد بن سلمة عن يونس عن الحسن قال: قدم الأحنف بن قيس من سفر وقد غيروا سقف بيته، ثم قال في آخره: معذرة إليكم لا أدخله حتى تغيروه.

قال صالح: وربما اشترينا الشيء وأخفيناه عنه خشية توبيخه.

ودخل علينا أحمد بن عيسى في جماعة من المحدثين فقالوا له: ما هذا الغم والإسلام حنيفة سمحة؟ فقال لمن حضره: انظروا إلى هؤلاء ما أحب أن يدخل علي منهم أحد.

وكان يقول: ما أعدل بالفقر شيئاً ولا أعدل بالصبر عليه شيئاً.

وقال ابنه صالح: رأيت أبي يأخذ الكسرة فينفض غبارها ثم يبلها بالماء ويأكلها بالملح ولم أره اشترى فاكهة قط إلا بطيخة أكلها في الحرور.

وقال يوماً: قد بردت أطرافي وأظن ذلك من كثرة إدامي بالخل والملح، وكثيراً ما كان يأتدم بالخل، وكان يأخذ بدرهم شحماً فيأكل منه شهراً.

وذكر عنده الفضيل وفتح الموصلي وفقرهما فتغرغرت عيناه وقال: عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة.

وقال: إني أفرح إذا لم يكن عندي شيء، وجاءه ولده عقيب كلامه فقال: ما عند أبيك شيء.

وقال الحسن بن محمد: دخلت داره فإذا فيه حصير خلق وكتبه حوله.

وقال يوماً لولده عبد الله وقد رأى لين رجله: لم لا تمشي حافياً حتى تخشنا؟

وقال يوماً: إنما هو طعام دون طعام ولباس دون لباس وإنما هي أيام قلائل.

وقال: أسر أيامي إلي يوم أصبح وليس عندي شيء.

وأمر يوماً بأن يخلى له الحمام فلما أخلي قال: لي خمسون سنة لم أدخل الحمام ويجوز أن لا أدخله الساعة ثم أمر بأن يطلق الناس.

وقال أبو بكر المروزي: سمعت أحمد بن حنبل يقول: ما أعدل بالفقر شيئاً، رأيت قوماً صالحين، لقد رأيت عبد الله بن إدريس وعليه جبة من لبود وقد أتى عليه السنون والدهور ورأيت أبو داود الحفري وعليه جبة مخرقة قد خرج القطن منها يصلي بين المغرب والعشاء وهو يترجح من الجوع ورأيت أيوب بن النجار بمكة قد خرج مما كان فيه ومعه رشاء يستقي به بمكة وقد خرج من كل ما كان يملكه وكان من العابدين وكان في دنيا فتركها في يد يحيى القطان وقد رأيت بجالة العابد وكنت أسمع صوت خفه في الطواف بالليل ولقد كان في المسجد رجل يقال له العرفي يقوم من أول الليل إلى الصباح، قال: فاشتهيت النظر إليه فإذا هو شاب مصفر ولقد رأيت حسيناً وكان يشبه بالراهب ما رأيت بالكوفة أفضل منه ورأيت سعيد بن [عامر] بالبصرة، ولقي - رضي الله عنه - خلقاً كثيراً من الصالحين الزهاد.

وروى الخطيب في تاريخ بغداد: قصد حاتم الأصم الحج فلما دخل بغداد قال لبعض أصحاب الإمام أحمد: أحب أن أزور أحمد بن حنبل، فقال له: إمض بنا إليه فلما دخل عليه في منزله قال له صاحبه: حاتم قصد زيارتك والسلام عليك فأقبل عليه أحمد وتحادثا ساعة طويلة، ثم قال له أحمد بعد بشاشة: يا حاتم فيم التخلص من الناس؟ فقال: يا أحمد في ثلاث، قال: وما هي؟ قال: أن تعطيهم مالك ولا تأخذ من مالهم شيئاً، وتقضي حقوقهم ولا تستقضي من أحد منهم حقاً، وتحتمل مكروههم ولا تكره أحداً منهم على شيء قال: فجعل أحمد ينكث بإصبعه على الأرض يقول: إنها لشديدة إنها لشديدة، فقال حاتم: وليتك تسلم، وليتك تسلم، وليتك تسلم.

فصل
في إيثاره العزلة والخمول

روى الأئمة أن أحمد كان أصبر الناس على الوحدة فكان لا يرى إلا في مسجد وحضور جنازة أو عيادة مريض وكان يكره المشي في الأسواق وقال: أشتهي ما لا يكون أشتهي مكاناً ليس فيه أحد.

وقال: ما أبالي أن لا يراني أحد ولا أراه وإن كنت لا أشتهي رؤية عبد الوهاب.

وقال: الخلوة أروح لقلبي.

وسئل حضور جنازة فترحم على الميت وقال: أخشى أن يعلم الناس فيكثروا.

وقال له رجل: إني آتيك ولكني أخاف أن تكره فقال: إني لأكره ذلك.

وقال: أريد أن أنزل مكة فألقي نفسي في شعب من الشعاب حتى لا أعرف.

وسئل: لم لا تصحب الناس؟ فقال: خشية الفراق.

وكان يؤثر الخمول فلا يحب أن يجري له ذكر، ودخل عليه عمه يوماً ويدا أحمد تحت خده فقال له: ما هذا؟ فرفع رأسه وقال: طوبى لمن أخمل الله ذكره.

وكان يترك زي الفقر خيفة أن يشهر نفسه.

وقال للمروزي: قل لعبد الوهاب: أخمل ذكرك فإني بليت بالشهرة، ثم قال: والله لو وجدت سبيلاً لخرجت من هذه المدينة حتى لا يذكروني ولا أذكرهم.

وصلى يوماً الغداة فلما دخل منزله تبعه الناس فقال: لا تتبعوني مرة أخرى، وكان يكره أن يتبعه في مشيه أحد، وفي رواية: وربما

وقف حتى يذهب الذي يتبعه.

فصل
في خوفه من الله تعالى

كان ـ رضي الله عنه ـ إذا دعا له رجل قال: الأعمال بخواتيمها.

وكان كثيراً ما يقول: رب سلم سلم، روي ذلك من طرق ثلاث.

وقال ابنه عبد الله: سمعت أبي يقول: وددت أني نجوت من هذا الأمر كفافاً لا علي ولا لي.

ورأى بعضهم له مناماً حسناً فأخبره به فقال: يا أخي إن سهل بن سلامة أخبر بمثل هذا ثم خرج إلى سفك الدماء، ثم قال: إن الرؤيا تسر المؤمن ولا تغره.

وقال له رجل: ذكروا أنك من خير الناس فما اكترث له.

وقال: الخوف يمنعني من أكل الطعام والشراب فما أشتهيه.

وجيء له بطشت في مرضه الذي مات فيه فبال فيه دماً عبيطاً، فقال المتطبب: هذا رجل فتت الحزن أو قال الغم جوفه.

وقيل له يوماً: كيف أصبحت؟ فقال: كيف أصبح من ربه يطالبه بأداء الفرائض ونبيه يطالبه بأداء السنة والملكان يطالبانه بتصحيح الأعمال ونفسه تطالبه بهواها وإبليس يطالبه بالفحشاء وملك الموت يطالبه بقبض روحه وعياله يطالبونه بالنفقة.

وقال المروزي: كان أبو عبد الله متوكئاً على يدي فاستقبلتنا امرأة بيدها طنبور فكسرته ودسته وأبو عبد الله منكس الرأس ثم إن أمر الطنبور انتشر، فقال أبو عبد الله: ما علمت بهذا ولا أنه كسر طنبوراً بحضرتي إلى الساعة.

فصل
في عبادته وحجه ودعائه

روى الأئمة أنه لم ير أحد أقوى على الزهد والعبادة وجهد النفس من أحمد بن حنبل، كان يصوم النهار ويعجل الفطر ويصلي بعد العشاء ركعات ثم ينام خفيفاً ثم يقوم فيتطهر ويصلي إلى الصباح ويوتر بركعة وكان هذا دأبه، قال الراوي لهذا: ولم أره مفطراً إلا في يوم كان احتجم فيه.

وقال ابنه صالح: أدمن أبي الصوم لما قدم من عند المتوكل وترك الدسم فتوهمت أنه ألزم نفسه ذلك إن سلم.

وكان يحي الليل وهو غلام.

وقال عبد الله: كان أبي يصلي كل يوم وليلة ثلاثمائة ركعة فلما ضعف صلى مائة وخمسين ولما كبر أبي زاد في الاجتهاد.

وقال لمحمد بن محمد بن إدريس الشافعي: أبوك أحد الستة الذين أدعو لهم سحراً.

وروي أنه أتى مكة هو والشافعي وابن معين فأما الشافعي فاستلقى وكذلك يحيى بن معين، فلما أصبحوا قال الشافعي: عملت مائتي مسألة، وقال يحيى: نفيت عن النبي ﷺ مائتي كذاب، وقال أحمد: وأنا صليت ركعات ختمت فيها القرآن.

وروي أنه كان لا يدع أحداً يستقي الماء الذي يتوضأ به وإنما كان يستقيه بيده وكان الدلو إذا طلعت ملىء، قال: الحمد لله، فسئل عن ذلك، فقال: سمعت الله يقول: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ۝٣٠﴾.

وروي أنه كان يقول عند كل لقمة: الحمد لله ويقول: أكل وحمد خير من أكل وصمت.

وكان كثيراً ما يتلو سورة الكهف.

وقال أبو بكر المروزي: كنت مع أبي عبد الله نحواً من أربعة أشهر بالعسكر فلا يدع قيام الليل وقراءة النهار وما علمت بختمة ختمها لأنه كان يسر القراءة.

وقال عبد الصمد بن سليمان: بت ليلة عند أحمد فوضع لي ماء فلما أصبح وجدني لم استعمله، فقال: صاحب حديث ولا ورد له في الليل فقلت: إني مسافر، فقال: ولو كنت مسافر، حج مسروق فما نام إلا ساجداً.

وكان يصلي بعد الجمعة ست ركعات يفصل بين كل ركعتين بتسليم، وكان بشر بن الحارث يصلي أربعاً من غير تسليم.

وقال لما قدم عليه أبو زرعة: ما صليت اليوم غير الفرض استأثرت بمذاكرة أبي زرعة على نوافلي.

وأما حجه: ـ

فقال ابنه عبد الله: حج أبي خمس حجات ثلاث منها ماشياً وثنتين راكباً ورافق في بعضها ابن معين واتفقا على أنهما بعد انقضاء الحج يمضيان إلى صنعاء اليمن يأخذان الحديث عن عبد الرزاق فوجداه في الطواف فلما فرغ اجتمعا عليه وكان لا يعرف أبي شخصه وإنما يعرفه باسمه، فقال له يحيى بن معين: هذا أخوك أحمد بن حنبل، فقال: حياه الله إنه ليبلغني عنه كل ما أسر به ثبته الله على ذلك.

وروي أنه أنفق في بعض حجاته عشرين درهماً.

وفي أخرى نحوه وقال: ثلاثين درهماً موضع عشرين.

وقال ـ رضي الله عنه ـ: كفى بعض الناس من مكة إلى هنا أربعة عشر درهماً، فسئل عنه، فقال: أنا.

وكان يقول في دعائه: اللهم كما صنت وجهي عن السجود

لغيرك فصنه عن سؤال غيرك.

وكان يقول: اللهم من كان على هوى أو على رأي وهو يظن أنه على الحق وليس كذلك فرده إلى الحق حتى لا يضل من هذه الأمة أحد، اللهم لا تشغل قلوبنا بما تكلفت لنا به، ولا تجعلنا في رزقك خولاً لغيرك ولا تمنعنا خير ما عندك لشر ما عندنا ولا ترنا حيث نهيتنا ولا تفقدنا من حيث أمرتنا، أعزنا بالطاعة ولا تذلنا بالمعصية.

وقال يوماً وقد سئل الدعاء: اللهم إنك تعلم أنك لنا أكثر مما نحب فاجعلنا لك على ما تحب.

وقال لما أخرج من دار الخليفة مضروباً مكبوباً على وجهه: يا شاكر الصنع بي ما تشكرني عليه.

وقال له رجل يريد السفر: زودني دعوة، فقال: قل يا دليل الحيارى دلني على طريق الصادقين واجعلني من عبادك الصالحين، قال: فخرج الرجل فأصابته شدة وانقطع عن أصحابه فدعا بهذا الدعاء فلحق أصحابه فجاء إلى أحمد فأخبره بذلك، فقال: أكتمها علي.

وكان يقول: اللهم أمتنا على الإسلام والسنة.

فصل
في كراماته

روي أنه دعي لولد ابنه صالح وقد يئس منه من كثرة الرعاف وعجز عنه الأطباء فانقطع.

وكان بعضهم يكتب عنده فانكسر قلمه فأعطاه قلماً فروى أنه وضع على نخلة لم تحمل فحملت.

وسئل الدعاء لمُقعدة فقال: نحن أحوج إلى الدعاء، ثم دخل فدعا لها فلما ذهب السائل إلى المرأة دق عليها الباب فخرجت برجليها ففتحت، فقالت: قد وهب الله لي العافية.

وروي أنه احترق بيت بما فيه إلا كتاب كان بخط يده.

وقال الإمام أبو الفرج: ولما وقع الغرق ببغداد سنة أربع وخمسين وخمسمائة وغرقت كتبي لم يسلم لي غير مجلد فيه ورقتان بخطه ـ أي بخط الإمام أحمد بن حنبل.

وقال صدقة بن الفضل: نمت بمسجد وقد اشتد بي الجوع وليست معي نفقة فانتبهت فإذا أحمد بن حنبل ومعه حمال معه خبز وغيره، فقال: إني أنبئت البارحة في المنام فقيل لي: صديقك صدقة بن الفضل جائع فأدركه.

وقال عبد الله بن موسى: خرجت أنا وأبي لزيارة أحمد فاشتدت الظلمة، فقال أبي: تعال نتوسل إلى الله تعالى بهذا العبد الصالح لتضيء لنا الطريق فإني منذ ثلاثين سنة لم أتوسل إلى الله تعالى به إلا قضى حاجتي ثم دعا وأمنت على دعائه فكانت الليلة كأنها مقمرة.

وقال علي بن محمد القرشي: لما قدم أحمد بن حنبل ليضرب أيام المحنة وجرد من ثيابه ولم يبق إلا سراويله، فبينما هو يضرب انحل السراويل، قال المروزي وابن مسكويه الهمداني: فوالله لقد رأينا أحمد رفع رأسه إلى السماء وحرك شفتيه فما استتم الدعاء حتى رأينا كفاً من ذهب قد خرج من تحت السراويل فرده إلى موضعه بقدرة الله تعالى فضجت العامة وهموا بالهجوم على السلطان فأمر بحله.

وروى أبو يعلى الحنبلي: أن الخليفة المتوكل أرسل إلى الإمام أحمد صاحباً له يعلمه أن له جارية بها صرع ويسأله أن يدعو الله تعالى لها بالعافية فأخرج له أحمد نعل خشب بشراك من خوص وقال له: تمضي إلى دار أمير المؤمنين وتجلس عند رأس الجارية وتقول له ـ يعني للجني ـ قال لك أحمد: أيما أحب إليك أن تخرج من هذه الجارية أو تصفع بهذا النعل سبعين، فمضى إليه وقال له مثل ذلك، فقال له المارد على لسان الجارية: السمع والطاعة لو أمرنا أحمد أن لا نقيم بالعراق ما أقمنا إنه أطاع الله ورسوله ومن أطاع الله تعالى

أطاعه كل شيء وخرج من الجارية وهدت ورزقت أولاداً فلما مات أحمد عاودها ذاك المارد، فأرسل المتوكل إلى أبي بكر المروزي صاحب الإمام أحمد وعرفه بالحال فأخذ المروزي النعل ومضى إلى الجارية فكلمه العفريت على لسانها: لا أخرج من هذه الجارية ولا أطيعك ولا أقبل مثلك، أحمد أطاع الله تعالى فأمرنا بطاعته.

فصل
في كرمه

قال الشاعر: -

ليس العطاء من الفضول سماحة حتى تجود وما لديك قليل

فالكرم إنما يظهر بإعطاء ما يحتاج إليه وإن قل، فمن أعطى درهماً واحداً وهو مضطر إليه فهو أفضل ممن يعطي الألف ونحوها وهو مستغن عنها، فكان الإمام أحمد يتصدق ويتجود بما يقدر عليه.

قال يحيى بن هلال: استعطيت محمد بن عبد الله بن نمير فأعطاني أربعة دراهم وقال: هذا نصف ما أملك، وجئت إلى أبي عبد الله فاستعطيته فأعطاني أربعة دراهم وقال: هذا كل ما أملك.

وقال هارون المستملي: قلت لأحمد: ما عندي شيء فأعطاني خمسة دراهم وقال: ما عندنا غيرها.

وكان شديد الحياء كريم الأخلاق يعجبه السخاء وكان ربما واسى بقوته.

وكان إذا حضر طعامه أحد بسطه ليأكل عنده كما يأكل في بيته. وأخذ قوته يوماً فجعل يأكل فجاء كلب فجعل يحرك ذنبه وهو يلقي إليه لقمة لقمة وهو لا ينصرف فصاح عليه بعض من حضر، فقال: دعه فإن ابن عباس قال: «إن لها أنفس سوء».

وقال أبو سعيد بن أبي حنيفة المؤدب لعبد الله بن أحمد: كنت

آتي أباك فيعطيني الشيء ويقول: هذا نصف ما عندنا، فجئت يوماً وأطلت القعود فأتى بأربعة أرغفة وقال: هذا نصف ما عندنا، فقلت: هذه خير لي من أربعة الآف من غيرك.

ووقع لأحمد مقراض في بئر فنزل ساكن له فأخرجه منها فأعطاه نصفاً كان معه فقال له الرجل: المقراض يساوي قيراطاً لا آخذ شيئاً فلما كان بعد أيام قال له: كم عليك من أجرة الحانوت؟ قال: كراء ثلاثة أشهر، فقال له: أنت في حل.

وأهدى له رجل فاكهة فبعث إليه ثوباً.

وأهدى إليه جاره جوزاً وزبيباً وتيناً يساوي ثلاثة دراهم فأعطى ديناراً لولده عبد الله وقال له: إذهب فاشتر بعشرة دراهم سكراً وبسبعة دراهم تمراً وإذهب به إليه في الليل ففعل.

وأهدى له بعض من يسمع عليه ثوباً فقبله وبعث إليه بمثيله، وقيل بأربعة أمثاله.

فصل
في شيء من كلامه نثراً وشعراً

قال ـ رحمه الله ـ: إظهار المحبرة من الرياء.

وذكر عنده الإخلاص والصدق، فقال: بهذا ارتفع القوم.

وقال: بادر كل خير هممت به قبل أن يعرض لك عائق.

وقال: أشبه الشباب بشيء كان في الكم فسقط.

وقال: إن لكل شيء كرماً وكرم القلوب الرضا عن الله تعالى.

وقال: عزيز علي أن تذيب الدنيا أكباد رجال وعت صدورهم القرآن.

وقال لابنه عبد الله: إنو الخير فإنك لا تزال بخير ما نويته.

وقال لرجل شكى إليه: إصبر فإن النصر مع الصبر.

وقال لعبد الملك بن عبد الحميد: يا أبا الحسن كم يعيش أحدنا؟ خمسين سنة، ستين سنة، كأنك بنا ولم نكن.

وقال لعلي بن المديني: إني لأحب أن أصحبك إلى مكة وما منعني إلا خوف أن أملك أو تملني، فلما ودعه قال له: يا أبا عبد الله أوصني، قال: إلزم التقوى وانصب الآخرة أمامك.

وقال: يؤكل الطعام بثلاث: مع الأخوان بالسرور ومع الفقراء بالإيثار ومع أبناء الدنيا بالمروءة.

وسئل عن الحب في الله فقال: هو أن لا تحبه لدنيا.

وسئل: لم لا تصحب الناس؟ فقال: خشية الفراق.

وسئل: بم تلين القلوب؟ فقال: بأكل الحلال.

وسئل عن الفتوة، فقال: ترك ما يهوى لما يخشى.

وسئل الموعظة فقال للسائل: إن كان الله قد تكفل برزقك فاهتمامك لماذا؟ وإن كان الرزق مقسوماً فالحرص لماذا؟ وإن كان الخلف على الله تعالى فالبخل لماذا؟ وإن كانت الجنة حقاً فالراحة لماذا؟ وإن كانت النار حقاً فالمعصية لماذا؟ وإن كان سؤال منكر ونكير حقاً فالأنس لماذا؟ وإن كانت الدنيا فانية فالطمأنينة لماذا؟ وإن كان الحساب حقاً فالجمع لماذا؟ وإن كان كل شيء بقضاء وقدر فالحزن لماذا؟

وكتب إلى سعيد بن يعقوب: بسم الله الرحمن الرحيم، من أحمد بن محمد بن حنبل إلى سعيد بن يعقوب، أما بعد: فإن الدنيا داء والسلطان داء، والعالم طبيب: فإذا رأيت الطبيب يجر الداء إلى نفسه فاحذره، والسلام عليك.

واستشاره رجل في التزويج، فقال: تزوج ببكر لا أم لها.

ورأى رجل يكتب خطاً دقيقاً، فقال: لا تفعل أحوج ما تكون إليه يخونك.

وأما شعره: ـ

فروي أنه دخل عليه أحمد بن يحيى ثعلب، فقال له: فيم تنظر؟ فقال: في النحو والعربية فأنشده: ـ

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما يخفى عليه يغيب
لهونا عن الأيام حتى تتابعت ذنوب على أثارهن ذنوب
فياليت أن الله يغفر ما مضى ويأذن في توباتنا فنتوب

وفي أخرى نحوه إلا أنه قال فيها: ما الذي تطلب من العلم؟ فقال: القوافي والشعر، وفيها قال: وددت أني قلت له غير ذلك، فقال: أكتب، ثم ذكر الأبيات نفسها وزاد بعد البيت الرابع: ـ

إذا ما مضى القرن الذي أنت فيهم وخلفت في قرن فأنت غريب

وسمع يوماً يقول: ـ

تفنى اللذاذة ممن نال صفوتها من الحرام ويبقى الإثم والعار
تبقى عواقب سوء من مغبتها لا خير في لذة من بعدها النار

وقال ـ رضي الله عنه ـ لعلي بن المديني ـ رحمه الله تعالى ـ.

يا ابن المديني الذي عرضت له دنيا فجاد بدينه لينالها
أمر بذلك رشده فتبعته أم زهرة الدنيا أردت نوالها
ولقد عهدتك مرة متشدداً صعب المقالة للتي تدعى لها
إن المرزى من يصاب بدينه لا من يرزى ناقة وفصالها

والآثار في هذا كثيرة، وسيأتي بيان تصنيفه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فصل

في زوجاته وسراريه وأولاده

روى الأئمة أن الإمام أحمد إنما تزوج بعد الأربعين.

قال أبو الفرج: وأول زوجاته عباسة بنت الفضل أم صالح.

وفي أخرى نحوه: وأنه لم يولد له منها غير ولده صالح ثم أنها توفيت.

روي أنها أقامت معه ثلاثين سنة.

الثانية ابنة عمه ريحانة أم عبد الله.

يروى أنه تزوجها بعد موت عباسة ولم يولد له منها غير عبد الله ولده، ولما أراد تزوجها قال له أبوها: يا أبا عبد الله إنها ووضع يده على عينه يريد أنها بعين واحدة، فقال: علمت.

وفي أخرى: أنه كان بعث يخطب أختها فلما أجابته أخبر أن لها أختاً بعين واحدة فعاد فخطب ذات العين الواحدة وأنها أقامت معه سبع سنين فقالت له: كيف رأيت يا ابن عم؟ فقال: لم أنكر عليك شيئاً إلا أن نعلك تصر. وفي أخرى نحوه وفيها: فباعتها واشترت مقطوعاً فلبسته.

قال أبو الفرج: ولم أعلم تزوج غيرهما.

وفي رواية: أنه ترحم على أهله وقال: أقمنا عشرين سنة لم نختلف في كلمة.

وأما سراريه: ـ

فروي أنه اشترى جارية اسمها حسن، اشتراها لما توفيت أم عبد الله فولدت أم علي واسمها زينب ثم ولدت له الحسن والحسين توماً ثم ماتا قرب ولادتها ثم ولدت الحسن ومحمد ثم ولدت سعيداً.

وقالت له حسن: اصرف خلخالي، قال: وتطيب نفسك؟ فقالت: نعم، فقال: الحمد لله الذي وفقك لهذا.

وكان ابنه صالح يكنى أبا الفضل وهو أكبر أولاده، ولد سنة ثلاث ومائتين وكان أحمد يحبه ويكرمه، وابتلي بالعيال على حداثة سنه فقلت روايته عنه على أنه قد روى عنه كثيراً، وروى عن أبي داود الطيالسي وإبراهيم بن الفضل وغيرهما، وروى عنه ابنه زهير والبغوي.

وفي رواية أنه ولي قضاء أصبهان ومات بها وكان سخياً جيداً.

ويروى أنه افتصد ودعى إخوانه وأنفق ذلك اليوم نحواً من عشرين ديناراً.

وروى أنه لما ولي أصبهان وقرأ عهد الخليفة إليه بحضرة المشايخ جعل يبكي وهم يقولون: ما ببلدنا إلا من يحب أبا عبد الله ويميل إليك، فقال: إنما أبكاني أني ذكرت أبي وأنه لا يريد أن يراني بهذه الحال ـ وكان عليه السواد ـ ولكن الله يعلم أني ما دخلت في هذا الأمر إلا لدين غلبني وكثرة عيال أحمد، وكان إذا خلا نزع سواده ويقول: تراني أموت وأنا هكذا؟

وتوفي في شهر رمضان سنة خمسين ومائتين بأصبهان.

وأما عبد الله بن الإمام أحمد فيكنى أبا عبد الرحمن، وكان أروى الناس عن أبيه وسمع معظم تصانيفه وحديثه، وسمع من عبد الأعلى بن حماد وكامل بن طلحة وغيرهم وكان حافظاً وشهد له بذلك أبوه [وقيل] له: أين تحب أن تدفن؟ فقال: صح عندي أن بالقطيعة نبياً مدفوناً ولأن أكون في جوار نبي أحب إلي أن أكون في جوار أبي.

توفي يوم الأحد لتسع بقين من جمادى الآخرة سنة تسعين ومائتين، ودفن آخر النهار وصلى عليه زهير بن أخيه صالح وكان له جمع عظيم.

وأما سعيد بن الإمام أحمد، فقال حنبل بن إسحاق: ولد سعيد قبل موت أحمد بنحو من خمسين يوماً، ويروى أنه ولي قضاء الكوفة.

وأما الحسن ومحمد فلا يعرف من أخبارهما شيء.

وأما زينب فلها حديث في باب ورعه، وروي أنه كان يضربها على اللحن وينهرها.

فصل
في طلب أحمد للعلم

روى الأئمة أن أحمد ولد ببغداد وبها نشأ وطلب العلم والحديث من شيوخها ثم أخذ في الرحلة.

قال أبو عفيف: كان أحمد بن حنبل معنا في الكتاب وهو غليم يعرف فضله، وكان الخليفة بالرقة فتكتب الناس إلى منازلهم فتبعث نساؤهم إلى المعلم: ابعث إلينا بأحمد ليكتب إليهم جواب كتبهم فيبعثه فيجيء إليهن مطأطأ الرأس فيكتب الجواب فربما أملين عليه شيئاً من المنكر فلا يكتبه لهنَّ.

وابتدأ في طلب العلم وعمره ست عشرة سنة.

وكان ابتدأ طلبه العلم من شيوخ بغداد سنة تسع وسبعين ومائة، ثم رحل إلى البلاد النائية والدانية فكتب عن علماء كل بلد.

قال أحمد: أول من كتبت عنه الحديث أبو يوسف وطلبت الحديث وأنا ابن ست عشرة سنة، ومات هشيم وأنا ابن عشرين سنة، وأول سماعي منه سنة تسع وسبعين ومائة.

وفي أخرى نحوه ولم يذكر هشيماً، وفيها: فجاءنا رجل فقال: مات حماد بن زيد ومات مالك بن أنس تلك السنة، وكنا عند عبد الرزاق باليمن فجاءنا موت سفيان بن عيينة وعبد الرحمن بن مهدي ويحيى بن سعيد سنة ثمان وتسعين ومائة.

وقال: سمعت من سليمان بن حرب وأبي النعمان عارم وأبي عمرو الحوضي سنة أربع وتسعين، وسمعت من هاشم بن اليزيد سنة تسع وسبعين، وأتيت ابن المبارك فقال: أخرج إلى طرسوس وتوفي بها سنة إحدى وثمانين، وسمعت من عبد المؤمن بن عبد الله بن خالد سنة اثنتين وثمانين.

وقال: خرجت إلى سفيان بن عيينة سنة سبع وثمانين، قدمنا وقد مات فضيل بن عياض، وهي أول سنة حججت، وكتبت عن إبراهيم بن سعد وصليت خلفه غير مرة، ولو كانت عندي خمسون درهماً كنت خرجت إلى الري إلى جرير بن عبد الحميد فخرج بعض أصحابنا ولم أخرج، وخرجت إلى الكوفة ثم رجعت إلى أمي ولم أكن استأذنتها، وكنت ربما أردت البكور في الحديث فتأخذ أمي بثيابي وتقول: حتى يؤذن الناس أو حتى يصبحوا، وكنت ربما بكرت إلى مجلس أبي بكر بن عياش وغيره.

وقال: دخلت عبادان سنة ست وثمانين ورحلت إلى المعتمر تلك السنة.

وقال: كنت مقيماً على يحيى بن سعيد القطان ثم خرجت إلى واسط فسأل يحيى عني، فقالوا: خرج إلى واسط، فقال: وما يصنع بها؟ قالوا: مقيم على يزيد بن هارون، قال: وما يصنع به؟ يريد أنه أعلم منه.

وقال: دخلت البصرة خمساً، دخلتها أول رجب سنة ست وثمانين ومائة سمعت من المعتمر بن سليمان، ودخلت سنة تسعين، وخلت سنة أربع وتسعين وقد مات غندر فأقمت على يحيى بن سعيد ستة أشهر، ودخلت سنة مائتين.

وقال الإمام أحمد أيضاً: ذهبت إلى إبراهيم بن عقيل وكان عسراً لا يوصل إليه فأقمت على بابه باليمن يوماً أو يومين حتى وصلت إليه فحدثني بحديثين وكان عنده أحاديث عن جابر فلم أقدر أن أسمعها من عسره.

ولما اجتمع أحمد وابن معين بعبد الرزاق بمكة وأخذ يحيى بن معين من عبد الرزاق موعداً للقراءة عليه بمكة وقال لأحمد: قد أراحك الله مسيرة شهر ورجوع شهر والنفقة، فقال له أحمد: ما كان الله ليراني مفسداً لنيتي، ثم مضى إليه إلى صنعاء.

وقال: ما كتبنا عن عبد الرزاق من حفظه شيئاً إلا المجلس الأول لأنا دخلنا عليه ليلاً فأملى علينا سبعين حديثاً ثم التفت إلى القوم وقال: لولا هذا ما حدثتكم ـ يعني أحمد ـ.

وقال له بعضهم: شققت على نفسك في خروجك إليه، فقال: ما أهون المشقة فيما استفدنا منه كتبنا عنه حديث الزهري عن سالم بن عبد الله عن أبيه وحديثه عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة.

وقال مهنى: رأيت أحمد بن حنبل قدام سفيان وعبد الرزاق فقلت: تراهما يدريان من عندهما؟

وقال قتيبة بن سعيد: قدمت بغداد وما كانت همتي إلا لقاء أحمد فإذا هو قد جائني مع يحيى بن معين فتذاكرنا فقام أحمد وجلس بين يدي وقال: أمل علي هذا، ثم تذاكرنا فقام أيضاً وجلس بين يدي فقلت: يا أبا عبد الله مكانك، فقال: لا تشتغل بي فإني أريد أن آخذ العلم على وجهه.

وقال خلف: جاءني أحمد ليسمع حديث أبي عوانة فاجتهدت أن أرفعه فأبى وقال: لا أجلس إلا بين يديك فإنا أمرنا بالتواضع لمن نتعلم منه.

وقال إسحاق السهيدي: كنت أرى يحيى القطان يصلي العصر ثم يستند إلى أصل منارة فيقف بين يديه أحمد بن حنبل وغيره من العلماء يسألونه عن الحديث وهم قيام إلى وقت المغرب فلا يأمر أحداً منهم بالجلوس ولا هم يجلسون إجلالاً له.

وقال أحمد بن منصور: خرجت مع أحمد بن حنبل ويحيى بن

معين إلى عبد الرزاق خادماً لهما فلما عدنا إلى الكوفة قال يحيى بن معين لأحمد بن حنبل: أريد أن أخرج لأبي نعيم - يعني الفضل بن دكين - شيئاً من أحاديثه وأختبره في أثنائها فقال له أحمد: لا تفعل الرجل ثقة، فقال يحيى: لا بد لي، وأخذ ورقة فيها ثلاثون حديثاً من حديث أبي نعيم وجعل على رأس كل عشرة منها حديثاً ليس من حديثه ثم جاءوا إلى أبي نعيم فدقوا عليه الباب فخرج فجلس على دكان طين على بابه فأخذ أحمد بن حنبل فأجلسه عن يمينه وأخذ يحيى بن معين فأجلسه عن يساره وجلست أسفل الدكان فأخرج يحيى بن معين الورق فقرأ عليه عشرة أحاديث وأبو نعيم ساكت ثم قرأ الحادي عشر فقال له أبو نعيم: هذا ليس من حديثي إضرب عليه، ثم شرع ابن معين في القراءة إلى أن وصل الحديث الآخر فقرأه فقال له أبو نعيم: وهذا ليس من حديثي إضرب عليه، ثم قرأ العشر الثالث وقرأ الحديث الآخر فتغير وجه أبو نعيم وانقلبت عيناه وقبض على ذراع أحمد ثم التفت إلى ابن معين وذراع أحمد في يده وقال لابن معين: أما هذا - يعني أحمد - فأورع من أن يعمل هذا وأما هذا، قال ابن منصور: يشير إلي، فأصغر من أن يفعل هذا ولكن هذا من فعلك يا فاعل ثم أخرج رجله فرفس يحيى بن معين فرمى به من الدكان وقام فدخل داره، فقال أحمد ليحيى: ألم أمنعك من ذلك وأقل لك إن الرجل ثبت، فقال ابن معين: لرفسته أحب إلي من سفرتي كلها.

حكاية

ذكر الإمام البيهقي بسنده إلى جعفر بن محمد الطيالسي قال: صلى أحمد بن حنبل ويحيى بن معين في مسجد الرصافة فقام بين أيديهم قاص، وقال: حدثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين قالا حدثنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن قتادة عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ، من قال لا إله إلا الله يخلق اللَّهُ من كل كلمة منها طير منقاره من ذهب وريشه من مرجان وأخذ في ذكر قصة نحواً من عشرين ورقة، فجعل أحمد ينظر إلى يحيى بن معين ويحيى ينظر إلى أحمد فقال كل منهما لصاحبه: أنت حدثته بهذا؟ فيقول الآخر: لا ما سمعت بهذا إلا هذه الساعة، قال: فسكتا حتى فرغ من قصصه فأشار إليه يحيى بن معين بيده أن تعال فجاء متوهماً النوال، فقال: من حدثك بهذا الحديث؟ فقال: أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، فقال: هذا أحمد بن حنبل وأنا يحيى بن معين ما سمعنا بهذا قط في حديث رسول الله ﷺ، فإن كان لا بد من الكذب فعلى غيرنا، فقال له: أنت يحيى بن معين؟ قال: نعم، قال: لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق وما علمت ذلك إلا الساعة، فقال له يحيى: وكيف علمت أنه أحمق؟ قال: كأن ليس في الدنيا يحيى بن معين وأحمد بن حنبل غيركما، كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل ويحيى بن معين غيركما، قال: فوضع أحمد كمه على وجهه وقال: دعه يقوم فقام كالمستهزىء بهما.

فصل

في ابتدائه بالتحديث والفتوى والتصنيف

أفتى ـ رضي الله عنه ـ شاباً وحدث ورؤي سنة ثمان وتسعين ومائة بمسجد الخيف يعلم أصحاب الحديث الفقه ويفتي الناس في المناسك.

وفي أخرى نحوه وزاد: وابن عيينة حي، وفيه فوقفت عليه ولم أكن أعرفه قبل ذلك، وفيه فجرت بيني وبينه المعرفة من ذلك الوقت.

قال الإمام أبو الفرج: إلا أنه لم يتصدر لذلك إلا وهو ابن أربعين سنة واستدل بقول حجاج بن الشاعر: سألت أحمد أن يحدثني سنة ثلاث ومائتين فأبى ثم رجعت سنة أربع فوجدته يحدث وكان له أربعون سنة.

وكان يجتمع في مجلسه زهاء خمسة الآف أو يزيدون [أقل[1] من خمس مئة] يكتبون والباقي يتعلمون حسن الأدب.

وشرع في التصنيف ووضع كتب الحديث.

قال الأئمة: مصنفات الإمام أحمد كلها في المنقول فمنها المسند وهو ثلاثون ألف حديث ولابنه فيه زوائد نحو العشرة الآف.

وقال لابنه عبد الله: احتفظ به فسيكون للناس إماماً.

وقال: قد جمعت هذا الكتاب وانتقيته من سبعمائة ألف وخمسمائة فما اختلف المسلمون فيه من الحديث فارجعوا إليه فإن وجدتموه فيه وإلا فليس بحجة وتلقته الأمة بالقبول.

قال العراقي: وأما وجود الضعيف فهو فيه محقق بل فيه أحاديث موضوعة ولعبد الله ابنه فيه زيادات فيها الضعيف والموضوع. انتهى.

---

(١) ما بين القوسين من كتاب الآداب الشرعية لابن مفلح المقدسي رحمه الله ٢/ ١٤.

وقد ألف الحافظ ابن حجر: «القول المسدد في الذب عن مسند الإمام أحمد» ذباً عن هذا التصنيف العظيم الذي تلقته الأمة بالقبول والتكريم وجعله أمامهم حجة يرجع إليه ويعول عند الاختلاف عليه ثم سرد الأحاديث التي ذكرها العراقي وهي تسعة وأضاف إليها خمسة عشر حديثاً أوردها ابن الجوزي في الموضوعات وأجاب عنها حديثاً حديثاً وقال: ليس في المسند حديث لا أصل له إلا ثلاثة أو أربعة، حديث «ابن عوف يدخل الجنة زحفاً» والاعتذار عنه أنه مما أمر بالضرب عليه فترك سهواً أو ضرب عليه وكتب من تحت الضرب. انتهى.

ومنها التفسير وهو مائة ألف وعشرون ألفاً والناسخ والمنسوخ والتاريخ وحديث شعبة والمقدم والمؤخر في القرآن وجوابات القرآن والمناسك الكبير والصغير وأشياء أُخَر.

وكان ينهي أن يكتب كلامه ولولا ذلك لأعجزت كثرته.

قال حنبل بن إسحاق: رأيت أحمد يكره أن يكتب رأيه.

وقال ـ رحمه الله ـ: بلغني أن إسحاق الكوسج يروي عني مسائل بخراسان فاشهدوا أني رجعت عنها، فنهى عن كتب كلامه تواضعاً.

وقدر الله أن شاع في العالم لحسن مقصده فلا يكاد تقع مسألة في الأصول والفروع إلا وله فيها نص وربما لم توجد لغيره ممن تكلم.

فصل
في تمسكه بالسنة وتعظيم الحديث وأهله

كان ـ رضي الله عنه ـ شديد التمسك بالسنة عاملاً بها معظماً لها.

قال عبد الملك الميموني: ما رأيت أفضل من أحمد ولا أشد تعظيماً للسنة منه في المحدثين ولا أتبع لها منه.

وقال ـ رحمه الله تعالى ـ: ما كتبت حديثاً إلا عملت به حتى مر بي في الحديث أن النبي ﷺ، احتجم وأعطى الحجام ديناراً فاحتجمت وأعطيت الحجام ديناراً.

ويروى أنه استأذن زوجته في أن يتسرى فأذنت له فاشترى جارية بثمن يسير وسماها ريحانة اقتداءاً بالنبي ﷺ.

وقيل له: أحياك الله على الإسلام، فقال: والسنة.

وقال ـ رضي الله عنه ـ إذا صح حديث عن النبي ﷺ، لم نأخذ بما خالفه كان قائله صحابياً أو غيره وإذا صح عن الصحابي بعينه حديث لم نأخذ بقول من خالفه من التابعين ولا من بعدهم وكذلك التابعون يقدم الأول فالأول فإن اختلفت الأقوال تخيرنا إن كان القائلون في رتبة واحدة فإن كان في الإسناد شيء أخذنا به إذا لم نجد ما هو أصح منه مثل حديث عمرو بن شعيب ونحوه، ونأخذ بالمرسل إذا لم يجيء خلافه.

وقال عبد الرحمن المتطبب: إعتل أحمد وبشر بن الحارث فكنت أدخل على بشر فأقول: كيف تجدك؟ فيقول: أحمد الله إليك، أجد كذا أجد كذا، وأدخل على أحمد فأقول: كيف تجدك؟ فيقول: بخير، فقلت: إني أسأل بشراً فيبدأ بحمد الله ثم يخبرني، فقال: سله [عمن] أخذ هذا؟ فقلت له: إني أهابه، فقال: قل له أخوك أحمد يقول لك عن من أخذت هذا؟ فلما ذكرت له ذلك عنه، قال: أبو عبد الله لا يريد الشيء إلا بإسناد، عن ابن عون عن ابن سيرين إذا حمد العبد قبل الشكوى لم يكن شكوى وإنما أقول أجد كذا لأعرف قدرة الله، قال: فخرجت من عنده فمضيت إلى أبي عبد الله لأعرفه ما قال، فكنت بعد ذلك إذا دخلت إليه يقول: أحمد الله إليك ثم يذكر ما يجد.

وسئل عن الوسواس والخطرات فقال: لم يتكلم فيه الصحابة ولا التابعون. وأما تعظيمه أهل الحديث فقيل له [أن رجلاً قال إن][1] أصحاب الحديث قوم سوء، فقال: زنديق، زنديق، زنديق.

وقال - رضي الله عنه -: من عظم أصحاب الحديث عظم عند رسول الله ﷺ، ومن حقرهم سقط من عينه لأنهم أحباره.

وقيل له: من مات على الإسلام والسنة مات على خير؟ فقال: اسكت بل على الخير كله.

وقيل: أين يطلب البدلاء؟ فسكت طويلاً ثم قال: إن لم يكن في أصحاب الحديث فلا أدري.

ورأى - رضي الله عنه - أصحاب الحديث وقد خرجوا من عند محدث وبأيديهم المحابر فقال: إن لم يكن هؤلاء الناس فمن؟!

وسئل عن الرجل يصوم ويصلي أهو أحب إليك ممن يكتب الحديث؟ فقال: لا بل الذي يكتب لئلا يقول كقول القائل: إني رأيت الناس على شيء فتبعت.

وقال: من رد حديث رسول الله ﷺ، فهو على شفا هلكة.

فصل
في نهيه عن الرأي

كان - رضي الله عنه - يكره وضع كتب الرأي وكتب التفريع ويحب التمسك بالأثر.

وقال لعثمان بن سعيد: لا تنظر في كتب أبي عبد الله ولا إسحاق ولا سفيان ولا الشافعي ولا مالك وعليك بالأصل.

قلت: ومراده بذلك من له قدرة على الاستنباط من الأصل وهو الكتاب والسنة.

---

(١) ما بين القوسين من كتاب الآداب الشرعية لابن مفلح المقدسي رحمه الله ٢/ ٤٥.

وقال له سلمة بن شبيب: إن أصحاب الحديث يكتبون كتب الشافعي فقال: لا أرى لهم ذلك.

وسئل عن كتاب أبي ثور فقال: بدعة عليكم بالحديث.

وكان ـ رضي الله عنه ـ يأمر بالموطأ ويرخص فيه وينهى عن جامع سفيان.

وسئل عنهما فنهى وقال: عليك بالأثر.

ونهى عن كتب الرأي فقيل له: إن ابن المبارك كتبها فقال: ابن المبارك لم ينزل من السماء وإنما أمرنا أن نأخذ العلم من فوق.

وقال: لا قياس إلا على أصل فإذا نقص الأصل فعلى ما القياس.

وقال: لا ينبغي أن يقيس إلا عالم كبير يعرف كيف شبه الشيء بالشيء.

وقال ـ رضي الله عنه ـ: أصول السنة التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ، والاقتداء بهم وترك المراء والجدال والخصومات في الدين، والسنة عندنا آثار رسول الله ﷺ وليس في السنة قياس ولا تضرب لها الأمثال ولا تدرك بالعقول والأهواء إنما هو الاتباع وترك الهوى.

وقال المروزي: سألته عن أشياء كثيرة فقال فيها: لا أدري، وقال: ربما مكث في المسألة ثلاث سنين، وكان يكثر من قول لا أدري، والله تعالى أعلم.

فصل

في إعراضه عن أهل البدع

جاءه يوماً الحزامي وقد كان ذهب إلى ابن أبي دُؤَادُ فأغلق الباب دونه. وقال له أبو داود: إذا رأيت سنياً مع بدعي أأترك كلامه، فقال:

أعلمه فإن انتهى وإلا فألحقه به.

وقال: لا أحد أحوج إلى الحديث من أهل هذا الزمان فإن البدع قد كثرت فمن لم يكن معه شيء منه وقع فيها.

وكان الخليفة المتوكل فد سأل الإمام أحمد عمن يقلد القضاء فسئل عن جماعة من الأعيان فنهى عنهم واحداً واحداً وذكر ما في كل منهم وبعضهم نهى عنه لصحبته من لا يرتضى.

وقال في آخره: وبالجملة إن أهل البدع والأهواء لا ينبغي أن يستعان بهم في شيء من أمور المسلمين، والرأي رأي أمير المؤمنين أطال الله بقاءه من التمسك بالسنة والمخالفة لأهل البدع.

وكان - رضي الله عنه - ينهى عن جماعة من الأعيان ممن خالف السنة ظاهراً وهو محمول على نصح الدين.

وقال - رضي الله عنه - لابن إسحاق السراج: بلغني أن الحارث المحاسبي يكثر الكلام عندك فلو أحضرتني عندك وأجلستني بحيث لا يراني فأسمع كلامه، ثم أنه - رضي الله عنه - لما حضر هو وأصحابه وسمع كلامه في المنزل وكان في غرفة المنزل صعد إليه ابن إسحاق فقال: كيف رأيت هؤلاء؟ فقال: لم أر مثلهم ولا سمعت في الحقائق مثل كلامه وعلى كل حال فلا أرى لك صحبتهم، ثم خرج.

وعن أبي نصر النصر أباذي قال: بلغني أن الحارث تكلم في شيء من الكلام فهجره الإمام أحمد فاختفى في دار ببغداد ومات فيها فلم يصل عليه إلا أربعة نفر.

وكان - رضي الله عنه - يقول: لا تجالسوا أهل الكلام وإن ذبوا عن السنة.

وكتب - رضي الله عنه - إلى عبد الله بن يحيى بن خاقان: لست بصاحب كلام ولا أراه إلا في الكتاب والسنة عن النبي ﷺ، وأصحابه فأما الكلام في غير ذلك فغير محمود.

فصل

في محنة الإمام أحمد رضي الله تعالى عنه

وما وقع له مع المأمون وأخيه المعتصم ثم الواثق بن المعتصم بسبب القرآن الكريم وما أصابه من الحبس الطويل والضرب الشديد والتهديد بالقتل وقلة مبالاته بما كان منهم وتمسكه بالدين القويم والصراط المستقيم.

وهي محنة عظيمة رقمت في الطروس وزهقت منها النفوس، وبها ارتفعت منزلته عند الأئمة الأخيار، وزاد بها رفعة في سائر الأقطار، وقد بشره بها قبل وقوعها النبي المختار على لسان الإمام الجليل محمد بن إدريس ذي الجلالة والفخار.

ذكر الأئمة أن الإمام الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ لما دخل مصر رأى النبي ﷺ، في المنام وأخبره أن الإمام أحمد سيمتحن.

قال الربيع بن سليمان: فكتب الشافعي كتاباً إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل ثم قال لي: يا ابن سليمان انحدر بكتابي هذا إلى العراق ولا تقرأه فأخذت الكتاب وخرجت من مصر حتى قدمت العراق فوافيت مسجد أحمد بن حنبل فصادفته يصلي الفجر فصليت معه وكنت لم أركع السنة فقمت أركع عقيب الصلاة فجعل ينظر إلي ملياً حتى عرفني فلما سلمت من صلاتي سلمت عليه وأوصلت الكتاب إليه وقلت له: هذا كتاب أخيك الشافعي من مصر فجعل يسألني عن الشافعي طويلاً قبل أن ينظر في الكتاب ثم قال لي: نظرت فيه، قلت: لا، ففك ختمه وقرأه حتى إذا بلغ موضعاً منه بكى وقال: أرجو الله تعالى أن يحقق ما قاله الشافعي، قلت: يا أبا عبد الله أي شيء قد كتب إليك؟ قال: ذكر في كتابه أنه رأى النبي ﷺ، في نومه وهو يقول له: يا ابن إدريس بشر هذا الفتى أبا عبد الله أحمد بن حنبل أنه سيمتحن في دين الله ويدعى أن يقول القرآن مخلوق فلا يفعل فإنه سيضرب بالسياط وأن الله عز وجل ينشر له بذلك علماً لا يطوى إلى

يوم القيامة، فقلت: بشارة فأي شيء جائزتي عليها وكان عليه ثوبان فنزع أحدهما فدفعه إلي وكان مما يلي جلده وأعطاني جواب الكتاب فخرجت حتى قدمت على الشافعي فأخبرته بما جرى، قال: فأين الثوب؟ قلت: هو ذا، فقال: ليس نفجعك به.

ويروى أن الشافعي قال للربيع: لانبتاعه منك ولا نستهديه ولكن اغسله وجئنا بمائه، قال: فغسلته وحملت ماءه إليه فجعله في قنينة وكنت أراه في كل يوم يأخذ منه فيمسح على وجهه تبركاً بأحمد بن حنبل.

إذا تقرر هذا: ـ

فقال الحافظ أبو الفرج: لم يزل الناس على قانون السلف من قولهم القرآن كلام الله غير مخلوق حتى نبغت المعتزلة فقالوا بخلق القرآن وكانوا يستترون بذلك في الرشيد حتى أن الرشيد قال يوماً: بلغني أن بشر المريسي يقول: القرآن مخلوق ولله علي إن أظفرني به لأقتلنه قتلة ما قتلتها أحداً، فأقام بشر متوارياً أيام الرشيد نحواً من عشرين سنة فلما توفى الرشيد كان الأمر كذلك في زمن ولده الأمين فلما ولي المأمون خالطه قوم من المعتزلة فحسنوا له القول بخلق القرآن.

وقال البيهقي: قرب من مجلسه جماعة من المبتدعين والفلاسفة حتى ألقوا في سمعه من كلام أهل الزيغ والبدع ما حمله على القول بخلق القرآن ونفي الصفات. انتهى.

وكان يتردد في حمل الناس على ذلك ويراقب بقايا الأشياخ ثم قوى عزمه على ذلك.

قال يحيى بن أكثم: قال لنا المأمون: لولا مكان يزيد بن هارون لأظهرت القول بخلق القرآن، فقال له بعض جلسائه: ومن يزيد بن هارون حتى يتقيه أمير المؤمنين؟ فقال: إني أخاف إن أظهرته يرد علي

فيختلف الناس وتكون فتنة وأنا أكره الفتنة، فقال أحدهم: أنا أتكلم مع يزيد بن هارون، فقال له: دونكه، فلما ذهب إليه بواسط قال له: يا أبا خالد إن أمير المؤمنين يقرئك السلام ويقول إني أريد أن أقول القرآن مخلوق فما عندك في ذلك؟ فقال: كذبت على أمير المؤمنين، لا يحمل الناس على ما لا يعرفونه ولم يقل به أحد، فرجع الرجل وذكر ذلك للمأمون، فقال له: إنه تلعب بك.

فصل

في ما جرى لأحمد بن حنبل مع المأمون

قال حنبل بن إسحاق بن حنبل ابن عم الإمام أحمد: سمعت أبا عبد الله يقول: أول من حمل للمحنة سبعة أنفس وهم يحيى بن معين وأبو خيثمة زهير بن حرب وأحمد بن إبراهيم الدورقي وإسماعيل الجزري ومحمد بن سعد كاتب الواقدي وأبو مسلم المسلمي فأجابوا ولو كانوا صبروا وقاموا لله لكان انقطع الأمر وحذرهم الرجل ـ يعني المأمون ـ ولكن لما أجابوا وهم عين البلد أجترأوا على غيرهم، وكان أبو عبد الله إذا ذكرهم يغتم ويقول: هم أول من ثلم هذه الثلمة.

قال حنبل: حدثني أبي قال: ورد كتاب المأمون من الروم إلى بغداد إلى إسحاق بن إبراهيم يأمره بامتحان أبي عبد الله أحمد بن حنبل وعبيد الله بن عمر القواريري والحسن بن حماد المعروف بسجادة ومحمد بن نوح فوجه إليهم إسحاق وأحضرهم فأدخلوا على إسحاق فامتحنهم فأبى أبو عبد الله والقوم أن يجيبوا فلما كان بعد يوم أو يومين دعا إسحاق بالقواريري وسجادة من الحبس وهما مقيدان فسألهما فأجاباه فخلى عنهما.

فكان أبو عبد الله ـ رحمه الله ـ يقيم عذرهما ويقول: أليس قد حبسا وقيدا، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ ثم قال أبو عبد الله: القيد كره والحبس كره والضرب كره، فأما إذا لم ينل بمكروه فلا عذر له، قال أبو عبد الله: وكان في الكتاب: إقرأ

عليهم: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فقرأ على إسحاق: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فقلت: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ فقال لي إسحاق: ما أردت بهذا؟ قلت: قرأت كلام الله وذكرت ما وصف به نفسه سبحانه وتعالى ولم أزد في كتابه شيء، ومراد الإمام أحمد بذلك إقامة حجته عليهم في إثبات الصفات من الآية التي احتجوا عليه بها فكان ما استدلوا به دليلاً له لا عليه.

ثم ورد كتاب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم بحمل أبي عبد الله ومحمد بن نوح إليه ببلاد الروم فحملا إلى طرسوس مقيدين.

وذكر ابن الجوزي بسنده إلى أبي جعفر الأنباري أنه قال: لما حمل أحمد إلى المأمون أخبرت فعبرت الفرات فإذا هو جالس فسلمت عليه، فقال: يا أبا جعفر تعنيت، فقلت: ليس في هذا عناء، وقلت له: أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك فوالله [إن] أجبت إلى خلق القرآن ليجيبن بإجابتك خلق من خلق الناس وإن أنت لم تجب ليمتنعن خلق من الناس كثير ومع هذا فإن الرجل - يعني المأمون - إن لم يقتلك فالموت لا بد منه فثق بالله ولا تجبهم إلى شيء، قال: فجعل أبو عبد الله يبكي ويقول: ما شاء الله، ما شاء الله.

وذكر البيهقي وابن الجوزي كل منهما بسنده إلى إبراهيم بن عبد الله البصري أنه قال: قال أحمد بن حنبل: ما سمعت كلمة كانت أقوى لقلبي من كلمة كلمني بها أعرابي، قال: يا أحمد إن يقتلك الحق مت شهيداً وإن عشت عشت حميداً.

قال ابن أبي حاتم: فكان كما قال الأعرابي، لقد رفع الله شأن أحمد بعدما امتحن وعظم عند الناس وارتفع أمره جداً.

ولقيه رجل وهو راحل فقال: أيكم أحمد بن حنبل؟ فقيل هذا فقال: ما عليك أن تقتل ها هنا وتدخل الجنة ها هنا.

وقال أحمد بن غسان: كنت سائراً مع أحمد لما طلبه المأمون

فإذا نحن برجل عليه عباءة قد شدها على عنقه فقال: يا أبا عبد الله إن الله قد رضيك له وافداً فانظر أن لا يكون وفودك على المسلمين وفوداً مشؤوماً، واعلم أن الناس إنما ينتظرونك لأن تقول فيقولوا فاعلم إنما هو الموت والجنة ثم مضى، قال: فلم يكن بأسرع من أن ورد علينا قاصد المأمون، فقال: أين هؤلاء الأشقياء؟ فقال له أحمد: يا عدو الله أنت تقول القرآن مخلوق ونكون نحن الأشقياء، قال: فأنزلنا من المحامل وصيرنا في خيمة فخرج إلينا خادم وهو يمسح عن وجهه بكمه ويقول: عز علي يا أبا عبد الله، جرد أمير المؤمنين سيفاً لم يجرده قط وبسط نطعاً لم يبسطه قط ثم قال: وقرابتي من رسول الله ﷺ، لارفعت عن أحمد وصاحبه حتى يقولا القرآن مخلوق، قال: فنظرت إلى أحمد وقد برك على ركبتيه ولحظ السماء بعينيه ثم قال: علا عن هذا الفاجر حكمك حتى يتجرى على أوليائك بالضرب والقتل فإن يكن القرآن كلامك غير مخلوق فاكفنا مؤنته، قال: فوالله ما مضى الثلث الأول ونحن بصيحة وضجة وإذا قاصد المأمون قد أقبل علينا فقال: صدقت يا أبا عبد الله القرآن كلام الله غير مخلوق وقد مات والله أمير المؤمنين.

قال الإمام أحمد: وكنت دعوت الله أن لا يريني وجه المأمون فلما مات المأمون رد الإمام أحمد إلى بغداد مقيداً فسجن بها حتى امتحنه المعتصم أخو المأمون. والله أعلم.

فصل
في محنة أحمد بن حنبل مع المعتصم

قال: لما مات المأمون وولي أخاه أبو إسحاق المعتصم رد بأبي عبد الله أحمد ومحمد بن نوح إلى بغداد فمات محمد بن نوح في الطريق ففك عنه القيد وصلى عليه الإمام أحمد وقال: ما رأيت أحداً على حداثة سنه أقوم بأمر الله من محمد بن نوح، قال لي ذات يوم: يا أبا عبد الله إنك لست مثلي أنت رجل يقتدى بك وقد مد الخلق

أعناقهم ليسمعوا مقالتك فاتق الله واثبت، فكان أحمد يتعجب من تقويته له وموعظته.

ووصل الإمام أحمد إلى بغداد مقيداً وحبس في دار أياماً ثم نقل إلى حبس العامة فكان يصلي بأهل السجن وهو مقيد.

وأرسل إليه آدم العسقلاني يقول له وهو ببغداد: اتق الله وتقرب إليه بما أنت فيه ولا يستفزنك أحد فإنك مشرف على الجنة ثم ذكر له حديثاً يرفعه إلى النبي ﷺ أنه قال: «من أرادكم على معصية الله فلا تطيعوه» فلما وصل إليه الخبر أطرق ملياً ثم قال: رحمه الله حياً وميتاً فلقد نصح فأحسن.

قال المروزي: لما سجن أبو عبد الله جاءه السجان فقال: يا أبا عبد الله الحديث الذي روي في الظلمة وأعوانهم صحيح؟ قال: نعم، قال السجان: وأنا من أعوان الظلمة، فقال له أبو عبد الله: أعوان الظلمة من يأخذ شعرك ويغسل ثوبك ويصلح طعامك ويبيع ويشتري منك فأما أنت فمن أنفسهم.

قال إسحاق بن حنبل: كنت أتكلم مع أصحاب السلطان والقواد في خلاص أبي عبد الله فلم يتم لي أمر فاستأذنت على إسحاق بن إبراهيم فدخلت إليه وكلمته فقال لحاجبه: إذهب معه إلى ابن أخيه ولا يتكلم ابن أخيه بشيء إلا أخبرتني به، قال إسحاق: فدخلت على أبي عبد الله ومعي حاجبه فقلت: يا أبا عبد الله قد أجاب أصحابك وقد أعذرت فيما بينك وبين الله وبقيت أنت في الحبس والضيق، فقال أبو عبد الله: يا عم إذا أجاب العالم تقية والجاهل بجهل متى يتبين الحق، قال: فأمسكت عنه، قال: فذكر لأبي عبد الله ما روي في التقية من الأحاديث فقال: كيف تصنعون بحديث: «إن من كان قبلكم لينشر أحدهم بالمنشار ثم لا يصده ذلك عن دينه» قال: فيئسنا منه ثم قال: لست أبالي بالحبس ما هو ومنزلي إلا واحد ولا قتلا بالسيف إنما أخاف فتنة بالسوط وأخاف أن لا أصبر فسمعه بعض أهل الحبس وهو

يقول ذلك فقال: لا عليك يا أبا عبد الله ما هو إلا سوطان ثم لا تدري أين يقع الباقي، فلما سمع ذلك سري عنه.

قال: ثم حول أبو عبد الله إلى دار إسحاق بن إبراهيم في شهر رمضان سنة تسع عشرة ومائتين فبعث إسحاق بن إبراهيم فأخذ الزنبيل الذي فيه إفطار أبي عبد الله فنظر فيه فإذا فيه رغيفان وشيء من قثاء وملح فعجب إسحاق من ذلك.

وكان أحمد بن أبي[1] دؤاد المعتزلي متولياً لقضاء الكوفة فكان يحمل المعتصم على القول بخلق القرآن.

قال أبو عبد الله: فكان إسحاق يوجه إلي كل يوم برجلين يناظراني يقال لأحدهما أحمد بن رباح والآخر أبو شعيب الحجام فلا يزالان يناظراني فإذا أرادا الانصراف دعيا بقيد حتى صار في رجلي سبعة قيود.

قال أبو عبد الله: ثم أدخلت على إسحاق فقال لي: لو أجبت أمير المؤمنين إلى ما دعاك إليه فكلمته بكلام قوي فقال: يا أحمد إني عليك مشفق وقد آلى أمير المؤمنين إن لم تجبه ليقتلنك فقلت له: ما عندي في هذا الأمر إلا الأول. كذا نقل البيهقي.

ونقل ابن الجوزي: أن إسحاق بن إبراهيم قال له: إن أمير المؤمنين لا يقتلك وقد آلى إن لم تجبه ليضربنك ضرباً بعد ضرب وليلقينك في موضع لا ترى فيه شمساً ثم قال إسحاق: إذهبوا به إلى

---

(١) جاء في هامش المخطوط: صوابه دؤاد ومن كتبه داود فهو غلط. انتهى.
- أحمد بن أبي دؤاد بن حريز القاضي أبو عبد الله الأيادي البصري ثم البغدادي ولي القضاء للمعتصم وللواثق، وكان مصرحاً بمذهب الجهمية، داعية للقول بخلق القرآن، قال الصولي: كان يقال: أكرم من كان في دولة بني العباس البرامكة ثم ابن أبي دؤاد لولا ما وضع به نفسه من محبة المحنة لاجتمعت الألسن عليه ولم يضف إلى كرمه كرم أحد. انتهى. تاريخ الإسلام للذهبي قلت: جاء بترجمته في كتاب تاريخ الإسلام وفيّات ٢٣١ـ ٢٤٠هـ ت ٢٤٠هـ.

أمير المؤمنين فجيء لأحمد بدابة وحمل عليها بقيوده وما معه أحد يمسكه وكاد غير مرة يقع.

قال الإمام أحمد: فذهبوا بي إلى دار المعتصم وأدخلت في حجرة ليلاً وأغلق علي الباب وأقعد عليه رجلان وليس في المكان سراج فأردت أن أتيمم للصلاة فمددت يدي فإذا بإناء فيه ماء وطشت موضوع فتوضأت وقمت أصلي ولا أعرف القبلة فصليت فلما أصبحت جاء رسول المعتصم فقال: أجب فثقلت علي القيود وكدت غير مرة أخر على وجهي فأخرجت تكة سراويلي وشددت بها القيود ثم مشيت إلى أن دخلت عليه والتكة بيدي أحمل بها القيود فإذا هو جالس وابن أبي دؤاد حاضر وقد جمع خلقاً كثيراً من أصحابه منهم أبو عبد الرحمن الشافعي وغيره، فلما نظر إلي المعتصم سمعته يقول لهم كالمنكر عليهم: أليس قد زعمتم أنه حدث السن؟ هذا شيخ مكتهل.

وفي رواية: لما نظر أحمد إلى أبي عبد الرحمن الشافعي قال له: أي شيء تحفظ عن الشافعي في المسح؟ فقال ابن أبي دؤاد: انظروا إلى هذا هو يقدم لضرب العنق وهو يناظر في الفقه ثم إن المعتصم قال لأحمد: أدنه، أدنه، حتى قرب منه ثم أجلسه وقد أثقله الحديد، قال الإمام أحمد: فمكثت قليلاً ثم قلت: يا أمير المؤمنين أتأذن لي في الكلام؟ فقال: تكلم، فقلت: إلى ماذا دعا الله ورسوله.

وفي رواية: إلى ما دعا إليه ابن عمك رسول الله ﷺ؟ قال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله، فقلت: أنا أشهد إن لا إله إلا الله، ثم قلت: إن جدك ابن عباس يقول: «لما قدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ، سألوه عن الإيمان فقال: أتدرون ما الإيمان؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن تعطوا الخمس من المغنم: «فإلى ما أدعى وهذه شهادتي وإخلاصي بالتوحيد، فقال المعتصم: لولا أني وجدتك في يد من كان قبلي ما عرضت لك ثم قال: يا

عبد الرحمن ألم آمرك برفع المحنة، قال الإمام أحمد: الله أكبر إن في هذا لفرجاً للمسلمين ثم قال المعتصم للحاضرين: ناظروه، ثم قال: يا عبد الرحمن كلمه فقال لي: عبد الرحمن: ما تقول في القرآن؟ فسكت، فقال لي المعتصم: أجبه، فقلت له: ما يقول في علم الله؟ فسكت، فقلت لعبد الرحمن: القرآن من علم الله عز وجل ومن زعم أن علم الله مخلوق فقد كفر بالله فسكت عبد الرحمن فقال الحاضرون للمعتصم: يا أمير المؤمنين كفرنا وكفرك فلم يلتفت إلى ذلك منهم فقال لي عبد الرحمن: كان الله ولا قرآن فقلت: أكان الله ولا علم فأمسك، ولو زعم أن الله تعالى كان ولا علم لكفر.

قال الإمام أحمد: واحتجوا علي بحديث عمران بن حصين: «إن الله عز وجل خلق الذكر» والذكر هو القرآن فقلت: هذا خطأ حدثنا غير واحد «إن الله عز وجل كتب الذكر» واحتجوا علي بحديث ابن مسعود «ما خلق الله من جنة ولا نار ولا سماء ولا أرض أعظم من آية الكرسي» قال أبو عبد الله: فقلت إنما وقع الخلق على الجنة والنار والسماء والأرض، وجعل المعتصم يقول: ناظروه وجعل كل منهم يأتيه بما عنده وهو يرد على كل منهم، فقال المعتصم: ما تقول يا أحمد؟ فقال: ائتوني من كتاب الله أو سنة رسول الله بشيء وأنا أكلمكم عليه، فقال ابن أبي دؤاد: وأنت لا تقول إلا ما فيهما وجعل يراجع أحمد وهو لا يجيبه بغير ما قال، فقال ابن أبي دؤاد: هذا مبتدع ضال مضل.

قال أبو عبد الله: كان القوم إذا انقطعوا عن الحجة عرض ابن أبي دؤاد فتكلم وكلمني مرة فلم التفت إليه فقال لي المعتصم: ألا تكلمه؟ فقلت: لست أعرفه من أهل العلم فأكلمه.

قال أبو عبد الله: وكان ابن أبي دؤاد من أجهل الناس بالعلم والكلام، قال فجعل ابن أبي دؤاد يقول: يا أمير المؤمنين والله إن أجابك لهو أحب إلي من مائة ألف دينار ومائة ألف دينار وعدد من

ذلك ما شاء الله، فقال المعتصم: والله إنه لفقيه، والله إنه لعالم وودت أن يكون معي يصلح من شأني ويرد على أهل الملل ثم قال: والله لئن أجاب لأطلقنه بيدي ولأركبن إليه بجندي ولأفعلن ولأفعلن، ثم قال: يا أحمد أتعرف صالحاً الرشيدي؟ قلت: قد سمعت باسمه، قال: كان مؤدبي وكان صاحب سنة فسألته عن القرآن فخالفني فأمرت به فوطىء وسحب ثم قال: يا أحمد أجبني وأعاد كلامه، فقلت: أئتوني بآية من كتاب أو سنة وطالت المناظرة فقام المعتصم.

قال الإمام أحمد: ثم رددت إلى المكان الذي كنت فيه ووجه إلي برجلين من أصحاب ابن أبي دؤاد يبيتان عندي ويناظراني، فلما كان وقت الإفطار وجيء بالطعام جهدا بي أن أفطر فلم أفعل فلما كان في اليوم الثاني جاء الرسول فذهب بي فقال لهم: ناظروه وكلموه فجعلوا يناظروني ويتكلم هذا من ها هنا فأرد عليه ويتكلم هذا من ها هنا فأرد عليه وإذا جاءوا بشيء من الكلام والبدع مما ليس فيه كتاب الله ولا سنة رسوله ولا عندي فيه خبر أقول لا أدري ما هذا فيقولون: يا أمير المؤمنين إذا توجهت له الحجة إنساب علينا وإذا كانت الحجة عليه قال: لست صاحب كلام أنا صاحب أثر فلم يزالوا كذلك إلى قرب الزوال، فلما ضجر قال لهم: قوموا، ثم رددت إلى المكان الذي كنت فيه، فلما كان الليل نام من كان معي وأنا متفكر في أمري فإذا أنا برجل طويل يتخطى الناس حتى دنا مني فقال: أنت أحمد بن حنبل؟ فسكت، فقال [ثانية] وثالثة أنت أبو عبد الله أحمد بن حنبل؟ قلت: نعم، قال: إصبر ولك الجنة، قال أبو عبد الله: فلما مسني حر السوط ذكرت قول الرجل فصبرت.

قال: فلما كانت الليلة الثالثة قلت: خليق أن يحدث غداً من أمري شيء فلما كان من الغد وجه إلي المعتصم فأدخلت فإذا الدار غاصة فجعلت أدخل من موضع إلى موضع وقوم معهم السيوف وقوم معهم السياط وغير ذلك ولم يكن في اليومين الماضيين شيء من ذلك فلما انتهيت إليه قال: أقعد ثم قال: يا أحمد أجبني إلى ما أدعوك إليه

فإنه بلغني أنك تحب الرياسة ووالله إن أجبتني إلى ما أدعوك لأتيتك في حشمي ومَوَالِيَّ ولأطأن بساطك ولأنوهن بك، يا أحمد الله الله في نفسك، قلت: يا أمير المؤمنين هذا القرآن وأحاديث رسول الله وأخباره فمهما وضح علي من حجة صرت إليها فقال: ناظروه، كلموه، قال: فجعلوا يناظروني ويتكلم هذا فأرد عليه ويتكلم هذا فأرد عليه وصار صوتي يعلو أصواتهم.

قال أبو عبد الله: واحتجوا علي فقالوا: تجيء سورة البقرة يوم القيامة فقلت لهم: إنما هو الثواب، قال الله عز وجل: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ وإنما تأتي قدرته وآثار قدرته فلما طال المجلس نحاني ثم خلى بهم وكان المعتصم لا يعلم ويظن أن القول قولهم ثم نحاهم وردني إليه وقال: ويحك يا أحمد أجبني حتى أطلق عنك بيدي إني والله لأشفق عليك كشفقتي على هارون ابني فرددت عليه نحواً مما كنت أرد قبل ذلك فغضب ولعن وقال: لقد طمعت فيك أن تجيبني خذوه واسحبوه واخلعوه.

قال أبو عبد الله: وكان معي شعر من شعر النبي ﷺ أعطانيه أبو الفضل بن الربيع صررته في ثوبي فأراد بعضهم خرق القميص فقال المعتصم: لا تخرقوه فعلمت أن ذلك ببركة شعره ﷺ فنزع عني ثم إن المعتصم جلس على كرسي.

قال أبو عبد الله: وجعلت بين العقابين ثم مدت يداي فقال بعض من حضر: افعل كذا وكذا فلم أفهم ما قال فتخلعت يداي، فقلت: يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث» الحديث، وقال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم» فبم تستحل دمي ولم آت شيئاً من هذا؟ يا أمير المؤمنين أذكر وقوفك بين يدي الله تعالى كوقوفي بين يديك، يا أمير المؤمنين، راقب الله عز وجل.

فلما رأى المعتصم ثبوت أبي عبد الله وتصميمه لان لأبي عبد الله فخشي ابن أبي دؤاد من رأفته عليه فقال: يا أمير المؤمنين إن تركته قيل أنك تركت مذهب المأمون وسخطت قوله وأنه غلب خليفتين فهاجه ذلك وطلب كرسياً جلس عليه وقام ابن أبي دؤاد وأصحابه على رأسه.

ثم قال المعتصم للجلادين: أروني أسياطكم فنظر إليها ثم قال: ائتوني بغيرها فأتوه بغيرها ثم قال: تقدموا.

قال أبو عبد الله: فجعل الجلاد منهم يضربني سوطين فيقول المعتصم: شد قطع الله يدك ثم يتنحى فيتقدم غيره فيضربني سوطين وهو في كل ذلك يقول: شدوا قطع الله أيديكم فلما ضربت تسعة عشر سوطاً قام المعتصم فقال: علام تقتل نفسك؟ والله إني عليك شفيق.

قال أحمد: فنخسني بعضهم بقائم سيفه وقال: تريد أن تغلب هؤلاء كلهم، وقال آخر: ويلك الخليفة قائم على رأسك، وقال آخر: يا أمير المؤمنين دمه في عنقي أقتله، وقال آخر: يا أمير المؤمنين أنت صائم وفي الشمس قائم، فقال لي: ويحك يا أحمد ما تقول؟ فقلت: آتوني بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، أقل بما فيهما.

قال: ثم رجع فجلس ثم قال للجلاد: تقدم أوجع قطع الله يدك ثم قام إلي ثانية فأعاد علي كلامه وأعدت عليه كلامي فرجع وجلس وقال للجلادين: تقدموا وجعل يقول لكل واحد: شد قطع الله يدك.

قال أحمد: فذهب عقلي ثم أفقت فإذا الأقياد قد أطلقت عني، فقال لي رجل ممن حضر: إنا كببناك على وجهك وطرحنا على ظهرك بارية ودسناك، فقال: إني لم أشعر بذلك وأتوني بسويق فقالوا: إشرب وتقيأ فقلت: لست أفطر - يعني من الصيام - ثم جيء بي إلى دار إسحاق بن إبراهيم فحضرت الصلاة فتقدم ابن سماعة فصلى فلما انفتل من الصلاة قال لي: صليت والدم يسيل في ثوبك، قلت: «قد صلى

عمر وجرحه يثعب دماً».

وذكر ابن الجوزي بسنده إلى المروزي قال: قال لي أبو عبد الله: أخرج أنظر ماذا ترى، بعد أن قلت له: يا أستاذ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ قال: فخرجت إلى رحبة دار الخليفة فرأيت خلقاً لا يحصى عددهم إلا الله والصحف والأقلام في أيديهم والمحابر في أذرعتهم فقال لهم المروزي: أي شيء تعملون؟ قالوا: ننظر ما يقول أحمد فنكتبه فدخل المروزي إلى أبي عبد الله فقال: رأيت قوماً بأيديهم الصحف والأقلام ينتظرون ما تقول فيكتبونه، فقال: يا مروزي أضل هؤلاء كلهم، أقتل نفسي ولا أضل هؤلاء كلهم، وكتبوا له إن رجعت عن مقالتك ارتددنا عن الإسلام.

وقال ميمون بن الأصبغ: كنت ببغداد فسمعت ضجة فقلت: ما هذا؟ فقالوا: أحمد بن حنبل يمتحن فأتيت منزلي فأخذت مالاً له خطر فذهبت به إلى من يدخلني إلى المجلس فأدخلوني فإذا بالسيوف قد جردت وبالرماح قد ركزت وبالتراس قد نصبت والسياط قد طرحت فوقفت حيث أسمع الكلام فأتى أمير المؤمنين فجلس على كرسي وأتى بأحمد بن حنبل فقال له: وقرابتي من رسول الله ﷺ، لأضربنك بالسياط أو تقول كما أقول ثم قال للجلاد: خذه إليك فأخذه فلما ضرب سوطاً قال: بسم الله فلما ضرب الثاني قال: لا حول ولا قوة إلا بالله فلما ضرب الثالث قال: القرآن كلام الله غير مخلوق فلما ضرب الرابع قال: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ فضربه تسعة وعشرين سوطاً وكانت تكة سراويله حاشية ثوب فانقطعت فنزل السراويل إلى عانته فقلت: الساعة يُنْتَهَكُ فرمى أبو عبد الله طرفه نحو السماء وحرك شفتيه فما كان بأسرع من أن بقي السراويل لم ينزل.

وذكر البيهقي: أنه في أول سوط قال: بسم الله وفي الثاني قال: توكلت على الله وهذا في رضى الله وفي الثالث قال: ما شاء الله كان وكل شيء عنده بمقدار وفي الرابع قال: لا حول ولا قوة إلا بالله وفي

الخامس قال: يا أمير المؤمنين إنك موقوف ومسائل عني بين يدي رب لا يظلم ويأخذ للمظلوم من الظالم وفي السادس قال: يا أمير المؤمنين: سألتك بالله والدار الآخرة، قال: وهو لا يرفع رأسه إليه وفي السابع قال: يا أمير المؤمنين أذكر الوقوف بين يدي الله كوقوفي بين يديك لا تستطيع منعاً ولا عن نفسك دفعاً فلما ضربه الثامن اضطرب الميزر في وسطه، قال المروزي وابن مسكويه الهمداني: لقد رأينا أحمد رفع رأسه إلى [السماء] وحرك شفته فما استتم الدعاء حتى رأينا كفاً من ذهب قد خرج من مئزره فرد المئزر إلى موضعه بقدرة الله تعالى فضجت العامة وهموا بالهجوم على دار السلطان فأمر بحله.

قال المروزي وابن مسكويه: فدخلنا على أبي عبد الله فقلنا: أي شيء كان تحريك شفتيك عند اضطراب المئزر قال: رفعت رأسي إلى السماء وناديت: يا غياث المستغيثين ويا إله العالمين إن كنت تعلم أني قائم بحق فلا تهتك عورتي فاستجاب الله دعائي.

وقال إسحاق بن إبراهيم: أنا والله رأيت يوم ضرب أحمد وقد ارتفع السراويل من بعد انخفاضه وانعقد من بعد انحلاله وما رأيت يوماً كان أعظم من ذلك اليوم، والله لو لم يرفع عنه الضرب لم يبرح من مكانه إلا ميتاً. انتهى كلام البيهقي.

وكان بشر بن الحارث ساعة ضربه يقول: اللهم ثبته اللهم أعنه ولم يزل كذلك كالحيران وهو يقول: إن أجاب لأدخلن فأقوم مقامه فلما لم يجب قال: الحمد لله.

وكان أبو عبيد القاسم بن سلام يقول: يضرب سيدنا لاصبر، يضرب سيدنا لاصبر.

وقال أبو شعيب: -

ضربوا ابن حنبل بالسياط بظلمهم   بغيا فثبت بالثبات الأنور
قال الموفق حين مدد بينهم   مد الأديم على الصعيد القرقر

إنـي أمـوت ولا أبـوء بـفـجـرة   تـصلى بوائقـها محل المفتر

وفي روايات ضربه أخبار كثيرة، وقد ذكرنا منها ما صح كما اعتمده الأئمة وارتضاه الحفاظ.

وفي بعض التواريخ أن الخليفة المعتصم أخذه عقيب ذلك صفار وكان ينتبه من النوم مذعوراً وربما سمع وهو يقول: مالي ولأحمد كأنه يعذب إلى أن مات. وكانت مدة ولايته ثمان سنين وشهرين وأياماً.

وقال ابن أبي حاتم: سمعت أبا زرعة يقول: دعا المعتصم بإسحاق عم أحمد بن حنبل ثم قال للناس: تعرفونه؟ قالوا: نعم، قال: فانظروا إليه أليس هو صحيح البدن؟ ولولا أنه فعل ذلك لوقع شر لا يقدر على دفعه، فلما قال: قد سلمته إليكم صحيح البدن هدأ الناس وسكتوا.

وقال ميمون بن الأصبغ: أخرج أحمد بعد أن اجتمعوا الناس وضجوا حتى خاف السلطان فخرج.

وقال بعضهم لما ضرب: يا أمير المؤمنين إضرب عنقه ودمه في رقبتي، فقال ابن أبي دؤاد: لا تفعل فإنه إن مات في دارك قال الناس: صبر حتى قتل واتخذوه إماماً وثبتوا على ما هم عليه ولكن أطلقه الساعة فإن مات خارجاً عنك شك الناس في أمره، فلما رأوه الناس صحيحاً هدأ ضجيجهم بعد أن كان خاف من شدة ضجيجهم.

وفي رواية كان ابن أبي دؤاد يحاول الخليفة على حبس أبي عبد الله وعدم إطلاقه ويقول: يا أمير المؤمنين إحبسه فإنه فتنة فغضب المعتصم وقال لنائبه: يا إسحاق أطلقه، قال أبو عبد الله: فلم يجد بدا من أن يخلي عني ولولا ذلك لكان قد حبسني.

وقال البيهقي: قال حنبل: وخلع عليه المعتصم مبطنة وقميصاً وطيلساناً وخفاً وقلنسوة وأخرج على دابة عند غروب الشمس فصار إلى منزله ومعه الناس، فدخل منزله ورمى بنفسه على وجهه وخلع ما

كان عليه خلع فأمر به فبيع وأخذ ثمنه فتصدق به، وبلغنا أن أبا إسحاق - يعني المعتصم - ندم وأسقط في يده وأمر إسحاق نائبه أن لا يقطع عنه خبره، قال: فكان إسحاق يأتينا كل يوم يتعرف خبره حتى صح وبرأ بعد العلاج وخرج للصلاة والحمد لله. وكانت مدة إقامة الإمام أحمد في الحبس والضرب ثمانية وعشرين شهراً. وفي رواية: مكث في السجن ثلاث سنين.

وكان ضربه في العشر الأواخر من رمضان فقام مقام الصديقين وأخرج في رمضان.

قال أبو عمرو المخزومي: كنت أطوف بالبيت بمكة مع سعيد بن منصور فإذا صوت من ورائي: ضرب أحمد بن حنبل اليوم، فجاء الخبر أنه ضرب.

وفي رواية: فقال لي سعيد بن منصور: أتسمع ما أسمع؟ فقلت: نعم، قال: فاعرف اليوم، قال: فجاء الخبر أنه ضرب ذلك اليوم.

وأما صبره: -

فقال بعض من كان مع أحمد: ما رأيت مثل أحمد، عطش يوماً فقال لصاحب الشراب: ناولني فناوله قدحاً فيه ماء وثلج فأخذه ونظر إليه ثم رده ولم يشرب وعجبت من صبره على الجوع والعطش مع ما هو فيه من الهول. قال صالح: وقد كنت [أحتال] إلي أن أوصل إليه طعاماً فلم أقدر، قال بعضهم: ولم أر أشجع منه ولا أشد قلباً فإنه مدة مناظرته لم يلحن في كلمة وفي رواية نحو ما تقدم، وذكر فيها صبره وقال فيها: ما نحن إلا أمثال الذباب وقال بعض الجلادين: لقد بطل أحمد الشطار، لقد ضربته ضرباً لو أوقعته ببعير لنقبت عن جوفه.

وقال آخر: لقد ضربته ثمانين سوطاً لو وقعت بفيل لهدته.

وفي رواية قال والسياط تنزل عليه: بك استغيث يا جبار السموات والأرض.

وروي أن رجلاً رأى أحمد بعدما ضرب فقال: رأيت من ضرب ألف سوط فما رأيت مثل هذا، ثم أخذ الميل فأدخله في بعض تلك الجراحات وكان هذا الرجل يعالجه، ثم أن أثر الضرب بقي بيناً بظهره إلى أن مات رحمه الله.

وقال: وددت أني أنجو من هذا الأمر لا علي ولا لي.

وروي أن أحمد كان كثيراً ما يقول: رحم الله أبا الهيثم وأكثر من ذلك، فسئل عنه فقال: رجل كان يتحدث وقد قدمت إلى الضرب، فقال لي: أنا أبو الهيثم العيار اللص الطرار مكتوب في ديوان أمير المؤمنين أني ضربت ثمانية عشر ألف سوط وإنما ضربت على طاعة الشيطان لأجل الدنيا فاصبر أنت في طاعة الرحمن لأجل الدين.

ولما انقضى ضربه قيل له: أدع على من ظلمك، فقال: ليس بصابر من دعا.

وروي أن الواثق أرسل إليه يقول له: إجعل المعتصم في حل، فقال: ما خرجت من داره حتى جعلته في حل.

وروي بطرق عديدة أنه جعل الجميع في حل.

وتلقى المشايخ أحمد بن حنبل بعد المحنة وجاءوا إليه للسلام.

قال مهنى: رأيت يعقوب بن إبراهيم بن سعد يقبل جبهة أحمد بن حنبل حين خرج من الحبس.

ورأيته ودخل عليه الحسن بن عبد العزيز والحارث بن مسكين فقال لهما: ضربت فسقطت وابن أبي دؤاد يقول: يا أمير المؤمنين هو والله ضال مضل، فقال له الحارث: إنه يروى أن مالك بن أنس قال: إن الزهري سعى به حتى ضرب بالسياط، فقيل لمالك: نعم وعلقت كتفه في عنقه، فقال مالك: وقد ضرب سعيد بن المسيب وحلق رأسه ولحيته وضرب أبو الزناد بالسياط وضرب محمد بن المنكدر وأصحابه، وقال عمر بن عبد العزيز: لا تغبطوا أحداً لم يصبه في هذا الأمر

أذى، قال: وما ذكر مالك نفسه، فأعجب أحمد بقول الحارث. وعاده يحيى بن معين فلم يكلمه وولاه ظهره فقام عنه وقال: بعد الصحبة الطويلة.

وروي أنه اعتذر: «إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان» فلم يجبه أحمد، ثم أنه قال: ما قال أحمد بعد خروجي؟ فقيل له: إنه قال يحتج يحيى بحديث عمار «مررت بهم وهم يسبونك فنهيتهم فضربوني» وأنتم قيل لكم نضربكم، فقال: غفر الله لأحمد والله ما تحت السماء أفقه في دين الله منه. والله سبحانه أعلم.

فائدة: ـ

جاء عن الإمام أحمد في القرآن روايات فقال في بعضها: من لم يقل القرآن كلام الله غير مخلوق فهو كافر لا تشكن في كفره، فمن لم يقل ذلك فهو يقول مخلوق.

وقال: من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي.

وقيل له: إن الكرابيسي يقول: لفظي بالقرآن مخلوق، فقال: كذب الخبيث هتكه الله، قد خلف هذا بشر المريسي.

وسئل عن من يقول: لفظي بالقرآن مخلوق، فقال: جهمي.

وفي أخرى فقال: ك ف ر مقطعة، وهذا لو سلم فكله محمول على التشديد سداً للذريعة وحسماً للمادة وإلا فقد قال الحافظ ابن رجب: الصحيح الصريح عن أحمد أنه كان يبدع من يقول بأن اللفظ بالقرآن غير مخلوق.

وقال صالح بن أحمد: قيل لي إن أبا طالب يحكي عن أبيك أنه يقول لفظي بالقرآن غير مخلوق فأخبرت أبي بذلك فقال: من أخبرك؟ فقلت: فلان فقال: إبعث إلى أبي طالب يحضر وجاء بوران فقال له: أنا قلت لفظي بالقرآن غير مخلوق؟ وغضب وجعل يرعد

فقال: قرأت عليك قل هو الله أحد، فقلت: ليس هذا بمخلوق فقال له: فلم حكيت عني أني قلت لك: لفظي بالقرآن غير مخلوق وبلغني أنك وضعت ذلك في كتاب وبعثت به إلى قوم فإن كان كذلك فامحه أشد المحو واكتب إلى القوم الذين كتبت إليهم أني لم أقله لك فجعل بوران يعتذر إليه وانصرف من عنده وهو مرعوب فذكر أبو طالب أنه حكه من كتابه وكتب إلى القوم يخبرهم أنه وهم على أبي في الحكاية. والله أعلم.

فصل
في محنة الواثق بن المعتصم

روى الأئمة أنه لما مات المعتصم وولي ابنه هارون الواثق أكثر الناس من الأخذ عن الإمام أحمد وانبسط في التحديث بعد موته بالكوفة، فشق ذلك على أهل البدع، فكتب الحسن بن علي بن الجعدي قاضي بغداد إلى ابن أبي دؤاد أن أحمد بن حنبل قد انبسط في الحديث، فلما بلغ أبا عبد الله أحمد بن حنبل أمسك عن التحديث من نفسه من غير أن يمنع واستمر ابن أبي دؤاد يحسن للواثق امتحان الناس بخلق القرآن ففعل ذلك وامتحن الناس وحملهم على القول بخلق القرآن لكنه لم يتعرض للإمام أحمد.

قال الحافظ ابن الجوزي: إما لما علم من صبره أو لأنه خاف على نفسه أن يعرض له شيء ببركته ـ يعني كما عرض لأبيه ـ إلا أنه أرسل إلى أحمد بن حنبل يقول له: لا تجمعن إليك أحداً ولا تساكني في بلد أنا فيه فأقام أحمد مختفياً حتى مات الواثق وكانت مدة ولاية الواثق خمس سنين وشهرين.

وروى الأئمة أن الواثق امتحن قوماً ممن الأئمة فمنهم من أجاب خوفاً وتقية ومنهم من امتنع كأحمد بن نصر الخزاعي ونعيم بن حماد وأبو نعيم الفضل بن دكين والبويطي صاحب الشافعي.

فأما أحمد[1] بن نصر فكان من أهل الدين والصلاح والأمارين بالمعروف، سمع الحديث من مالك بن أنس وغيره وروى عنه يحيى بن معين وغيره، دعاه الواثق إلى القول بخلق القرآن فأبى، فأمر بضرب عنقه فضرب وحمل رأسه إلى بغداد فنصب في الجانب الشرقي أياماً وفي الجانب الغربي أياماً.

قال إبراهيم بن إسماعيل: كان أحمد بن نصر خلي فلما قتل في المحنة وصلب رأسه أخبرت أن الرأس يقرأ القرآن فمضيت فبت بقرب من الرأس وكان ثم من يحفظه فلما هدأت العيون سمعت الرأس يقرأ القرآن: ﴿الٓمٓ ① أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ فاقشعر جلدي ثم رأيته بعد ذلك في المنام وعليه السندس والاستبرق وعلى رأسه تاج، فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي وأدخلني الجنة.

وقال في حقه الإمام أحمد: رحمه الله ما كان أسخاه لقد جاد بنفسه.

وأما نعيم بن حماد[2] فكان من أهل مرو وطلب الكثير من الحديث بالحجاز والعراق ثم نزل مصر ثم أشخص منها في خلافة الواثق فسئل عن القرآن فلم يوافقهم على ما أرادوه منه من القول بخلق القرآن فحبس حتى مات.

---

(١) قال الذهبي: الإمام الكبير الشهيد أبو عبد الله أحمد بن نصر بن مالك الخزاعي المروزي ثم البغدادي، كان أماراً بالمعروف قوالاً بالحق روى له أبو داود ت ٢٣١هـ.

سير أعلام النبلاء ١١/١٦٦ (٧٠) تهذيب الكمال ١/٥٠٥ (١١٩).

(٢) قال الذهبي: نعيم بن حماد بن معاوية الإمام العلامة الحافظ أبو عبد الله الخزاعي المروزي الفرضي الأعور صاحب التصانيف روى له البخاري وأبو داود والترمذي وابن ماجه ت ٢٢٨هـ.

سير أعلام النبلاء ١٠/٥٩٥ (٢٠٩) تهذيب الكمال ٢٩/٤٦٦ (٦٤٥١).

وأما أبو نعيم الفضل[1] بن دكين فروى الحافظ أبو الفرج بسنده إلى محمد بن أحمد بن عمر بن عيسى قال: سمعت أبي يقول: ما رأيت مجلساً أنبل من مجلس اجتمع فيه المشايخ بجامع الكوفة في وقت الامتحان فقرىء عليهم الكتاب الذي فيه المحنة، فقال أبو نعيم: أدركت ثمان مائة شيخ ونيفاً وسبعين شيخاً فمنهم الأعمش فمن دونه ما رأيت أحداً يقول بهذه المقالة - يعني بخلق القرآن - ولا تكلم به أحد إلا رمي بالزندقة فقام أحمد بن يونس فقبل رأس أبي نعيم وقال له: جزاك الله خيراً عن الإسلام.

وقال أبو بكر بن أبي شيبة: لما جاءت المحنة إلى الكوفة قال لي أحمد بن يونس: إلق أبا نعيم فقل له: فلقيته فقلت له، فقال: إنما هو ضرب الأسياط، ثم أخذ زر ثوبه وقال: رأسي أهون علي من هذا.

وأما البويطي صاحب الشافعي فأريد منه القول بخلق القرآن فامتنع فحبس إلى أن مات سنة اثنتين وثلاثين ومائتين.

قال الربيع بن سليمان: رأيت البويطي على بغل في عنقه غل وفي رجليه قيد وبين الغل والقيد سلسلة حديد فيها طوبة وزنها أربعون رطلاً وهو يقول: إنما خلق الله الخلق «بكن» فإذا كانت «كن» مخلوقة فكأن مخلوقاً خلق مخلوقاً، والله لأموتن في حديدي هذا حتى يأتي من بعدي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم، ولئن دخلت عليه - يعني الواثق - لأصدقنه.

---

(١) قال الذهبي: أبو نعيم الفضل بن دكين الحافظ الكبير شيخ الإسلام التيمي الطلحي القرشي مولاهم الكوفي، كان من أئمة هذا الشأن وأثباتهم روى له الجماعة ت ٢١٩هـ.

سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٤٢ (٢١) تهذيب الكمال ٢٣/ ١٩٧ (٤٧٣٢).

وممن لم يجب بخلق القرآن الحارث[1] بن مسكين فلم يزل محبوساً حتى أطلقه المتوكل وكان رجلاً مالكي المذهب ثبتاً.

ومنهم عبد الأعلى[2] بن مسهر أبى أن يقول القرآن مخلوق فلما قدم لضرب العنق قال: مخلوق، فقال له: أما أنك لو قلت ذلك قبل لقبلت منك ولكن تخرج فتقول: خفت فأمر بحبسه فمات مسجوناً رحمة الله عليهم أجمعين.

وأعرضنا عن ذكر جماعة من الأعيان ممن أجاب في الظاهر دون الباطن تنزيهاً لمقامهم عن الشين مع أن إجابتهم محمولة على أنهم كانوا مكرهين، ومع ذلك فالمقصود في الإجابة إنما هو الإمام أحمد لأنه إمامهم الأعظم.

وروي أن المتوكل[3] في أيام خلافته جلس يوماً للخاصة ثم قام فدخل بيتاً له من قوارير سقفه وحيطانه وأرضه وقد أجري فيها الماء، والماء يعلو عليه يخيل إلى من داخله كأنه في جوف الماء وفرش له فراش عظيم وجلس عن يمينه وشماله خواص جماعته ثم ضحك المتوكل، فقالوا: مم ضحك أمير المؤمنين أضحك الله سنه؟ فقال: أضحكني أني ذات يوم واقف على رأس الواثق إذ قام من مجلسه فجلس في مجلسي هذا فرمت الدخول فمنعت ووقفت حيث الخادم

---

(١) قال الذهبي: الحارث بن مسكين بن محمد بن يوسف الإمام العلامة الفقيه المحدث الثبت قاضي القضاة بمصر أبو عمرو الأموي مولاهم المصري وكان مع تقدمه في العلم والزهد والتأله قوالاً بالحق من قضاة العدل رحمه الله تعالى. روى له أبو داود والنسائي ت ٢٥٠هـ.
سير أعلام النبلاء ١٢/ ٥٤ (١٢)، تهذيب الكمال ٥/ ٢٨١ (١٠٤٤).

(٢) قال الذهبي: عبد الأعلى بن مسهر بن عبد الأعلى الإمام شيخ الشام أبو مسهر بن أبي ذرامة الغساني الدمشقي الفقيه، كان من أوعية العلم روى له الجماعة ت ٢١٨هـ.
سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٢٨ (٦٠) تهذيب الكمال ١٦/ ٣٦٩ (٣٦٩١).

(٣) جاء في الهامش ـ قف إلى آخره واعتبر واسأل الله العافية.

واقف وجلس عن يمينه وشماله ابن أبي دؤاد ومحمد بن عبد الملك الزيات وإسحاق بن إبراهيم فبينما هم كذلك إذ قال الواثق: والله لقد فكرت فيما دعوت الناس إليه وسرعة إجابة من أجابنا وشدة خلاف من خالفنا حتى حملنا [على] من خالفنا السوط والسيف والضرب الشديد والحبس الطويل ولا يردعه ذلك ولا يرده إلى قولنا، فوجدت من أجابنا رغب فيما في أيدينا فأسرع في إجابتنا رغبة منه فيما عندنا ووجدت من خالفنا منعه دين وورع عن إجابتنا وصبر على ما يناله من القتل والضرب والحبس فوالله لقد دخل قلبي من ذلك أمر شككت فيما نحن فيه حتى هممت بترك ذلك ولقد هممت أن آمر بالنداء في ذلك وأكف الناس بعضهم عن بعض، فبدأ ابن أبي دؤاد وقال: الله، الله يا أمير المؤمنين أن تميت سنة قد أحييتها وأن تبدل دينا قد أقمته ولقد جهد الأسلاف فما بلغوا فيه ما بلغت فجزاك الله عن الإسلام والدين خير ما جزى ولياً عن أوليائه، ثم أطرقوا رؤوسهم ساعة يتفكرون في ذلك إذ بدأ ابن أبي دؤاد فقال: والله يا أمير المؤمنين إن هذا القول الذي نحن فيه لهو الدين الذي ارتضاه الله لأوليائه ورسله وبعث به نبيه محمداً ﷺ، ولكن الناس عموا عن قبوله، فقال الواثق: أريد أن تباهلوني على ذلك.

فقال ابن أبي دؤاد عن نفسه: ضربه الله بالفالج في دار الدنيا قبل الآخرة إن لم يكن ما يقول أمير المؤمنين حقاً من أن القرآن مخلوق.

وقال محمد بن عبد الملك الزيات عن نفسه: سمر الله يديه بمسامير من حديد في دار الدنيا قبل الآخرة إن لم يكن ما يقول أمير المؤمنين حقاً بأن القرآن مخلوق.

وقال إسحاق بن إبراهيم عن نفسه: أنتن الله ريحه في دار الدنيا قبل الآخرة حتى يهرب منه قريب وحميم إن لم يكن ما يقول أمير المؤمنين حقاً من أن القرآن مخلوق.

وقال نجاح عن نفسه: قتله الله في أضيق محبس إن لم يكن ما

يقول أمير المؤمنين حقاً من أن القرآن مخلوق.

ودخل عليهم تياخ وهم في ذلك فأخذوه على البديهة وسألوه عن ذلك فقال عن نفسه: غرقه الله في البحر إن لم يكن ما يقول أمير المؤمنين حقاً من أن القرآن مخلوق.

فثبت الواثق على ما كان عليه من موافقتهم وقال عند ذلك عن نفسه: أحرق بدنه بالنار في دار الدنيا قبل الآخرة إن لم يكن ما يقول أمير المؤمنين حقاً من أن القرآن مخلوق.

قال الخليفة المتوكل على الله: فأنا أضحك من أجل أنه لم يدع أحد منهم على نفسه بدعوة إلا استجيبت فيه.

أما ابن أبي دؤاد فقد رأيتم ما ضربه الله به من الفالج.

وأما ابن الزيات فأنا أقعدته في تنور من حديد وسمرت يديه بمسامير من حديد.

وأما إسحاق[1] بن إبراهيم فإنه مرض مرضه الذي مات فيه فأقبل يعرق عرقاً منتناً حتى هرب منه الحميم والقريب وكان يلقى عليه كل يوم عشرون غلالة فتؤخذ منه وهي مثل الجيفة فيرمى بها في دجلة لا ينتفع بها من شدة النتن والعرق.

وأما نجاح فأنا بنيت عليه بيتاً ذراعاً في ذراعين حتى مات فيه.

وأما تياخ فأنا كتبت إلى إسحاق بن إبراهيم أن كبله بالحديد وغرقه.

وأما الواثق فابتلي بداء لكثرة جماعه فأمره الأطباء بالجلوس في التنور فسجر له بحطب الزيتون ثم أخرج ما فيه وجعل على ظهره فأقبل يصيح ويستغيث فسقط بدنه كله وصار فيه نفاخات مثل أكبر البطيخ فترك على حاله حتى مضت ثلاث ساعات من النهار ثم أخرج

---

(١) جاء في الهامش ـ نسأل الله العافية.

وقد كاد يحترق أو يقول القائل في رأي العين قد احترق فأجلسه المتطببون فلما وجد روح الهواء اشتد به الوجع وأقبل يصيح ويخور خوران الثور ويقول: ردوني إلى التنور فإني إن لم أرد مت والأطباء تمنع من ذلك فاجتمع نساؤه وخواصه لما رأوا به من كثرة الألم والصياح ورجوا أن يكون فرجه في الرد إلى التنور فردوه فلما وجد مس النار سكن صياحه وتفطرت النفاخات التي خرجت ببدنه وخمدت وبرد في جوف التنور فأخرج وقد احترق وصار أسود كالفحم فلم تمض ساعة حتى قضي عليه، فأنا أتعجب من أنه لم يدع منهم أحد على نفسه في تلك الساعة بدعاء إلا استجاب الله له في نفسه.

قلت: ـ

وإنما ذكرت هذه الحكاية لما فيها من الكرامة للإمام أحمد بن حنبل فإن أولئك الجماعة كانوا ممن يؤذيه ويكرهه ويبغي عليه.

قال محمد بن فضيل: تناولت مرة أحمد بن حنبل فحصل لي في لساني ألم لم استطع معه القرار فأتاني في بعض الليالي آت في المنام فقال لي: هذا بتناولك الرجل الصالح وكرر علي فانتبهت فلم أزل أتوب إلى الله تعالى مما قلت حتى سكن ما بي.

قال عمران بن موسى: دخلت على الجلاد الذي جلد أحمد بن حنبل لأنظر إليه فمكث خمسة وأربعين يوماً ينبح كما تنبح الكلاب.

قال الحافظ أبو الفرج: ويروى أن الواثق ترك امتحان الناس بسبب مناظرة جرت بين يديه، ثم ذكر أبو الفرج بسنده إلى طاهر بن خلف قال: سمعت المهتدي بالله محمد بن الواثق يقول: كان أبي إذا أراد أن يقتل رجلاً أحضرنا ذلك المجلس فدعانا يوماً وقد أتي بشيخ مقيد ثم أنه استحضر ابن أبي دؤاد وأصحابه ثم طلب الشيخ فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال له الخليفة: لا سلم الله عليك، فقال: يا أمير المؤمنين بئس ما أدبك مؤدبك قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا

حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ ﴾ والله ما حييتني بها ولا بأحسن منها، فقال ابن أبي دؤاد: يا أمير المؤمنين الرجل متكلم، فقال له: كلمه، فقال: يا شيخ: ما تقول في القرآن؟ فقال له الشيخ: لم تنصفني ولني السؤال، فقال: سل، فقال له الشيخ: ما تقول في القرآن؟ قال: مخلوق، فقال: هذا شيء علمه النبي ﷺ، وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي والخلفاء الراشدون أم شيء لم يعلموه؟ فقال: شيء لم يعلموه؟ فقال: سبحان الله شيء لم يعلمه النبي ﷺ، ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا الخلفاء الراشدون علمته أنت؟ قال: فخجل، فقال: أقلني، قال: والمسألة بحالها، قال: نعم، قال: ما تقول في القرآن؟ فقال: مخلوق، فقال: شيء علمه النبي ﷺ والخلفاء الراشدون أم لم يعلموه؟ فقال: علموه ولم يدعوا الناس إليه، فقال: أفلا وسعك ما وسعهم، قال: ثم قام أبي فدخل مجلس الخلوة واستلقى على قفاه ووضع إحدى رجليه على الأخرى وهو يقول: هذا شيء لم يعلمه النبي ﷺ، ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا الخلفاء الراشدون وعلمته أنت!! سبحان الله شيء علمه النبي ﷺ، والخلفاء الراشدون ولم يدعوا الناس إليه أفلا وسعك ما وسعهم، ثم دعا عمار الحاجب فأمر أن يرفع عنه القيود ويعطيه أربعمائة دينار ويأذن له في الرجوع وسقط من عينه ابن أبي دؤاد ولم يمتحن بعد ذلك أحداً.

وفي رواية أخرى: أن الواثق قال له: يا شيخ ناظر ابن أبي دؤاد، فقال: يا أمير المؤمنين ابن أبي دؤاد يصبأ ويضعف عن المناظرة فغضب الواثق عليه وقال: عن مناظرتك أنت، فقال الشيخ: هون عليك يا أمير المؤمنين ما بك واذن له في مناظرتي، فقال: ولذلك دعوتك، فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين تحفظ علي ما أقوله وعليه ما يقوله، فقال: أفعل، فقال الشيخ لابن أبي دؤاد: يا أحمد أخبرني هل مقالتك هذه واجبة بحيث لا يكمل الدين إلا بها؟ فقال: نعم، فقال الشيخ: أخبرني عن رسول الله ﷺ هل ستر عن أمته شيئاً يجب

عليهم؟ فقال: لا، فقال الشيخ: فدعا النبي ﷺ، الأمة إلى مقالتك هذه؟ فسكت، فقال الشيخ: تكلم، فسكت فالتفت الشيخ إلى الواثق وقال: يا أمير المؤمنين واحدة، فقال الواثق: واحدة، فقال الشيخ: أخبرني يا أحمد حين أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ هل الله تعالى هو الصادق في إكمال دينه أم أنت الصادق في نقصانه حتى يقال فيه بمقالتك هذه، فسكت، فقال: أجب فلم يجب، فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين: ثنتان، فقال الواثق: ثنتان، فقال الشيخ: يا أحمد أخبرني عن مقالتك هذه علمها رسول الله ﷺ، أم جهلها؟ قال: علمها، قال: فدعى الناس إليها؟ فسكت ولم يجب، فقال الشيخ: ثلاث، فقال الواثق: ثلاث، ثم قال الشيخ: فأخبرني يا أحمد فاتسع لرسول الله ﷺ، أن علمها وأمسك عنها كما زعمت ولم يطالب أمته؟ قال: نعم، قال الشيخ: واتسع لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ـ رضي الله عنهم ـ؟ قال: نعم، فأعرض الشيخ حينئذٍ عن ابن أبي دؤاد وأقبل على أمير المؤمنين وقال[1]: ألم أقل لأمير المؤمنين أنه يصبأ ويضعف عن المناظرة، يا أمير المؤمنين إن لم يتسع لنا من الإمساك عن هذه المقالة بما زعم هذا أنه أتسع لرسول الله ﷺ، ولأبي بكر وعمر وعثمان وعلي فلا وسع الله على من لا يتسع له ما اتسع لهم، فقال الواثق: نعم إن لم يتسع لنا ما اتسع لهم فلا وسع الله علينا، إقطعوا قيد الشيخ فلما قطع عنه أهوى ليأخذه فجاذبه الحداد، فقال [الواثق]: دع الشيخ يأخذه فوضعه في كمه وقال للواثق: نويت أن أوصي أن يجعل هذا القيد في كفني أخاصم به هذا الظالم عند الله وأقول: سل عبدك لم قيدني وروع أهلي؟ ثم بكى الشيخ وبكى الواثق.

وقال محمد بن الواثق: وبكينا معه، ثم سأله الواثق أن يجعله في حل، فقال: والله يا أمير المؤمنين لقد جعلتك في حل من أول

(١) جاء في الهامش ـ قف على هذه المناظرة العجيبة من أول... إلخ.

يوم إكراماً لرسول الله ﷺ، فقال الواثق: لي إليك حاجة، فقال: إن كانت ممكنة، فقال: تقيم عندي ننتفع بك وتنتفع بنا، فقال الشيخ: إن ردك إياي إلى الموضع الذي أخرجني منه هذا الظالم أنفع لك من مقامي، وأخبرك بما في ذلك، أصير إلى أهلي وولدي فأكف عنك دعاءهم فقد خلفتهم على ذلك، قال الواثق: فتقبل صلة تستعين بها على دهرك فقال: لا يحل لي وأنا غني عنها، فقال له: سل حاجتك، فقال الشيخ: أو تقضيها يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، قال: تأذن لي أن يخلى لي السبيل الساعة، فقال: أذنت، فسلم وخرج.

وذكر أن الواثق وولده رجعا من يومئذٍ عن تلك المقالة.

وذكر أن الشيخ كان أبا عبد الرحمن عبد الله بن محمد بن إسحاق. والله سبحانه أعلم.

فصل

فيما جرى للإمام أحمد بن حنبل
مع المتوكل على الله ابن المعتصم

قال الحافظ أبو الفرج: ولي المتوكل على الله سنة اثنتين وثلاثين ومائتين فأظهر الله به السنه وكشف تلك الغمة فشكره الناس على ما فعل وأجرى على الإمام أحمد في كل شهر أربعة الآف درهم فلم يرض أحمد بذلك.

وقال علي بن الجهم: وجه إلي المتوكل فقال لي: رأيت النبي ﷺ، في المنام فقمت إليه فقال: تقوم إلي وأنت خليفة، فقلت له: أبشر يا أمير المؤمنين أما قيامك إليه فقيامك بالسنة وقد عدك من الخلفاء.

وكان إبراهيم بن محمد التيمي قاضي البصرة يقول: الخلفاء ثلاثة أبو بكر الصديق قاتل أهل الردة وعمر بن عبد العزيز رد مظالم بني أمية والمتوكل محى البدع وأظهر السنة.

ثم إن المتوكل أشخص إليه الفقهاء والمحدثين فقسمت فيهم الجوائز وأمرهم أن يجلسوا للناس وأمرهم بالتحديث فيما فيه رد على المعتزلة والجهمية وأن يحدثوا بأحاديث الرؤية فجلس عثمان بن أبي شيبة ووضع له منبر واجتمع عليه نحو من ثلاثين ألف، وجلس أبو بكر بن أبي شيبة في مسجد الرصافة واجتمع عليه نحو من ثلاثين ألف.

ورؤي المتوكل في النوم بعد موته فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بقليل من السنة أحييته.

وأنشد أبو جعفر الخواص بعد زوال المحنة فقال:

ذهبت دولة أصحاب البدع ... ووهى حبلهم ثم انقطع
وتداعى بانصرام جمعهم ... حزب إبليس الذي كان جمع
هل لهم يا قوم في بدعتهم ... من فقيه أو إمام متبع
مثل سفيان أخي الثوري الذي ... علم الناس دقيقات الورع
أو سليمان أخي التيم الذي ... ترك النوم لهول المطلع
أو فقيه الحرمين مالك ... ذلك البحر الغزير المنتجع
أو فتى الإسلام أعني أحمد ... ذاك لو قارعه القراء قرع
لم يخف سوطهم إذ خوفوا ... لا ولا سيفهم لما لمع

وذكر البيهقي: أنه رفع رجل إلى أمير المؤمنين المتوكل على الله قصة أن أحمد بن حنبل يشتم آباءك وينسبهم إلى الزندقة، قال: فوقع المتوكل فيها: أما المأمون فإنه خلط وأوجد للمقال على نفسه سبيلاً وأما أبو إسحاق المعتصم فإنه كان صاحب حرب ولم يكن له بصر بالكلام وأما أخي هارون - يعني الواثق - فإنه استحق ما قيل فيه، يضرب هذا الرجل - يعني الذي رفع القصة - مائتي سوط، قال: فجرده خليفته بالباب وهو عبد الله بن إسحاق بن إبراهيم وضربه خمسمائة سوط فرفع الخبر إلى المتوكل فدعاه وقال له: أمرتك أن

تضرب رجلاً مائتي سوط فلم ضربته خمسمائة سوط؟ قال: يا أمير المؤمنين ضربته مائتي سوط لطاعة أمير المؤمنين ومائتي سوط ابتغاء مرضاة الله ومائة سوط لما تكلم في ذلك الشيخ الصالح أحمد بن حنبل.

وقال بعض أعداء الإمام أحمد للمتوكل: إن أحمد لا يأكل من طعامك ولا يجلس على فراشك ويحرم هذا الشراب الذي تشرب، فقال في الجواب: لو نشر المعتصم ـ يعني أباه ـ وقال فيه شيئاً لم أقبله.

وقال صالح بن الإمام أحمد: قبض الخليفة ـ يعني المتوكل ـ على ابن أبي دؤاد وأرسل يقول لأبي: ما تقول في ابن أبي دؤاد وفي ماله؟ فلا يجيب في ذلك شيئاً، ثم أحدر ابن أبي دؤاد إلى بغداد بعد أن أشهد عليه ببيع ضياعه.

ثم إن المتوكل في سنة سبع وثلاثين ومائتين بعد مضي خمس سنين من ولايته بعث يطلب زيارة أبي عبد الله أحمد بن حنبل، قال صالح: فوجه المتوكل إلى إسحاق بن إبراهيم يأمر بحمل أبي إليه، فقال إسحاق لأبي: إن أمير المؤمنين يأمرني بإشخاصك إليه فتأهب لذلك، ثم قال إسحاق لأبي عبد الله: إجعلني في حل من حضوري ضربك، فقال له: قد جعلت كل من حضر في حل.

ثم لم يزل أحمد يدعو الله في عدم توجهه للخليفة فورد إليه الاذن بالرجوع فأمر برده من بعض الطريق.

ثم سعى في أحمد عند المتوكل أن عنده علوياً من طلبة أمير المؤمنين فلما لم يجده عنده أعرض عن كلام العامة.

وورد على أحمد كتاب فيه أن أمير المؤمنين قد وجه إليك بجائزة وأمرك بالقبول فالله، الله أن ترد المال فيتسع القول لمن يبغضك فلما وردت إليه لم ينظر إليها ثم قال لولده: خذها عندك فلما أصبح بكى وقال: سلمت منهم حتى إذا كان آخر عمري بليت بهم، ثم إنه

فرق جميع الجائزة ولم يبق منها شيئاً.

قال صالح: ثم سرنا وقد طلب المتوكل أبي ليزوره فلما وصلنا إلى العسكر أرسل الرسول لأمير المؤمنين يعلمه بقدومنا فجاء علي بن الجهم وقال لي: قد أمر لكم أمير المؤمنين بعشرة الآف مكان الذي فرقها أبوك وأمر أن لا تعلمه بذلك، ثم جاء رسول الخليفة فقال: إن أمير المؤمنين يكثر ذكرك ويشتهي قربك، ثم جاء إليه يحيى بن خاقان فقال: أمرني أمير المؤمنين أن أقطع لك سواداً وطيلساناً وقلنسوة ويصيرك في أعلى المراتب ويصير ولده أبا عبد الله في حجرك ثم أركب أبو عبد الله إلى دار ولد الخليفة ثم جاء إليه يحيى فقال: إن أمير المؤمنين جاء بك ليتبرك بك ويصير ابنه في حجرك.

قال صالح: وأخبرني بعض الخدام أن المتوكل كان قاعداً من وراء الستر فلما دخل أبي الدار قال المتوكل لأمه: يا أماه قد أنارت الدار ثم جاء خادم بمنديل فيه كسوة لأحمد فألبسه إياها فلما انصرف أحمد نزع الثياب عنه وجعل يبكي ويقول: سلمت من هؤلاء منذ ستين سنة حتى إذا كان آخر عمري بليت بهم، ما أحسبني سلمت من دخولي على هذا الغلام ـ يعني ابن الخليفة ـ فكيف بمن يجب علي نصحه أول وقوع عيني عليه.

وطلب منه المتوكل أن يجعل له يوماً في الجمعة للزيارة وقال له: إن لي ولداً وأنا معجب به فأحب أن تحدثه فأبى أحمد ذلك.

قال أبو الحسين ابن المنادي: امتنع الإمام أحمد من الحديث قبل أن يموت بنحو ثمان سنين وذلك أن المتوكل وجه إليه يقرأ عليه السلام ويسأله أن يجعل المعتز في حجره ويعلمه العلم، فقال للرسول: إقرأ على أمير المؤمنين السلام وأعلمه أن علي يميناً مقفلة أني لم أتم حديثاً حتى أموت وقد كان أمير المؤمنين أعفاني مما أكره وهذا مما أكره فقام الرسول من عنده.

قال المروزي: سمعت أبا عبد الله يقول: إني لأتمنى الموت

صباحاً ومساءاً أخاف أن أفتن بالدنيا، لقد تفكرت البارحة فقلت: هذه محنتان أحدهما بالدين وكنت في السجن وكل ذلك عندي زيادة في إيماني وهذه محنة بالدنيا وهي فتنة فيه - يعني في الدين - ثم إن المتوكل بعث إليه ألف دينار فردها وقال: قد أعفاني أمير المؤمنين، فقيل له: وما عليك لو قبلت الدنيا وقسمتها، فقال: وماذا أكون؟ أكون قهرماناً له، ثم أنهم كتبوا إلى المتوكل: هذا رجل زاهد لا ينتفع به.

وقال المروزي أيضاً: سمعت إسحاق بن حنبل عم أحمد ونحن بالعسكر يناشده ويسأله الدخول على الخليفة ليأمره وينهاه، وقال: إنه يقبل كلامك، هذا إسحاق بن راهويه يدخل على ابن طاهر فيأمره وينهاه، فقال له أحمد: تحتج علي بإسحاق وأنا غير راض بفعله، ماله في رؤيتي خير ولا لي في رؤيته خير، يجب علي إذا رأيته أن آمره وأنهاه، الدنو منه فتنة، نحن متباعدون منهم ما أرانا نسلم فكيف لو قربنا منهم.

قال صالح: وكان إذا أتى رسول المتوكل يبلغ أبي السلام نسر نحن بذلك وتأخذه هو نفضة حتى ندثره ثم يقول: والله لو أن نفسي في يدي لأرسلتها ويضم أصابعه ثم يفتحها.

ولما قبل عمه وولده صلة السلطان هجرهم وامتنع من أكل طعامهم ومؤاكلتهم بعد أن كان يأتيهم ويأكل من طعامهم ولم يقبل عذر من اعتذر إليه منهم بالفقر وأغلظ في الكلام لعمه وقال له: كيف تخالفني إلى ما أنهاك عنه ثم أنه ترك الصلاة خلفه، ثم [أن] صالحاً دخل عليه فقال: يا أبت قد طال هذا الأمر وتدخل على نفسك هذا الغم ثم مكثوا مدة لا يأخذون شيئاً ثم كتب لهم شيء فقبضوه فلما بلغه هجرهم شهراً فكلم في ذلك فقال: أردت لهم ما أردت لنفسي، فقال له ولده: ومن يقدر على ما تقدر أنت عليه؟ فقال: وتحتج علي، فلما سمع المتوكل قال: يحمل إلى ولد أحمد الساعة أربعون ألف درهم صحاح من بيت المال ولا يعلم أحمد بها فأخبره صالح بذلك

فسكت قليلاً وضرب بيده صدره وقال: ما حيلتي أردت أمراً وأراد الله خلافه.

وقال المتوكل: إنه يمنعنا من بر أهله.

وكان يقول: كيف يقبلوها والفيء غير مقسوم والثغور معطلة.

وأخباره في مثل هذا مما يطول ذكرها ـ رحمه الله تعالى ـ.

فصل
في وفاة احمد بن حنبل

قال أهل التاريخ: لما استكملت لأحمد سبع وسبعون سنة ودخل الثامنة حُمّ في أول يوم من شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائتين.

قال ابنه صالح: فدخلت عليه وهو محموم فتنفس نفساً شديداً فقلت: على ما أفطرت البارحة؟ فقال: على ماء باقلاء، ثم أراد القيام فقال: خذ بيدي فأخذت بيده فلما صار إلى الخلاء ضعفت رجلاه حتى توكأ علي وكان يختلف عليه غير متطبب كلهم مسلمون، وبال دماً عبيطاً فقال الطبيب: هذا رجل فتت الحزن والغم جوفه.

واستأذنه ابنه في ادخال الناس عليه للعيادة فأذن، فجعل الناس يدخلون عليه أفواجاً أفواجاً وقال له رجل: إني قد حضرت ضربك يوم الدار فإن شئت فها أنا بين يديك فاقتص مني وإن شئت جعلتني في حل، فقال: تتوب أن لا تعود، فقال: نعم، فقال: قد حللتك ثم أنه بكى وأبكى من حضر من الناس.

وكان له خريقة فيها قطيعات فنظرها ولده فإذا فيها درهم فأخبره، فقال: وجه إلى بعض السكان فاقبض منه دراهم واشتر تمراً وكفر عني كفارة يمين فاشتريت وكفرت وأخبرته، فقال: الحمد لله وقال لولده أحضر الوصية وأقرأها وكان كتبها قبل ذلك وإذا فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا ما أوصى به أحمد بن محمد بن حنبل، أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وأوصى من أطاعه من أهله وأقاربه أن يعبدوا الله في العابدين وأن يحمدوه في الحامدين وأن ينصحوا لجماعة المسلمين، وأوصى أني رضيت بالله عز وجل رباً وبالاسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، وأوصى أن لعبد الله بن محمد المعروف ببوران علي نحواً من خمسين ديناراً وهو مصدق فيما قال فيقضى ماله علي من غلة الدار إن شاء الله فإذا استوفى أعطي ولد صالح وعبد الله كل ذكر وأنثى عشرة دراهم، عشرة دراهم، شهد أبو يوسف وصالح وعبد الله ابنا أحمد بن محمد بن حنبل».

ولما اشتد به المرض كثر الناس عليه حتى ملئوا السكك والشوارع فوجه السلطان إليه الرابطة ووكل ببابه من يمنع عنه خشية الإضرار به وزاد الناس كثرة بالأسواق والطرقات حتى تعطل على كثير من الناس بيعهم وشراؤهم وكان بعضهم ربما تسلق وجاءه رسول الأمير فقيل له: إنه يريد أن يراك، فقال: إن أمير المؤمنين قد أعفاني مما أكره.

فلما كان قبل وفاته بيوم أو يومين جمع الصبيان وجعل يسميهم

ويمسح برؤوسهم وعينه تدمع.

وكان يصلي حينئذٍ وهو قاعد ويصلي وهو مضطجع ولا يكاد يفتر.

وقال ابنه عبد الله: لما مرض أبي واشتد مرضه ما أنّ، فقيل له في ذلك، فقال: بلغني عن طاووس أنه قال: أنين المريض شكوى الله عز وجل، قال عبد الله: فما أنّ حتى مات.

ولما كانت يوم الجمعة ثقل مرضه وظنوا أنه قد قبض وجعل يقبض قدميه وهو موجه وجعلوا يلقنونه وهو يقول لا إله إلا الله يردد ذلك.

وقال ابنه عبد الله: جعل أبي عند الوفاة يعرق ثم يفتح عينيه ويقول: لا بعد ثلاث، مرات، فلما كان في الثالثة قلت له: يا أبت أي شيء هذا قد لهجت به في هذا الوقت؟ فقال لي: يا بني إبليس لعنه الله قائم حذائي عاض على أنامله يقول لي: يا أحمد فتني وأنا أقول: لا بعد حتى أموت.

ثم أن الناس ملأوا السكك فما كان صدر النهار إلا وهو مقبوض - رحمه الله - فصاح الناس وعلت أصواتهم بالبكاء حتى كأن الدنيا قد ارتجت وقعد الناس حتى خشي فوت الجمعة فصاح أهله في الناس: إنا نخرجه بعد الجمعة.

وكان عنده ثلاث شعرات من شعر النبي ﷺ، فأوصى أن يجعل شعرتان في عينيه وشعرة فوق لسانه ففعل به ذلك.

وكان تاريخ موته يوم الجمعة في شهر ربيع الأول لاثنتي عشرة ليلة خلت منه سنة إحدى وأربعين ومائتين.

وقيل مات في ثاني عشر ربيع الآخر وأخرجت جنازته بعد انصراف الناس من جمعتهم.

وفي الحديث: «ما من مسلم يموت يوم الجمعة إلا وقاه الله فتنة

القبر» وفي يوم الجمعة قتل عثمان بن عفان وضرب علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - يوم الجمعة وقتل فيه الحسين بن علي - رضي الله عنهما - وتوفي فيه العباس بن عبد المطلب وكذلك الحسن البصري وابن سيرين وخلق كثير[1].

قال صالح: ولما توفى أبي أعلمت من بالشوارع بوفاته وأني أخرجه بعد العصر وكان المتوكل غائباً فوجه الأمير ابن طاهر بمناديل فيها ثياب وطيب، فقال لي الرسول: الأمير يقرؤك السلام ويقول: قد فعلت ما لو كان أمير المؤمنين حاضره لكان يفعله فأرسلت إليه: إن أمير المؤمنين قد كان أعفاه مما يكره وهذا مما يكره فعاد إليه الرسول فأخبره، فقال له: قل له يكون شعاره ولا يكون دثاره فأعدت عليه مثل ذلك وكفناه في ثلاث لفائف.

وقال المروزي: ولما أردت أن أغسله جاء بنو هاشم واجتمع في الدار خلق كثير فأدخلته البيت وغطيته بثوب وأرخيت الستر حتى فرغت من أمره فلما أردت تكفينه غلبنا عليه بنو هاشم وأخذوا في البكاء عليه وجعل أولادهم ينكبون عليه ويقبلونه وحضره نحو مائة من بني هاشم.

---

(١) جاء في الهامش: لطيفة:
أبو بكر المعروف بغلام الخلال، أحد أهل الفهم، موثوقاً به في العلم، متسع الرواية، مشهوراً بالديانة، له المصنفات في العلوم المختلفات، علامة بارع في مذهب أحمد، له القدم الراسخ في تفسير القرآن ومعرفة معانيه، دخلوا عليه في مرضه فقال: أنا عندكم إلى يوم الجمعة سمعت أبا بكر الخلال يقول سمعت أبا بكر المروزي يقول عاش أحمد بن حنبل ثمان وسبعين سنة ومات يوم الجمعة ودفن بعد الصلاة، وعاش أبو بكر المروزي ثمان وسبعين سنة ومات يوم الجمعة ودفن بعد الصلاة وعاش أبو بكر الخلال ثمان وسبعين سنة ومات يوم الجمعة ودفن بعد الصلاة، وأنا عندكم إلى يوم الجمعة ولي ثمان وسبعون سنة، فلما كان يوم الجمعة مات ودفن بعد الصلاة، وكان يوماً عظيماً لكثرة الجمع.
قلت: وترجمته في سير أعلام النبلاء ١٤٣/١٦ (١٠٢) تاريخ بغداد ٤٥٩/١٠ (٥٦٢٨) واسمه أبو بكر عبد العزيز بن جعفر بن أحمد البغدادي ت ٣٦٣هـ.

قال صالح: وأرسل إلي ابن طاهر يقول: من يصلي على أبيك؟ قلت: أنا، فلما صرنا إلى الصحراء وجدنا ابن طاهر فعزانا فلما وضع السرير تقدمت للصلاة فجاءني ابن طالوت ومحمد بن نصر وقبضا على يدي وقالا: الأمير، فمانعتهم فغلبوا علي وصلى عليه ولم يعلم أكثر الناس بتقدمه، فلما انتشر في الناس علم ذلك، [و] مكث الناس ما شاء الله يصلون على قبره. وكان المتوكل يقول: طوبى لك يا محمد الذي صليت على أحمد. وقال حجاج بن الشاعر: ما أحب أن أقتل في سبيل الله ولم أصل على أحمد. وقال ولده عبد الله: وكنا نحن والهاشميون صلينا عليه داخل الدار. وأما الجمع الذي صلى عليه، فقال ابن أبي صالح: شهدت الموسم أربعين عاماً فما رأيت جمعاً قط مثل هذا ـ يعني مثل الجمع الذي صلى على أحمد ـ.

وقال عبد الوهاب الوراق: ما بلغنا أن جمعاً في الجاهلية والإسلام مثله، لقد بلغنا أن الموضع مسح وحرر على التصحيح فإذا هو نحو من ألف ألف، وحزرنا على السور نحواً من ستين ألف امرأة.

وقال أبو زرعة: بلغني أن المتوكل أمر أن يمسح الموقف الذي وقف الناس فيه للصلاة على أحمد بن حنبل فبلغ مقام ألفي ألف وخمسمائة ألف وفتح الناس أبواب المنازل في الشوارع والدروب وصاروا ينادون من أراد الوضوء.

وفي أخرى: فإذا هو ألف ألف وستمائة ألف سوى ما كان في السفن.

وروي: أنه لم تر جنازة مثلها إلا جنازة في بني إسرائيل.

قلت: ـ

وأظن أنه هارون أخو مريم فقد ذكروا في التفسير أنه حضر جنازته أربعون ألفاً ممن اسمه هارون.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: سمعت أبي يقول: قولوا لأهل البدع بيننا وبينكم يوم الجنائز.

وازدحم الناس على قبره حتى روي عن بعضهم أنه قال: مكثت طول الأسبوع رجاء أن أصل إلى قبره فلم أصل من ازدحام الناس فلما انقضى الأسبوع وصلت وكثر الناس على قبره حتى منعهم المتوكل من ذلك خشية الفتنة ووقع المأتم يوم موته عند أربعة أصناف المسلمين واليهود والنصارى والمجوس وأسلم منهم في ذلك اليوم عشرون ألفاً.

وأظهرت الناس في ذلك اليوم مدح السنة وذم البدعة ولعنوا أهل البدع بأصوات عالية وأظهر الله السنة من ذلك اليوم.

وناحت الجن عليه وهتفت الهواتف بموته.

قال أحمد بن محمود: كنت في البحر مقبلاً من ناحية السند فقمت في الليل فإذا هاتف من ناحية البحر يقول: مات العبد الصالح أحمد بن حنبل فقلت لبعض من معنا: من هذا؟ فقال: هذا من صالح الجن، فكان موت أبي عبد الله في تلك الليلة.

وقال أبو زرعة: كان يقال عندنا بخراسان: إن الجن نعت أحمد بن حنبل قبل موته بأربعين صباحاً، وقيل مثل ذلك بعد موته.

وسمعوا هاتفاً من الجن يقول: مات اليوم رجل بالعراق فذهبت الجن كلها تصلي عليه إلا المردة.

وقال رجل من العلماء الفضلاء ليلة دفنه لبعضهم: أتدري من دفنا؟ فقال: من؟ فقال: سادس خمسة أبو بكر الصديق وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز، يريد أن كل واحد منهم أفضل أهل زمانه.

فصل

فيما رثاه به الائمة وهي كثيرة جداً

منها ما أنشده الهيضم لأبيه: ـ

للزاهدين مع الدموع دموع والعابدون لهم عليك خشوع
يبكون فقدك والجفون شفاؤها هملاتها ورقادها ممنوع
يا أحمد الحبر الذي وارى الثرى وبه الثبات من الجميع جميع
أروى محلتك السماء وجادها ديم الخريف وصيّف وربيع

ومنها ما أنشده إسماعيل الترمذي وهي طويلة وفيها: ـ

ولم يحمد الله الجدال وأهله وكان رسول الله عن ذاك يزجر
وسنتنا ترك الكلام وأهله ومن دينه تشديقه والتقعر
تفرغ قوم للجدال وأغفلوا طريق التقى حتى علا المتهور
وقاسوا بآراء ضعاف وفرطوا ورأي الذي لا يتبع الحق أبتر
جزى الله رب الناس عنا ابن حنبل وصاحبه خيراً إذا الناس أحضروا
سمى نبي الله أعني محمداً فقل في ابن نوح والمقالة تقصر
سقى الله قبراً حله ما ثوى به من الغيث وسميا يروح ويبكر

إلى أن قال: ـ

إذا ميز الأشياخ يوماً وحصلوا فأحمد بين المشايخ جوهر
رقيق أديم الوجه حلو مهذب إلى كل ذي تقوى وقور موقر
لعمرك ما يهوى لأحمد نكبة من الناس إلا ناقص الفضل معور
هو المحنة اليوم الذي يبتلى به فيعتبر السني فيها ويسبر
شجا في حلوق الملحدين وقرة لأعين أهل الشرك عف مشمر
فقا أعين المراق فعل ابن حنبل وأخرس من يبغي العيوب ويحقر
حوى سابقاً في حلبة الصدق والتقى كما سبق الطرف الجواد المضمر
إذا افتخر الأقوام يوماً بسيد فقيه لنا والحمد لله مفخر

فقل للأولى يشنونه لصلاحه وصحبته والله بالغدر يغدر
جعلتم فداءاً أجمعون لنعله فإنكم منها أذل وأحقر
فيا أيها الساعي ليدرك شأوه رويدك عن إدراكه ستقصر
تمسك بالعلم الذي كان قد وعى ولم يلهه عنه الخبيص المزعفر
فلا نعله هملاجة مغربية ولا حلة تطوى مراراً وتنشر
حمى نفسه الدنيا وقد سخرت له فمنزله إلا من القوت مقفر
فإن يك في الدنيا مقلا فإنه من الأدب المحمود والعلم مكثر

ومنها ما أنشده أبو مزاحم الخاقاني: -

جزى الله ابن حنبل التقيا عن الإسلام إحساناً هنيا
فقد أعطاه إذ صبر احتسابا على الأسواط إيماناً قويا
هو الورع الذي امتحنوه قدما فألفوه عليماً لا غبيا
وجاء بصادق الأخبار حتى أقام بذلك الدين الرضيا
حبى المتوكل السني بدأ وعودا أحمد المال السنيا
فآثر أحمد الإقلال زهدا على الدنيا وكان بها سخيا
فأحمد جامع ورعاً وزهدا وعلماً نافعاً حبراً تقيا
وأحمد كان للفتوى إماماً رضا للعالمين معاً وفيا
وأحمد محنة في الناس طرا بمنزلة المعوج والسويا

ومنها ما أنشده العلامة جمال الدين يحيى الصرصري، وهي قصيدة طويلة عدة أبياتها خمسمائة وسبعة وخمسون بيتاً منها: -

ألذ وأحلى من شمول وشمال وأليق من ذكرى حبيب ومنزل
وأطيب من مسك تضوع نشره وند وكافور ومن عرف مندل
وأحسن من روض تفتق نوره على حافتي ماء الغدير المسلسل
ثناء على الرحمن من نثر ناظم مجيد على عقد الإمام ابن حنبل
حوى ألف ألف من أحاديث أسندت وأثبتها حفظاً بقلب محصل

أجاب على ستين ألف قضية ... بأخبرنا لا من صحائف نقل
وكان إماماً في الأحاديث حجة ... لفقد صحيح ثابت ومعلل
وكان إماماً في كتاب وسنة ... وعلم وزهد كامل وتوكل
فمنهجه في الحق أقوم منهج ... ومورده في الشرع أعذب منهل
فقد كان كالصديق في يوم ردة ... وعثمان يوم الدار في الصبر إذ بلي
وفي الضرب فانحلت سراويله دعى ... فما فارقت حقوي محق مسرول
ومن ورع كان يطوي ثمانيا ... مواصلة في عسكر المتوكل
هو العلم المنشور لم يطو ذكره ... ممات بل استعلى على كل معتلى
إمام عظيم كان لله حجة ... على نفي تشبيه ودحض معطل
وعوجل من عاداه قوم بفالج ... وقوم بتسمير الحديد المنكل
وقوم بتغريق وبعض تعجلت ... له ريح أهل النار شر تعجل
وعشرون ألفاً أسلموا حين عاينوا ... جنازته من كل صنف مذلل
وصلى عليه ألف ألف موحد ... وستمائة ألف فأعظم وأكمل
فقد بان بعد الموت للناس فضله ... كما كان حياً فضله ظاهر جلي
أقر له بالفضل أعيان وقته ... وأثنوا عليه بالثناء المبجل
أبو حاتم وابن المديني والرضى ... أبو زرعة الرازي كنز المحول
ولابن معين فيه أزكى شهادة ... وشكر ابن سلام له إسمع وسجل
وأثنى عليه الشافعي بأنه ... إمام جليل في ثمانية ملي
حديث وقرآن وفقه وسنة ... وفقر وزهد للرجال مجمل
وفي ورع شاف وفي اللغة التي ... بها نزل القرآن خير منزل
وتربته الزهراء ملجأ خائف ... ونصرة مقهور ووصلة من ولي
تفوق على بنت الرياض نضارة ... كأن الثرى منها بغالية طلي
جزاه عن الإسلام خيراً إلهه ... جزاء محام ناصر متكفل
ومن تابعيه كل وقت عصابة ... بهم يهتدى فيه إلى حل مشكل

إلى أن قال: ـ

لأنت إلى الرحمن أقوى وسيلة إليه بها في الحادثات توسلي
فلست من الخطب الملم بخائف وأنت على كل الحوادث لي ولي

وأنشد ابن أعين موبخاً لأهل البدع: -

أضحى ابن حنبل محنة مأمونة وبحب أحمد يعرف المتنسك
وإذا رأيت لأحمد متنقصاً فاعلم بأن ستوره ستهتك

وأنشد أبو مزاحم: -

لقد صار في الآفاق أحمد محنة وأمر الورى فيها فليس بمشكل
ترى ذا الهوى جهلاً لأحمد مبغضاً ويعرف ذو التقوى بحب ابن حنبل

على أن هذا الذي قيل فيه كثير لا ينحصر ونحن وإن حصرناه لا يبقى منه شيء فإنا نعلم أن قدره فوق جميع ما قيل فيه وفي الإشارات ما يغني عن الكلام.

فصل

فيما رؤي له من المنامات بعد موته

قال عبد الله بن الإمام أحمد: رأيت أبي في المنام فقلت له: يا أبت ما فعل الله بك؟ فقال: أوقفني بين يديه، فقال لي: يا أحمد بسببي ضربت وامتحنت من أجلي هآ وجهي قد أبحتك النظر إلي.

وقال بندار بن محمد: رأيت أحمد بن حنبل في المنام شبيه المغضب فسألته عن ذلك، فقال: وكيف لا أغضب؟ وقد جاءني منكر ونكير فسألاني: من ربك؟ فقلت: ولمثلي يقال من ربك؟ فقالا لي: صدقت يا أبا عبد الله ولكن بهذا أمرنا فاعذرنا.

ورآه آخر في النوم فقال: يا أبا عبد الله ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي وأدخلني الجنة وتوجني بهذا التاج بيده، وقال لي: هذا بقولك القرآن كلام الله غير مخلوق، فقلت له: يا أبا عيد الله ما هذه الخطرة

التي لم أعرفها لك؟ فقال: هذه مشية الخدام في دار السلام.

وقال المروزي: رأيت الإمام أحمد في المنام كأنه في روضة وعليه حلتان خضراوان وعليه تاج من نور وهو يمشي مشية لم أعرفها منه فقلت له: يا أحمد ما هذه المشية؟ فقال: هذه مشية الخدام في دار السلام، قلت: فما هذا التاج الذي على رأسك؟ فقال: إن ربي عز وجل أوقفني بين يديه وحاسبني حساباً يسيراً وقربني وأباحني النظر إليه وتوجني بهذا التاج وقال: يا أحمد هذا تاج الوقار توجتك به كما قلت القرآن كلامي غير مخلوق.

وفي أخرى[١]: وقال يا أحمد أدعني بتلك الدعوات التي بلغتك عن سفيان الثوري التي كنت تدعو بهن في دار الدنيا فقلت: يا رب كل شيء، بقدرتك على كل شيء، لا تسألني عن شيء، واغفر لي كل شيء، فقال لي: يا أحمد هذه الجنة فقم أدخل، فإذا أنا بسفيان الثوري له جناحان أخضران يطير بهما من نخلة إلى نخلة وهو يقول: «الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين» فقلت: ما فعل عبد الوهاب الوراق؟ قال: تركته في بحر من نور يزور ربه الغفور، فقلت له: ما فعل بشر؟ فقال: بخ بخ ومن مثل بشر؟ تركته بين يدي الجليل وبين يديه مائدة من الطعام والجليل جل جلاله مقبل عليه، يقول له: كل يا من لم يأكل واشرب يا من لم يشرب وتنعم يا من لم يتنعم.

وقال أحمد بن أبي الفتح: رأيت بشراً الحافي في المنام وهو جالس في بستان وبين يديه مائدة وهو يأكل منها، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: رحمني وغفر لي وأباحني الجنة بأسرها، وقال لي: كل من جميع ثمارها واشرب من جميع أنهارها وتمتع بجميع ما فيها كما أنك أحرمت نفسك من شهوات الدنيا، فقلت له: أين أخوك

---

(١) جاء في الهامش ـ قف على هذا الدعاء.

أحمد بن حنبل؟ قال: هو قائم على باب الجنة يشفع لأهل السنة ممن يقول القرآن كلام الله غير مخلوق، فقلت له: ما فعل الله بمعروف الكرخي؟ فحرك رأسه ثم قال: هيهات حالت الحجب بيننا وبينه، ثم قال: إعلم يا أخي أن معروف لم يعبد الله شوقاً إلى الجنة ولا خوفاً من النار وإنما عبده شوقاً إليه، فرفعه الله إلى الرفيق الأعلى ورفع الحجب بينه وبينه فمن كانت له حاجة فليسأل الله ببركة[1] أحمد ومعروف وبشر.

وقال بعضهم: رأيت كأن القيامة قامت وإذا برجل على فرس به من الحسن ما الله به عليم ومناد ينادي ألا لا يتقدمن اليوم هذا أحد، فقلت: من هذا؟ فقالوا: أحمد بن حنبل.

وقال علي بن الموفق: رأيت كأني أدخلت الجنة فإذا أنا بثلاثة نفر، رجل قاعد على مائدة قد وكل الله به ملكين فملك يطعمه وملك يسقيه، وآخر واقف على باب الجنة ينظر إلى وجوه قوم فيدخلهم الجنة، وآخر واقف في وسط الجنة شاخص ببصره إلى العرش ينظر إلى الرب، فجئت إلى رضوان فقلت: من هؤلاء؟ فقال: أما الأول فبشر الحافي خرج من الدنيا وهو جائع عطشان، وأما الواقف في وسط الجنة فمعروف الكرخي عبد الله شوقاً منه للنظر فقد أعطي وأما الواقف على باب الجنة فهو الصادق في قوله الورع في دينه أبو عبد الله أحمد بن حنبل قد أمره الجبار أن ينظر إلى وجوه أهل السنة فيأخذ بأيديهم فيدخلهم الجنة.

وقال عبد الرحمن بن يونس: رأيت في المنام لما توفي أحمد بن حنبل كأني قد دخلت الجنة، فقيل لي: أنت في جنة عدن، فاستقبلني ثلاثة فوارس وبين أيديهم فارس بيده لواء فقلت: من هؤلاء؟ فقيل لي: الذي عن يمينه جبريل وعن يساره ميكائيل والأوسط

---

(١) تنبه لهذه المسألة في التوحيد.

أحمد بن حنبل وصاحب اللواء إسرافيل، وأن الله أعطاه هذا اللواء وولاه جنة عدن فلا يدخلها إلا من أحبه.

وقال علي بن إسحاق السجستاني: رأيت كأن القيامة قد قامت والناس في كرب وشدة حتى رأيت دموع الناس تجري دماً إذ خرج مناد ينادي: أين بشر وأين أحمد بن حنبل فأخذوكما فأدخلوكما على الله تعالى، فقال أهل الموقف: إن حوسب هؤلاء هلكنا، وإذا قد خرج علينا ملك من الملائكة فقلنا له: ما فعل بشر وأحمد؟ فقال: يحاسبان بقيام الشكر بما منّ عليهما من سترهما، فقال بشر: أما أحد الاثنين فالتقصير قرينه وأما الآخر فتشهد له الحقائق بقيامه بالشكر ثم بكى بشر وقال: ويحك يا بشر شد حيازيمك فإنك مطلوب.

وقال إبراهيم الحربي: رأيت في المنام بشر الحافي كأنه خارج من جامع الرصافة وفي كمه شيء يتحرك، فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي وأكرمني، قلت: فما هذا الذي في كمك؟ قال: قدم علينا البارحة روح أحمد بن حنبل فنثر عليها الدر والياقوت فهذا مما التقطت، قلت: فما فعل يحيى بن معين وأحمد بن حنبل؟ قال: تركتهما وقد زارا رب العالمين ووضعت لهما الموائد، قلت: فلم لا تأكل معهما؟ قال: قد علم هوان الطعام علي فأباحني النظر إلى وجهه.

وقال بندار بن بشار: رأيت سفيان الثوري في المنام فقلت: إلى ما صرت؟ فقال: إلى أكثر مما أملت، فقلت: ما هذا الذي في كمك؟ فقال: در وياقوت وجوهر، قدمت علينا روح أحمد فأمر الله أن ينثر علينا الدر والياقوت والجوهر فهذا نصيبي.

وقال أبو بكر أحمد بن محمد الرملي قاضي دمشق: دخلت العراق فكتبت كتب أهلها وأهل الحجاز فمن كثرة خلافها لم أدر بأيهما آخذ فلما كان جوف الليل قمت فتوضأت وصليت وقلت: اللهم اهدني إلى ما تحب ثم أويت إلى فراشي فرأيت النبي ﷺ، دخل من باب بني

شيبة وأسند ظهره إلى الكعبة فرأيت الشافعي وأحمد بن حنبل على يمين النبي ﷺ، والنبي يبتسم إليهما وبشر المريسي من ناحية، فقلت: يا رسول الله من كثرة اختلافهما لم أدر بأيهما آخذ، فأومىء إلى الشافعي وأحمد وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ ثم أومىء إلى بشر المريسي وقال: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾.

وقال أبو عبد الله الزبيري: جاءني رجل من أهل البصرة يقال له أبو محمد القرشي من أهل العلم والسنن والصلاح فقال لي: أخبرك برؤيا تسر بها رأيت النبي ﷺ، في النوم وعنده أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ـ رضي الله عنهم ـ إذ جاءه أربعة نفر فقربهم فعجبت من تقريبه لهم، فسألت بعض من حضر عنهم فقال: هذا مالك بن أنس وأحمد وإسحاق والشافعي، فرأيت النبي ﷺ، أخذ بيد مالك فأجلسه إلى جنب أبي بكر وأخذ بيد أحمد فأجلسه إلى جنب عمر وأخذ بيد إسحاق فأجلسه إلى جنب عثمان وأخذ بيد الشافعي فأجلسه إلى جنب علي، قال الزبيري: فسألت بعض العلماء بالتعبير، فقال: منزلة مالك من العلماء بمنزلة أبي بكر من الصحابة لم يختلف فيه أحد ومنزلة أحمد كمنزلة عمر في صلابته وجلادته وأنه لم تأخذه في الله لومة لائم كذلك كان أحمد بن حنبل احتمل الشدائد ولم يتكلم في القرآن إلا بحق ولم يضعف في الحق ومنزلة إسحاق كمنزلة عثمان فيما لقي حتى فارق منزله، ومنزلة الشافعي كمنزلة علي فإنه كان أقضاهم كذلك كان الشافعي أعلم بالفقه والقضايا.

وقال ابن أبي الورد: رأيت النبي ﷺ، في المنام فقلت: يا رسول الله ما شأن أحمد بن حنبل؟ فقال ﷺ: «سيأتيك موسى فسله، فإذا أنا بموسى عليه الصلاة والسلام فقلت: يا نبي الله ما بال أحمد بن حنبل؟ فقال: أحمد بلي بالسراء والضراء فوجد صابراً صادقاً فألحق بالصديقين».

وفي هذا بيان فضيلة أمة محمد ﷺ، على الأمم حتى أن موسى عليه الصلاة والسلام هو الذي بين ذلك بتقرره وبيان قدر أحمد بن حنبل حيث يشهد بعظيم فضله نبيان عليهما الصلاة والسلام.

وحكمة أخرى وهي أن محنة أحمد إنما هي في كون القرآن مخلوقاً وكلم الله موسى تكليماً فهو يعرف أن القرآن ليس بمخلوق فيعرف الناس بذلك ليزداد يقينهم بأنه منزل غير مخلوق.

وقال الأسود بن سالم: بينا أنا نائم إذ أتاني آت فقال: يا أسود إن الله يقرأ عليك السلام ويقول لك: هذا أحمد بن حنبل يرد الأمة عن الضلالة فما أنت فاعل؟ إتبعه وإلا هلكت.

وفي رواية أخرى: من خالف أحمد عذب.

وقال أبو عبد الله: رأيت النبي ﷺ، في المنام، فقلت: من تركت لنا في عصرنا هذا نقتدي به؟ فقال: عليك بأحمد بن حنبل. وقال أبو زرعة: رأيت النبي ﷺ، في المنام فشكوت إليه ما نلقى من الجهمية، فقال: لا تحزن فإن أحمد بن حنبل قد سد عليهم الأفق.

ورؤيت زبيدة في المنام فقيل لها، ما فعل الله بك؟ قالت: غفر لي بأول معول ضرب في طريق مكة، فقيل لها: ما هذه الصفرة التي أرى بك؟ فقالت: زفرت جهنم على رجل يقال له بشر المريسي زفرة فاقشعر لها جلدي، فقيل لها: فما فعل أحمد بن حنبل؟ فقالت: فارقته الآن وهو في طيارة بيضاء في لجة حمراء يريد زيارة الجبار عز وجل، فقيل لها: بم نال ذلك؟ فقالت: بقوله القرآن كلام الله غير مخلوق.

وبالجملة: ـ

فهذا باب واسع أضربنا عنه خوف الإطالة وفيما أشرنا إليه كفاية للموقن وهداية للمذعن بفضل هذا الإمام.

فصل
فيما رآه من المنامات وفضل زيارته

قال عبد الله بن الإمام أحمد: سمعت أبي يقول: رأيت رب العزة في المنام فقلت: يا رب ما أفضل ما تقرب به المتقربون إليك؟ فقال: بكلامي يا أحمد، قال: يا رب بفهم أو بغير فهم؟ فقال: بفهم وبغير فهم.

وروى صاحب الإشارات أن الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ أجنب يوماً فجاء إلى الدجلة ببغداد وأراد التطهر منها فلم يجد معه ما يستتر به فاستحيى من الله أن ينزل عرياناً فنزل بقميصه واغتسل من الجنابة ثم ظهر وقميصه مبلول فلم يستطع عصره فجلس في الشمس والقميص عليه لينشفه فأخذه سنة من النوم فرأى النبي ﷺ فقال له: يا أحمد كما تبعت سنتي واستحييت أن تنزل عرياناً جعلتك ربع الإسلام وكان ذلك في ابتداء أمره، فكان من أمره ما كان.

وقال ـ رحمه الله ـ سمعت أمي تقول لما قدمنا نهروان في مجيئنا من خراسان من مرو فإذا أعرابي على جسر نهروان على ناقته، فقال: يا هذه إحفظي ما في بطنك فسيكون له شأن من الشأن.

وقال الإمام أبو الفرج: قرأت بخط شيخنا أبي الحسن بن الزاغواني قال: كشف قبر إمامنا أحمد بن حنبل ـ رضي الله عنه ـ حين دفن الشريف أبو جعفر بن أبي موسى إلى جانبه وجثته لم تتغير وكفنه صحيح ولم يبل، قال: وبين وفاة الإمام أحمد ووفاة أبي جعفر مائتا سنة وتسع وعشرون سنة.

وروي أن رجلاً رأى في المنام على قبر قنديلاً فسأل عن ذلك فقيل له: هذا بنزول أحمد بينهم وقد كان فيهم من يعذب فرحم به.

قال أبو الفرج: كنت أزور قبر أحمد بن حنبل فتركته مدة فقيل لي في المنام: لم تركت قبر إمام السنة.

وجاء بعضهم إلى قبره من ستمائة فرسخ وأخبر أنه رأى في المنام ببلده الذي أتى منه، خلقاً قد فتحت لهم أبواب السماء والملائكة تنزل عليهم، فسأل عن ذلك، فقيل له: هؤلاء زوار قبر أحمد بن حنبل ـ رضي الله عنه ـ.

قلت: ـ

وبالجملة فهذا باب واسع وفيما ذكرناه كفاية والله سبحانه وتعالى أعلم.

خاتمة
في سبب اختيار كثير من أكابر العلماء والصوفية كالشيخ عبد القادر الجيلاني لمذهب أحمد بن حنبل على مذهب غيره

قال الإمام الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي: إعلم أنه إنما يتبين الصواب لمن أعرض عن الهوى والتفت عن العصبية، فذلك الذي ينجلي له غامض المشتبه، فأما من مال به الهوى فعسير تقويمه.

واعلم أننا نظرنا في أدلة الشرع وأصول الفقه وسبرنا أحوال المجتهدين فرأينا هذا الرجل - يعني أحمد - أوفرهم حظاً من تلك العلوم فإنه كان من الحافظين لكتاب الله ومن المصنفين في فنون علوم القرآن.

وأما النقل فقد سلم الكل له لانفراده بما لم ينفرد به سواه من الأئمة لكثرة محفوظاته ومعرفته بالصحيح والسقيم.

وقد ثبت أنه ليس في الأئمة الأعلام قبله من له حظ في الحديث كحظ مالك ومن أراد معرفة مقام أحمد في ذلك فلينظر فرق ما بين المسند والموطأ. وقد كان أحمد - رضي الله عنه - يذكر الجرح والتعديل والعلل من حفظه إذا سئل كيف يقرأ الفاتحة؟ ولم يكن هذا لأحد منهم.

وأما العربية فقد قال أحمد: كتبت من العربية أكثر مما كتب أبو عمرو الشيباني.

وأما القياس فله من الاستنباط ما يطول شرحه.

ثم أنه ضم إلى العلوم ما عجز عنه القوم من الزهد في الدنيا وقوة الورع ولم ينقل عن أحد من الأئمة أنه امتنع من قبول أرفاق السلطان وهدايا الإخوان مع الحاجة مثله.

ثم أنه ضم إلى ذلك الصبر على الامتحان وبذل المهجة في نصرة الحق.

ورحمة الله على الكل، وللناس فيما يعشقون مذاهب.

انتهى كلام ابن الجوزي ملخصاً.

وبالجملة

فالأئمة كلهم على هدى من الله تعالى يجب تعظيمهم على كل مسلم موحد ويجب ترك الطعن عليهم.

قال أبو زرعة الرازي: إذا رأيت الكوفي يطعن على سفيان الثوري وزوائده فلا تشك أنه رافضي، وإذا رأيت الشامي يطعن في مكحول والأوزاعي فلا تشك أنه ناصبي، وإذا رأيت البصري يطعن في أيوب السختياني وابن عون فلا تشك أنه قدري وإذا رأيت الخراساني يطعن على عبد الله بن المبارك فلا تشك أنه مرجىء، وهذه الطوائف كلها مجمعة على حب أحمد بن حنبل.

وقال أبو الحسن الهمداني: أحمد بن حنبل محنة يعرف به المسلم من الزنديق.

وقال أبو جعفر المخزومي: إذا رأيت أحداً ينتقص أحمد بن حنبل فاعلم أنه مبتدع.

وقال عبد الوهاب الوراق: إذا تكلم الرجل في أصحاب أحمد فاتهمه فإنه غير صاحب سنة.

وقال أبو الفضل: إنه ذكر عند المتوكل بعد أحمد أن أصحاب أحمد يكون بينهم وبين أصحاب البدع الشر، فقال المتوكل لصاحب الخبر: لا ترفع إلي من أخبارهم شيئاً وشد على أيديهم فإنهم

وصاحبهم وسادة أمة محمد ﷺ، وقد عرف الله لأحمد صبره وبلاءه ورفع علمه أيام حياته، وبعد موته أصحابه أجل أصحاب، وأنا أظن أن الله تعالى يعطي أحمد ثواب الصديقين.

قلت: ـ

فهذا بعض ما تيسر لنا من الوقوف على مناقب أحمد ومناقب غيره من الأئمة ـ رضوان الله عليهم ـ أجمعين.

وقد بذلت الجهد في الوقوف على مناقب كل واحد من الأئمة الأربعة فوجدت مناقب أحمد كثيرة وفضائله غزيرة، وهذا هو الداعي لتطويل مناقبه دون مناقب غيره.

وقد أفرد جماعة من الأئمة مناقبه بالتصنيف وتبجحوا بوضعها في قالب الترصيف، منهم الإمام أبو الحسين بن المنادي والحافظ ابن منده والإمام البيهقي وعبد الرحمن بن أبي حاتم وشيخ الإسلام الأنصاري والفقيه أبو علي بن البنا والحافظ ابن ناصر والحافظ أبو الفرج بن الجوزي والحسن بن محمد الخلال، وغيرهم من الأئمة ـ رضي الله عنهم ـ أجمعين وعن سائر أئمة المسلمين، وحشرنا في زمرتهم وتحت ألويتهم وأمدنا بمددهم، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الخامس

في مسائل متفرقة

الأولى

العجب كل العجب ممن يأخذ في تفضيل بعض المذاهب على بعض تفضيلاً يؤدي إلى تنقيص المفضل عليه وسقوطه، وربما أدى إلى الخصام بين السفهاء وصارت عصبية وحمية الجاهلية، والعلماء منزهون عن ذلك ويرحم الله تعالى الإمام أبا حنيفة حيث قال لما سئل عن الأسود وعطاء وعلقمة أيهم أفضل؟ فقال: والله ما نحن بأهل أن نذكرهم فكيف نفاضل بينهم خلافاً لمن حمله التعصب والجهل على القدح في بعض الأئمة وتفضيل بعضهم على بعض. هذا ومناقبهم مأثورة وفضائلهم مشهورة ويكفي في ذلك انتشار علمهم وتقرر جلالتهم على مدى الأزمان واشتهار علمهم في سائر البلدان.

قال الشيخ السيوطي في شرحه لنظمه جمع الجوامع بعد أن ذكر الإمام أبا حنيفة ومالكاً والشافعي وأحمد والسفيانين والأوزاعي وابن جرير: نعتقد أن هؤلاء الأئمة وسائر أئمة المسلمين على هدى من الله تعالى ولا التفات إلى من تكلم فيهم مما هم بريئون منه فقد كانوا من العلوم والمواهب الإلهية والاستنباطات الدقيقة والمعارف والدين والورع والعبادة والزهادة والجلالة بالمحل الذي لا يسامى. انتهى.

وقد أفضى ببعض مقلديهم الهوى والحمية الجاهلية إلى ترجيح مذهب إمامه وإطلاق لسانه في غيره بعدم أدب وغير خوف من الله تعالى فانتصر بعض من خالفه ورد عليه وأطلق لسانه فيه وتعدى إلى

إمامه وزعم أن ذلك من باب المقابلة ولو عرض كلام كل منهما على إمامه الذي قلده لزجره وهجره وتبرأ منه.

قال السبكي: هؤلاء الحنفية والشافعية والمالكية وفضلاء الحنابلة يد واحدة كلهم على رأي أهل السنة والجماعة، ثم قال في آخر كلامه يخاطب أهل المذاهب الأربعة: وأما تعصبكم في فروع الدين وحملكم الناس على مذهب واحد فهو الذي لا يقبله الله منكم ولا يحملكم عليه إلا محض التعصب والتحاسد، ولو أن الشافعي وأبا حنيفة ومالكاً وأحمد بن حنبل أحياء يرزقون لشددوا النكير عليكم وتبرؤا منكم فيما تفعلون. انتهى.

إذا علمت هذا فاعلم وفقك الله تعالى إن كل واحد من الأئمة المجتهدين قد صح عنه سيرة حسنة وكرامات متعددة وهم أولياء بلا شك فمن انتقص أحداً منهم فقد أدخل نفسه فيما لا طاقة له به وقد وقع الاختلاف في الفروع بين الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وهم خير الأمة فما خاصم أحد منهم أحداً ولا عادى أحدٌ أحداً ولا نسب أحدٌ أحداً إلى خطأ ولا قصور بل عذر بعضهم بعضاً ويرحم الله الإمام مالكاً حيث قال لهارون الرشيد لما قال له: يا أبا عبد الله نكتب هذه الكتب ـ يعني تصنيف مالك ـ ونفرقها في آفاق الإسلام لنحمل عليها الأمة: يا أمير المؤمنين إن اختلاف العلماء رحمة من الله على هذه الأمة، كل يتبع ما صح عنده وكل على هدى وكل يريد الله تعالى. رواه الخطيب.

وروى ابن سعد عن محمد بن عمر الأسلمي قال: سمعت مالك بن أنس يقول: لما حج المنصور قال لي: إني قد عزمت على أن آمر بكتبك هذه التي وضعتها فتنسخ ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها بنسخة وآمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدوه إلى غيره، فقلت: يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا فإن الناس قد سيقت إليهم أقاويل وسمعوا أحاديث ورووا روايات وأخذ كل قوم بما سيق إليهم

ودانوا به من اختلاف الناس، فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم. انتهى.

فانظر رحمك الله إلى هذا الإنصاف من هذا الإمام ولعمري إن كثيراً من المتعصبين لو أمكنه بطلان جميع المذاهب ما عدا مذهبه لفعل وربما خاض في حق غير إمام مذهبه كما وقع لكثير من العلماء.

. فإياك يا أخي ثم إياك أن تنظر فيما وضعه بعض الرعاع في مثالب أحد من الأئمة فيحصل عندك ما يخل بتعظيمه فتزل قدمك بعد ثبوتها فلا تغتر بما ينقل عن الأئمة من القدح في بعضهم بعضاً فإن ذلك ربما لا يصح عنهم لما مر لك من تعظيم بعضهم بعضاً، وعلى تقدير صحته فإن كان قائله من غير أقران أبي حنيفة مثلاً فهو لم يره ولم يشاهد أحواله بل قلد ما رآه في الأوراق التي دونها أعداؤه فهذا لا يلتفت إلى قوله البتة.

وإن كان من أقران أبي حنيفة المنافسين له فلا يلتفت إلى قوله ولئن صح عنهم ذلك فلعل له محامل لا تفهمها عنهم فاشتغل بعيب نفسك عن عيب غيرك.

قال الشيخ تاج الدين السبكي: ينبغي لك أيها المسترشد أن تسلك سبيل الأدب مع جميع الأئمة الماضين وأن لا تنظر إلى كلام بعض الناس فيهم إلا ببرهان واضح ثم إن قدرت على التأويل وتحسين الظن بحسب قدرتك فافعل وإلا فاضرب صفحاً عما جرى بينهم، فإنك يا أخي لم تخلق لمثل هذا وإنما خلقت للاشتغال بما يعنيك من أمر دينك.

قال: ولا يزال الطالب نبيلاً حتى يخوض فيما جرى بين الأئمة فتلحقه الكآبة وظلمة الوجه فإياك ثم إياك أن تصغي لما وقع بين أبي حنيفة وسفيان الثوري أو بين مالك وابن أبي ذئب أو بين أحمد بن حنبل والحارث المحاسبي وهلم جرا إلى الشيخ عز الدين بن عبد السلام والشيخ تقي الدين بن الصلاح، فإنك إن فعلت ذلك خفت

عليك الهلاك فإن القوم أئمة أعلام ولأقوالهم محامل ربما لم يفهمها غيرهم فليس لنا إلا الترضي عنهم والسكوت عما جرى بينهم كما نفعل فيما جرى بين الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أجمعين.

قال: وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام يقول: إذا بلغك أن أحداً من الأئمة شدد النكير على أحد من أقرانه فإنما ذلك خوفاً على أحد أن يفهم من كلامه خلاف مراده لا سيما علم العقائد فإن الكلام في ذلك أشد.

وقد اختفى أحمد بن حنبل في دار إسماعيل بن إسحاق السراج وكان الحارث المحاسبي ينام عنده هو وأصحابه فلما صلوا العشاء تذاكروا في الطريق وبكوا فبكى أحمد معهم، فلما أصبح قال: ما رأيت مثل هؤلاء القوم ولا سمعت في علوم الحقائق شيئاً يشبه كلام هذا الرجل، ومع هذا فلا أرى لك يا إسماعيل صحبتهم خوفاً عليك أن تفهم عنهم غير مرادهم. انتهى كلام ابن السبكي.

ولقد نصح وأبلغ في النصيحة وأرشد وأحسن الإرشاد، فالموفق من تدبر ما قررناه وعمل به وترك التعصب وحمية الجاهلية وترك الوقوع في أعراض العلماء.

فقد قال الحافظ ابن عساكر: لحوم العلماء مسمومة، وهتك أستار منقصتهم معلومة.

وقال: إن لحوم العلماء سم، من شمها مرض، ومن ذاقها مات.

وقال الحافظ ابن دقيق العيد: أعراض الناس حفرة من حفر النار وقف على شفيرها الحكام والمحدثون. انتهى.

وقد ورد في الحديث ما فيه الردع عن الوقوع في أعراض الناس بغير حق.

روى الشيخان أن رسول الله ﷺ، قال في خطبته في حجة

الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلغت».

وروى مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله».

وروى ابن أبي الدنيا والبيهقي عن ابن عباس يرفعه: «إن الربا نيف وسبعون باباً أهونهن باباً من أتى أمه في الإسلام ودرهم ربا أشد من خمس وثلاثين زنية، وأشد الربا وأربى الربا وأخبث الربا انتهاك عرض المسلم وانتهاك حرمته».

وأما الغيبة فقد قال تعالى: «أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً».

وقال رسول الله ﷺ: «من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب إليه يوم القيامة فيقال له: كله ميتاً كما أكلته حياً فيأكله ويكلح ويضج».

والأحاديث في ذلك كثيرة.

وروى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو داود والترمذي وصححه وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الغيبة ذكرك أخاك بما يكره» وفي لفظ: «بما فيه» «قيل: يا رسول الله أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته».

وقد جاء النهي عن ذكر مساوىء الأموات والأمر بذكر محاسنهم.

فعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساوئهم» رواه أبو داود والترمذي وابن أبي الدنيا.

وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا» رواه الإمام أحمد والبخاري والنسائي.

وفي رواية أخرى: «لا تذكروا موتاكم إلا بخير إن يكونوا من أهل الجنة تأثموا وإن يكونوا من أهل النار فحسبهم ما هم فيه».

فلا يجوز لمن يؤمن بالله تعالى واليوم الآخر أن يثلم عرض أحد من المسلمين بما لا يليق، فكيف بأئمة المسلمين وورثة النبيين، فكيف بالأموات منهم.

قال الحافظ الناقد الذهبي في الميزان والحافظ ابن حجر في اللسان: كلام الأقران بعضهم في بعض لا يعبأ به ولا سيما إذا لاح لك أنه لعداوة أو لمذهب إذ الحسد لا ينجو منه إلا من عصمه الله تعالى وما علمت أن عصراً من الأعصار سلم أهله من ذلك سوى النبيين والصديقين.

قال الذهبي: ولو شئت لسودت من ذلك كراريس.

وقد أطال الإمام الحافظ المجتهد أبو عمر بن عبد البر الكلام على قول العلماء بعضهم في بعض ثم قال: والدليل على أنه لا يقبل في حق من اتخذه جمهور من جمهور الناس إماماً في الدين قول أحد من الطاعنين.

هذا والسلف قد سبق من بعضهم في بعض كلام كثير في حال الغضب ومنه ما حمل عليه الحسد ومنه على جهة التأويل مما لا يلزم المقول فيه ما قال فيه القائل

وقد حمل بعضهم على بعض السيف تأويلاً واجتهاداً فلا يلزم تقليدهم في شيء منه دون برهان وحجة توجبه.

ثم ذكر ابن عبد البر كلام جماعة من الصحابة والتابعين وأتباعهم من النظراء بعضهم في بعض.

ثم ذكر ـ رحمه الله ـ كلام ابن أبي ذئب وعبد العزيز بن أبي سلمة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ومحمد بن إسحاق وابن أبي يحيى وابن أبي الزناد وإبراهيم بن سعد في مالك بن أنس وأنهم عابوا

أشياء من مذهبه، وابن معين في الشافعي.

ثم قال ابن عبد البر: وقد برأ الله تعالى مالكاً عما قالوا وكان عند الله وجيهاً.

قال: وما مثل من تكلم في مالك والشافعي ونظائرهما إلا كما قال الأعشى:

كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

قال: وقد كان بين أصحاب رسول الله ﷺ، عند الغضب أكثر من هذا، ولكن أهل العلم والفهم لا يلتفتون إلى ذلك لأنهم بشر يغضبون ويرضون، والقول في الرضا غير القول في الغضب.

ثم قال: فمن أراد أن يقبل قول العلماء الثقاة بعضهم في بعض وقول من ذكر من التابعين وأئمة المسلمين بعضهم في بعض، فإن فعل ذلك فقد ضل ضلالاً بعيداً وخسر خسراناً مبيناً.

أعاذنا الله تعالى من الخسران والطرد والحرمان.

الثانية

التقليد: ـ

هو الأخذ بقول الغير من غير معرفة دليله وغير استناد لعلامة في القائل ولا وجه في المقول وهو مذموم مطلقاً لاستهزاء صاحبه بدينه.

والاقتداء: ـ

هو الأخذ بقول الغير مستنداً في ذلك لديانة صاحبه وعلمه وهذه رتبة أتباع المذاهب مع أئمتها وإطلاق التقييد عليها مجازاً.

والتبصر: ـ

هو أخذ القول بدليله الخاص به من غير استناد للنظر ولا إهمال للقول وهي رتبة مشايخ المذهب وفضلاء الطلبة.

والاجتهاد: ـ

هو اقتراح الأحكام من أدلتها دون مبالاة بقائل، ثم إن لم يعتبر أصلاً متقدماً فمطلق وإلا فمقيد.

والمذهب: ـ

ما قوي في النفس حتى اعتمده صاحبه.

والذي عليه الجمهور أنه يجب على من ليس فيه أهلية الاجتهاد أن يقلد أحد الأئمة المجتهدين، سواء كان عالماً أم ليس بعالم.

قال إمام الحرمين: أجمع المحققون على أن العوام ليس لهم أن يتعلقوا بمذاهب أعيان الصحابة - رضي الله عنهم - بل يتبعوا مذاهب الأئمة الذين سبروا ونظروا وبوبوا، لأن الصحابة - رضي الله عنهم - لم يعتنوا بتذهيب مسائل الاجتهاد وإيضاح طرق النظر بخلاف من بعدهم.

قال الشيخ ابن الصلاح ما ملخصه: أن التقليد يتعين لهذه الأئمة الأربعة دون غيرهم لأن مذاهبهم انتشرت وانبسطت حتى ظهر فيها تقييد مطلقها وتخصيص عامها وشروط فروعها فإذا أطلقوا حكماً في موضع وجد مكملاً في موضع آخر، وأما غيرهم فتنقل عنه الفتاوى مجردة فلعل لها مكملاً أو مقيداً أو مخصصاً لو انضبط كلام قائله لظهر فيصير في تقليده على غير ثقة بخلاف هؤلاء الأربعة.

قال القرافي: وهذا توجيه حسن فيه ما ليس في كلام إمام الحرمين، ثم أورد عليه أنه يلزم عليه عدم جواز نقل مذاهبهم لعدم انضباطها وأجاب بأن النقل خفيف بالنسبة إلى العمل فإنه قد يكون المقصود منه الاطلاع على وجوه الفقه والتنبيه على المدارك وعدم الوفاق فيوجب ذلك التوقف عن أمور والحث على أمور.

وذكر البرزالي أن ابن العربي سأل الغزالي عمن قلد الشافعي مثلاً وكان مذهبه مخالفاً لأحد الخلفاء الأربعة أو غيرهم من الصحابة، فهل له اتباع الصحابة لأنهم أبعد عن الخطأ ولقوله ﷺ: «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر» فأجابه بأنه يجب عليه أن يظن بالشافعي أنه لم يخالف الصحابي إلا لدليل أقوى من مذهب الصحابي وإن لم يظن هذا فقد نسب الشافعي للجهل بمقام الصحابي وهو محال، وهذا سبب ترجيح مذهب المتأخرين على المتقدمين مع العلم بفضلهم لكون المتقدمين سمعوا الأحاديث آحاداً وتفرقوا في البلاد فاختلفت فتاويهم

وأقضيتهم في البلاد وربما بلغتهم الأحاديث فوقفوا عما أفتوا به وحكموا، ولم يتفرغوا لجميع الأحاديث لاشتغالهم بالجهاد وتمهيد الدين، فلما انتهى الناس إلى تابعي التابعين وجدوا الإسلام مستقراً ممهداً فصرفوا هممهم إلى جمع الأحاديث ونظروا بعد الإحاطة بجميع مدارك الأحكام ولم يخالفوا ما أفتى به الأول إلا لدليل أقوى منه ولهذا لم يسم في المذاهب بكرياً ولا عمرياً. انتهى ملخصاً.

الثالثة

ذهب الجمهور إلى أنه يجوز تقليد الميت وعليه عمل الناس ولو وجد مجتهد حي.

ومنع الإمام الرازي تقليد الميت وقال: لأنه لابقاء لقول الميت بدليل انعقاد الاجماع بعد موت المخالف وتصنيف الكتب في المذاهب مع موت أربابها لاستفادة طريق الاجتهاد من تصرفهم في الحوادث وكيفية بناء بعضها على بعض ولمعرفة المتفق عليه من المختلف وعورض بحجية الإجماع بعد موت المجمعين. وذهبوا إلى أن من أخذ بالرخص من كل مذهب فهو فاسق.

قال الإمام أحمد: لو أن رجلاً عمل بكل رخصة بقول أهل الكوفة في النبيذ وأهل المدينة في السماع - يعني الغناء - وأهل مكة في المتعة لكان فاسقاً.

وقال معمر: لو أن رجلاً قال بقول أهل المدينة في السماع وإتيان النساء في أدبارهن، وبقول أهل مكة في المتعة والصرف، وبقول أهل الكوفة في المسكر، كان شر عباد الله.

وسئل العلامة المازري: هل يسوغ الأخذ بقول ابن المسيب بأن المبتوتة تحل بالعقد؟ قال: فأجبتهم أن هذا باب إن فتح حدث منه خروق من الديانات وإني رأيت من الدين الجازم أن أنهى عن الخروج من مذهب مالك حماية للذريعة، ولو سوغ هذا لقال رجل: أنا أبيع

ديناراً بدينارين مقلداً لما روي عن ابن عباس، وآخر أنا أتزوج من غير ولي ولا شهود مقلداً في الولي لأبي حنيفة، وفي الشهود لمالك، وبدانق مقلداً للشافعي، وهذا عظيم الموقع في الضرر. انتهى.

قلت: ـ

وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة وأطلقوه ينبغي تقييده بأن محل كون متتبع الرخص يفسق ما لم تكن تلك الرخصة متعلقة بالعقود والمعاملات ونحوها مما ليس بعبادة، ويحكم الحاكم المخالف بصحة تلك الرخصة وجوازها فحينئذٍ يرفع حكمه الخلاف ويصير كالمجمع على جوازها فلا يفسق من أخذ بها وعليه عمل المفتين والحكام من أهل زماننا لا سيما بمحروسة مصر، وهو واقع بينهم من غير نكير.

فتأمل ما قلته، فإنه جيد جداً، والله أعلم.

الرابعة

إعلم أن اختلاف المذاهب في هذه الملة رحمة كبيرة وفضيلة عظيمة وله سر لطيف أدركه العالمون وعمي عنه الجاهلون واختلافها خصيصة لهذه الأمة وتوسع في هذه الشريعة السمحة السهلة.

وكانت الأنبياء قبل النبي ﷺ، يبعث أحدهم بشرع واحد وحكم واحد، حتى أنه من ضيق شريعتهم لم يكن فيها تخيير في كثير من الفروع التي شرع فيها التخيير في شريعتنا كتحتم القصاص في شريعة اليهود وتحتم الدية في شريعة النصارى، ومن ضيقها أيضاً أنه لم يجتمع فيها الناسخ والمنسوخ كما وقع في شريعتنا، ولذا أنكر اليهود النسخ واستعظموا نسخ القبلة، ومن ضيقها أيضاً أن كتابهم لم يقرأ إلا على حرف واحد كما ورد بكل ذلك الأحاديث.

وهذه الشريعة سمحة سهلة لا حرج فيها كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ وقال ﷺ: «بعثت بالحنيفية السمحة» ومن سعتها أن كتابها نزل على سبعة أحرف يقرأ بأوجه متعددة والكل كلام الله تعالى، ووقع فيه الناسخ والمنسوخ ليعمل بهما معاً في هذه الملة فكأنه عمل فيها بالشرعين معاً ووقع فيها التخيير بين أمرين شرع كل منهما في ملة كالقصاص والدية فكأنها جمعت الشرعين معاً وزادت حسناً بشرع ثالث وهو التخيير الذي لم يكن في أحد الشرعين فكانت

المذاهب على اختلافها كشرائع متعددة فصارت هذه الشريعة كأنها عدة شرائع بعث النبي ﷺ، بجميعها وفي ذلك توسعة زائدة وفخامة عظيمة لقدر النبي ﷺ، وخصوصية له على سائر الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - حيث بعث كل منهم بحكم واحد وبعث هو ﷺ، في الأمر الواحد بأحكام متنوعة يحكم بكل منها وينفذ ويصوب قائله ويؤجر عليه.

وقد ذكر السبكي في تأليف له: أن جميع الشرائع السابقة هي شرائع للنبي ﷺ، بعث بها الأنبياء السابقة كالنيابة عنه، وقرر السبكي بذلك قوله ﷺ: «بعثت للناس إلى الناس كافة» فجعله مبعوثاً إلى الخلق كلهم من لدن آدم - عليه الصلاة والسلام - إلى أن تقوم الساعة، وأطال السبكي الكلام على ذلك، فالمذاهب التي استنبطها أصحابه من أقواله وأفعاله على تنوعها شرائع متعددة له، وقد أخبر بوقوعها ووعد بالهداية الآخذ بها.

ومن الدليل[1] على ذلك قصة اختلاف الصحابة في أسرى بدر، فإن أبا بكر - رضي الله عنه - ومن تابعه أشاروا بأخذ الفداء وعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ومن تابعه أشاروا بقتلهم فحكم النبي ﷺ، بالأول ونزل القرآن بتفضيل الرأي الثاني مع تقرير الأول وهذا دليل على تصويب الرأيين وأن كلا من المجتهدين مصيب، ولو كان الرأي الأول خطأ لم يحكم به النبي ﷺ، وكيف وقد أخبر الله تعالى أنه عين حكمه بقوله: ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ إلخ.. وطيب الفداء بقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ وإنما وقع العتب على اختيار غير الأفضل، فأكثر ما يقع الترجيح في المذاهب بالنظر إلى الأفضل من حيث قوة الأدلة والقرب من الاحتياط. والله أعلم.

---

(١) جاء في الهامش - قف وافهم -.

الخامسة

ذهب جمع كثير إلى أن المذاهب كلها صواب، وأنها من باب جائز وأفضل لا من باب صواب وخطأ، ورجحوا القول بأن كل مجتهد مصيب وأن حكم الله تعالى في كل واقعة تابع لظن المجتهد وهو أحد القولين للأئمة الأربعة ورجحه القاضي أبو بكر وقال: الأظهر من كلام الشافعي والأشبه بمذهبه ومذهب أمثاله من العلماء القول بأن كل مجتهد مصيب، وقال به من أصحابنا ابن سريج والقاضي أبو حامد وأكثر العراقيين، ومن الحنفية أبو يوسف ومحمد بن الحسن وأبو زيد الدبوسي.

قال الإمام العلامة المازري: إن قول من قال إن الحق في طرفين هو قول أكثر أهل التحقيق من العلماء والمتكلمين، وهو مروي عن الأئمة الأربعة، وإن حكي عن كل اختلاف فيها.

قال القاضي عياض: القول بتصويب المجتهدين هو الحق والصواب عندنا. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

قال مؤلفه العبد الفقير إلى الله تعالى مرعي بن يوسف المقدسي الحنبلي: -

فرغت من جمع هذه الفوائد التي لست بولي لجمعها، وأتممت وضع هذه الفرائد التي لست بكفو لوضعها وذلك بسعادة التوفيق

وهداية الله لي لأقوم طريق.

في نهار السبت بعد العصر في شهر جمادى الآخرة بالجامع الأزهر سنة ثلاث وعشرين بعد الألف.

وقد أفرغت فيه طاقتي وجهدي وبذلت فيه فكرتي وقصدي، ولولا طمع واضعه في الثواب، ما كشف فضائحه، ولا عرض نفسه لتكليم الألسنة الجارحة.

فرحم الله امرأ نظر بعين الإنصاف إليه، ووقف على خطأ فأطلعني عليه، هذا ولم يكن في ظني أن أتعرض لذلك لعلمي بالعجز عن الخوض في تلك المسالك، فعسى الله ربي أن ينفع به نفعاً جماً، وأن يفتح به أعيناً عمياً وقلوباً غلفاً وآذاناً صماً، وأن يجازيني بصنيعي الجميل الوفاة على الإسلام، وأن يدخلني ووالدي وإخواني دار السلام بسلام، بمحمد النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، وأن ينفعني بهؤلاء الأئمة المجتهدين وأن يمدني بمدد علمهم وعملهم بجاه سيد المرسلين.

وقد كتب هذه النسخة المباركة العبد الفاني الفقير علي بن عمر السنواني من نسخة المؤلف عامله الله بلطفه: -

وكملت صبح يوم الأربعاء المبارك حادي عشرين محرم الحرام افتتاح عام ثلاثين بعد الألف.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

فائدة ملخصة

ذكر أهل التاريخ أن الأمين لما عزم على إخراج عهد الخلافة عن أخيه المأمون ونقله لولده موسى الهادي[1]، وكان المأمون إذ ذاك بخراسان فاستشار المأمون وزراءه فأشاروا عليه بأمور، وكان بحضرتهم شيخ من المجوس فقال: أيها الأمير الرق ثلاثة أنواع، رق الاختراع وهو الرق لله صانع الأشياء ومخترعها، ورق الاصطناع وهو رق المنعم عليه للمنعم، ورق الأتباع وهو صنفان رق الحب وهو أقربها إلى رق الاختراع لأنه سلطان مبسوط على الباطن والظاهر والثاني رق الرعية لراعيها ورق العبيد لساداتها.

وأنا أخبر الأمير أعزه الله تعالى أنه قد تظافرت له على ثلاث قوى من الرق رق الحب ورق الاصطناع ورق الأتباع.

أيها الأمير يقال: ما كثر من كثره البغي ولا قوي من قواه الظلم ولا ملك من ملكه الغضب.

أيها الأمير الهوى صدأ يعلو العقل فلا ينطبع فيه صورة الحقائق وما لم يبلغ الهوى حد اللجاج فهو نشوة السكر فإذا بلغ اللجاج فذلك رين السكر وقوة سلطانه، ولا ترشد تابع الهوى في حال استيلاء

(١) والصواب أنه موسى الناطق بالحق وإنما موسى الهادي هو أخو الرشيد ابن الخليفة المهدي ـ البداية والنهاية ١٠/ ٢٢٤ حوادث سنة ١٩٤هـ.

الشهوة والغضب عليه لأنها حال احتجاب عقله وذلك أن الهوى أملك بالنفس لقدم سلطانه عليها، فأما سلطان العقل فطارىء مستفاد وللعقل حجابان وهما الشهوة والغضب فلا يزال العقل ناظراً إلى الهوى قاهراً له ما لم يحجبه غضب أو شهوة فحينئذٍ ينبسط سلطان الهوى وينفذ حكمه.

وأول الهوى هون وآخره هون، والهوى طاغية فمن ملكه أهلكه، والهوى كالنار سهل إيقادها عسر إخمادها.

وليس الأسير من أوثقه عداه أسراً، وإنما الأسير من أوثقه هواه قسراً، وإنما يكون قبول الصواب ورده بحسب قوة التخيل الفكري وضعفه، فمن قوي تخيل فكره فهو في سلطان الرأي غالب، ومن ضعف تخيل فكره فهو في سلطان الهوى مغلوب، ومن عدم الفكر في الأمور التحق بالبهائم، ومن عصى نصحاءه أشفى أعداءه.

فتعجب المأمون من مقالة الشيخ المجوسي ثم حاوله الإسلام فأسلم فسر المأمون بذلك وعمل المأمون برأيه فأنجح الله عمله وبلغه من الخلافة أمله، وخروجه أخيه الأمين مذكور في التواريخ.

والله سبحانه وتعالى أعلم. والحمد لله وحده.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
[ومن أهل الكوفة]	٧٨
[ومن أهل البصرة]	٧٨
[ومن أهل الشام]	٧٨
[ومن أهل مصر]	٧٨
[ومن أهل بغداد وغيرهم من الفقهاء]	٧٩
فصل في تبري أبي حنيفة من القياس والرأي	٧٩
فصل في كون أبي حنيفة من كبار المحدثين	٨٢
فصل في اشتغاله بالفقه وتدوينه له	٩٠
فصل في محنته	٩٥
فصل في وفاته	٩٧
الباب الثاني: في مناقب الإمام مالك	١٠٣
فصل فيمن روى عنه مالك أو روى عن مالك	١٠٧
فصل في مدح العلماء للإمام مالك	١٠٩
فصل في الموطأ ومدحه	١١٣
فصل في اجتماع الخلفاء به	١١٧
فصل في ذكر جملة من أخباره	١١٩
فصل في محنة الإمام مالك بن أنس	١٢٣
فصل في وفاة الإمام مالك بن أنس	١٢٥
الباب الثالث: في مناقب الإمام الشافعي	١٢٩
فصل فيمن روى عنه الشافعي	١٣٤
فصل فيمن روى عن الشافعي	١٣٥
فصل فيما اتفق له من كبار الأصحاب والرواة	١٣٦
فصل في ثناء الأئمة	١٤١
فصل في سعة علمه وإخلاصه فيه وتعظيمه الحديث	١٤٩
فصل في مناظرته وإنصافه ونهيه عن علم الكلام	١٥١
فصل في تفننه في العلوم	١٥٤
فصل في أخلاقه الجميلة وكرمه	١٥٦

الموضوع	الصفحة